

رفع
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

الدكتور وهيب طنوس
مدرس الأدب العربي بجامعة حلب . وكيل كلية الآداب

الموطن في الشعر العربي

رفع
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي

الطبعة الأولى

١٩٧٥ - ١٩٧٦

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إني مدين للكثير في اخراج انتاجي العلمي الى المكتبة العربية ،
ولا يعني هذه المناسبة الا أن أشكر معهد الدراسات الشرقية بليبنغراد
التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية الذي أتاح لي فرصة تحضير نوادع علمي ،
وجميع المستشرقين ، والاختصاصيين ، والباحثين بقسم اللغة العربية في
المعهد المذكور الذين قدموا لي العون ، وفتحوا لي جميع المجالات التي
يمكن أن تساعدني ، وهيثوا لي جو الصداقة الانساني والتوجيه العلمي
المسؤول فكانوا - بما فيهم الدكتور أنس خالدوف - خير معيننا
وأفضل رديفاً .

أقدم بشكري الجزيل الى البروفيسور ف . إ . يلايف رئيس
قسم اللغة العربية في جامعة ليننغراد الحكومية ولجميع اعضاء القسم الذين
استرشدت بملاحظاتهم وبتمليحاتهم الايجابية ، كما أشكر دكتورة العلوم في
علوم فقه اللغة ب . يا . شدفار ، ودكتورة علوم فقه اللغة أ . أ . دوليتنا
لتقديمها الموضوعي العلمي العملي هذا .

شكري الخالص أقدم به الى وطني الذي هيأ لي امكانية متابعة
الدراسة ، آملاً أن أكون قد وفقت في خدمة ثلاث أممي العربية
العريقة ، بتبيان جانب من جوانبه الا وهو « حب الوطن » .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

« تقديم »

ان الظروف المعصية التي تمر بها الأمة العربية ، والشكالك الاستعماري الصهيوني على نهب خيراتها ومقدراتها ، كل هذا يدفع بنا نحن العرب - الى الوقوف ، وبزعمة وصدق ، حيال كل التحديات التي تواجهنا ، جاهدين للاستفادة من نتاج العلم الحديث ، آخذين العبرة والحظة من ماضي نضال أمتنا العريق ، لنعمل سوية ، وبوعي وصدق ، على بناء المجتمع العربي الجديد . مجتمع الوحدة والحرية والاشتراكية .

من أهم مقومات النضال في عصرنا تربية النشء العربي تربية قومية ثورية ، وغرس الروح الوطنية ، ومنذ الصغر في نفوس الناشئة . من هذه الزاوية بالذات كان اختيارنا لموضوعنا (الوطن في الشعر العربي) يرضي آمالنا في خدمة الأمة ، ساعين جيداً أن ندرس تطور هذا هذا المفهوم منذ الجاهلية ولنهاية القرن الثاني عشر ، آمالين أن يكون بحثنا هذا أولى الحلقات في أبحاث لنا مقبلة ، نستمر في دراسة تطوّر مفهوم « الوطن » الوطنية ، حتى أياضاً هذه ، راجين أن تساهم دراستنا هذه ، وبتواضع ، في كشف جانب من جوانب ثقافتنا ، ومضامين شعرنا العربي .

ان موضوع « حب الوطن » قد نال تجسيداً شعبياً في الانتاج

الفني الادبي لكافة الشعوب في كافة الأزمنة ، وبالرغم من أن هذا الموضوع قد وجد في الشعر العربي القديم ، وظهر بصور تعبيرية مختلفة متنوعة ، فانه لم يحظ حتى الآن باهتمام الباحثين الخاص . من اسباب ذلك غزارة المادة العلمية ، وتوزعها وصعوبة جمعها . أما الآن فبين ايدينا اسدار المرجع الأدبي الاول « المختارات الشعرية » للشاعر العربي السوري ، الذي عاش في القرن الثاني عشر (لأسماء بن منقذ) « كتاب المنازل والديار » . ان المخطوطة الفريدة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظة في مبهيد الدراسات الشرقية في ليننفراد ، التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم (C35) .

لقد وصف المستشرق السوفياتي الشهير الأكاديميك إي . كراتشكوفسكي هذه المخطوطة ، وكتب عنها مقالات قيمة ، وفي عام ١٩٩١ قام المستشرق السوفياتي أنس بكيفيتش خالوف بتصويرها ، ونشرها مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهارس للأعلام والقوافي والأمكنسة وغيرها .

أما إصدار المخطوطة في كتاب مطبوع فقد ظهر فيما بعد في دمشق وبيروت والقاهرة .

لقد قام أسامه بن منقذ في كتابه هذا بجمع مقطعات من أشعار المعاصرين له والسابقين ، وكذلك أشعاره الخاصة ، حيث تردّد فيها ألحان قعدان الأقرباء والأهل ، الحنين الى الوطن المهجور ، حزن الفراق مع الأحبة ، تذكر السعادة القديمة على أرض الوطن في مجتمع الأهل

رَفْعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

المدخل

سورية وفلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية الثاني

عشر XI-XII .

« مميزات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية »

رَفْعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

لقد كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر بالنسبة لسورية وفلسطين فترة حروب غير منقطعة ، وهزات سياسية عنيفة ، ففي الستينيات من القرن الحادي عشر زحفت جيوش البداءة الأتراك برئاسة السلاطين السلاجقة إلى سورية وفلسطين الموزعتين بين سلطة الفاطميين ، والبيزنطيين ، والسلالات الصنيرة ، كالافليديين والرداسيين . لقد كان على السلاجقة أن يبروا بمرحلة نضال طويلة ، بصورة خاصة مع الفاطميين ، لأجل الاستيلاء على المدن الفنية في المنطقة . ففي عام ١٠٧٠م استولى السلاجقة على بيت المقدس^(١) وبعد خمس سنوات على دمشق^(٢) . ثم إن مجموعة أخرى من المناطق والمدن قد أصبحت تحت سيطرتهم وضمن مناطق نفوذهم . ومن أجل الحفاظ على هذه الممتلكات ، وتوطيد السيطرة عليها كانت على السلاجقة وعلى قوادهم العسكريين التجارب فيما بينهم ، بعضهم مع بعض ، وضد الحكام المجاورين . أما فاطمي مصر فقد سموا جاهدتين أيضاً لاسترجاع قواعدهم المفقودة ؛ وهكذا في عام ١٠٩٨ م تمكنوا من استرجاع بيت المقدس ، وذلك قبل استيلاء الصليبيين عليه بعام ، وكذلك استرجعوا عدداً من المدن الساحلية الأخرى في سورية .

ونظراً لعدم تمكن السلاجقة من امتلاك نظام مركزي قوي في جميع الفرائب وتأمين حاجات الجيش ، فقد كانوا مضطرين أن يقيموا في سورية

ذلك النظام الذي كانوا قد استخدموه في إيران ، والذي ينطوي على إعطاء « البيكوات ، الأتراك (وقواد الجيش الآخرين) الحق في جمع الضرائب من مقاطعه ما ، لتأمين حاجات الجيش ومتطلباته ، وهؤلاء بدورهم قاموا بتقسيم وتوزيع المقاطعه بين الأتباع ، فقاد هذا النظام من جهة أولى إلى الاستغلال الظالم بدون رحمة لساكن المقاطعة ، وإلى تقسيم وتجزئة المقاطعات المعطاة بشكل (إقطاع) ، ومن جهة أخرى فقد أضاع من نعمة « البيكوات ، والأمرام للسلطان ، وكان سبباً في الحروب المستمرة على حدود الملكية .

أما في بعض المدن فقد استطاع بعض الإقطاعيين العرب أن يحتفظوا بسلطتهم ويوطدوها معترفين بذات الوقت بتبعيتهم للسلطان السلاجقة .

لقد أصبحت سورية مقسمة مبعثرة ، لم تمد فقط كل مدينة كبيرة أو صغيرة مع الأراضي التابعة لها ملكية وراثية لأسيرو عربي أو تركي مستقل ، بل إن كثيراً من المناطق السكنية الصغيرة كانت مناطق نفوذ للإقطاعيين ، حيث سعى كل منهم ، وبجد ، لتأسيس سلالة محلية مستقلة . ولقد كان بنو منقذ – أهل أسامه في عداد هؤلاء الإقطاعيين المنفذين السوريين الذين يملكون كفاية متوسطة ، وتأثيراً سياسياً كبيراً .

أما سلطة الخلفاء في هذا الوقت – حتى في مجال ممتلكاتهم الشخصية في العراق – فقد كانت محدودة بشكل واضح : الخليفة

١ - ابن الأثير . ج ١ ، ص ٤٧

٢ - ابن الأثير . ج ١ ، ص ٦٨

[لا يعتمدى كلامه بابه ولا يتجاوز جنبه]^(١) .

إضافة الى الحكومات الاسلامية الكثيرة ، والمسلات الصغيرة فقد زاحت بيزنطة على السيادة والسلطة في سورية وفلسطين ، بيزنطة التي لم تقو بأي شكل من الأشكال على الصبر لفقد ممتلكاتها (أماكن سيطرتها) في آسيا وشمال افريقيا . وفي نهاية القرن الحادي عشر ظهرت قوة سياسية عسكرية جديدة ساهمت وشاركت في حوادث سورية وفلسطين المعاصرة في ذلك الوقت ، إنها اتحاد فرسان أقطار غرب أوروبا ، ذلك الاتحاد الذي كانت من نتيجته الحملات الصليبية لأجل تحرير (الأرض المقدسة) و (قبر السيد) من (عديمي القوى) المسلمين^(٢) . على امتداد قرنين من الزمن تقريباً (لقد امتدت الحروب الصليبية مع فترات سلمية منقطعة من ١٠٩٦ حتى ١٢٧٠) سمت مجموعات هائلة من سكان أوروبا الغربية بتحريض وأوامر البابا إلى غزو الشرق .

لقد تركزت أسباب هذه الحملات الصليبية أول ما تركزت في التغيرات التي حدثت حتى نهاية القرن الحادي عشر في أوضاع الطبقات الاجتماعية في الغرب ، هذه التغيرات التي كانت نتيجة للازمات والتطورات الاقتصادية . إذ في القرن الحادي عشر قاد القحط والجوع إلى : « أن عدداً كبيراً من القرى بقيت بدون عمال في الأرض (بدون فلاحين) »^(٣).

١ - ابن دحية . النبراس . ص ٤٤ ؛ انظر أيضاً ابن جبير . الرحلة.

ص ٢٢٧ ؛ الطاهر ، أ . ج . الشعر . ص ٤٦ .

٢ - الكلمات بين قوسين من خطاب البابا أوربان الثاني .

٣ - زبوروف ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ١٤

الفلاح الاوربي المستبد به الذي يقامي من الفقر والعوز ، والتابع بشكل أعمى إجباري للاقطاعي كان في ذلك الوقت مثلاً مهنياً يعيش تحت وطأة الظلام الفكري^(٤) .

على امتداد عشرات السنوات التي سبقت بداية الحملات الصليبية الى الشرق أخذ بعض متنفذي الكنيسة الكاثوليكية « أصحاب المركز العالي الكبير للنظام الاقطاعي »^(٥) ، بتعبير حرفي ، بحسون نبض طرق حل المسألة الأساسية التي وضعت أمامهم : إبعاد صدامات الاقطاعيين الكبار والتجمعات الاقطاعية فيما بينهم ، ولهذا ليس من العجيب أن نرى فرسان البلدان الأوربية ، الجاهدين لاستئلال الشعوب والأراضي الجديدة ، والطبقة المظلومة التي وعدت بحياة غنية هائلة في الشرق بعد احتلال الأراضي الخصبة الرائعة في سورية وفلسطين^(٦) وتحرير الفلاحين المحليين^(٧) ، قد

١ - لينين ، ف . إ . مؤلفات مختارة . ج ١ ، ص ١٨٥ .

٢ - ماركس ، ك . والتجلز ، ف . مؤلفات مختارة . ج ٢ ، ص ٩٣ .

٣ - حسب كلام البابا أوربان الثاني : « فإن الأرض في الشرق قططر عسلاً ولبناً [خيرات] ؛ « مدينة بيت المقدس - إنها سيدة الدنيا ، الأرض [فيها] ، حرفياً ، جنة ثانية » . انظر :

بيلي . م . حياة صلاح الدين . ص ٥٢ ؛ وزبوروف ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ٥٢ - ٥٣ .

٤ - في الحقيقة ، إن مسيحي الشرق ، وبشكل خاص في فلسطين ، قد عاشوا في ظروف معاشية متساوية مع المسلمين ، على أقل تقدير ، في العلاقات الدينية . انظر :

Michoud, Histoire, vol. I, p. 41, والدهان بن الناصر صلاح الدين.

ساروا كلهم نحو الشرق مجتمعين تحت راية الكنيسة .

أما في سورية في تلك الاثناء فقد كانت صراعات الامراء مستمرة دون انقطاع تقريباً ، حيث لم تتوقف حتى بظهور الصليبيين . وانتقلت المدن والمناطق عدداً من المرات من يد الى أخرى . كل حصار حربي كان ممتداً نهب السكان وإفقارهم ودب اليأس فيهم ، وبالنسبة لعامة الشعب البسيطة ، فلاحين كانوا أم مدنيين ، لم تكن أسلحة الاسياد ذات معنى - أكلوا سلاحه ، أم أتركا ، أم عرباً ، أم صليبيين . تبدل الاسياد الانقلابيين ليس بذي معنى بالنسبة لهم ، ذلك لأن هذا التبدل لم يجر وراءه أية تغييرات البتة في أوضاعهم المعقدة القاسية .

لهذا نال الصليبيون في الحملة الأولى نجاحاً باهرًا ساعدهم في ذلك الانقسام والتشتت والفرقة الداخلي بين الامراء ، الذين لا يملكون آمالاً ومطامح موحدة . إذ سعى كل أمير جاهداً - وسلاحه بيده - لتجلبيق جاره ، ودافع فقط عن مطامحه ورغباته غير مهم بصير الوطن .

ولذا حتى ١١٠٩ شكل الصليبيون في الشرق ولاية الرها ، وإمارة انطاكية ، ومملكة بيت المقدس ، وولاية طرابلس .

إن نضال الشرق ضد الصليبيين ترجمته سلانسان ملكنا السلطنة الواحدة تلو الأخرى ؛ الزنكيون الذين كان أشهرهم عماد الدين ونور الدين ، والأيوبيون الذين خرج من بينهم صلاح الدين الشهيد . ولقد لعب هؤلاء السلاطين الثلاثة دوراً هاماً كبيراً في تاريخ الشرق في تلك الاثناء ، وشارك معهم اسامة بن منقذ ، بنشاط وجراًة في النضال ضد الصليبيين .

لقد تميزت الحالة السياسية في الشرق في بداية القرن الثاني عشر بعدم الاستقرار المدهش ، وبالسرعة الفائقة في تغيير والخارطة السياسية . فعلى أرض غير كبيرة - نسبياً - في اتصال وثيق مستمر ، سلماً وحرباً ، عاش أهل سورية ، والبداة الذين غادروا هضاب آسيا الوسطى منذ وقت قريب . المسيحيون والمسلمون كانوا في كلا المعسكرين المتحاربين ، لكن الرغبات والمصالح الطبقية فوقت كلا المعسكرين أكثر مما فرقها المتعقد الديني .

في هذه الظروف كان من الضروري على الزنكيين ، مسترثي النضال ضد الصليبيين ، أن يؤسسوا وحدة فكرية في معسكرهم ، فالسلاجوقيون من قبل قد بدؤوا باضطهاد الشيعة ، لكن النضال من أجل توحيد المعتد ؛ توحيد المسلمين فكراً ، لا يمكن إطلاقاً كسبه فقط بالقوة (وبالنسبة فإن نظام الملك - وزير السلاحه ، وهو ساعر لرفع مكانة الثقافة السنية ، بنى المساجد والمدارس من أجل تعليم أبناء المسلمين القرآن والحديث وعلوم الثقافة العامة) (١) . لقد سميت هذه المدارس « بالنظامية » . ولهذا فقد بنى نور الدين ، ومن بعده صلاح الدين المدارس التي تنهج النهج السني ، وتدعم هذه الطائفة وثقافتها وفكرها . ولقد سميت هذه المدارس بـ « النورية » ، والصلاحية » . ولا بد من الإشارة إلى أن الأثر الأكبر والقيمة العظيمة في توسيع المعارف والثقافة في هذا الوقت يعودان إلى « دار الحكمة » في بغداد ، و « دار العلم » في القاهرة ، و « دار المعرفة » في طرابلس .

لقد ازداد الحب للكتب وجمعها حتى إن الخلفاء، السلاطين، والأمراء قد بنوا في يومهم المكتبات التي كان لها أهمية ليست بالقليلة في تنمية مدارك ومعارف الأجيال اللاحقة ، مثلاً : مكتبة القصر الفاطمي في القاهرة (بلغ تعداد كتبها كما يقال ، مليوني كتاب) (١) . و « مكتبة نظامية بباد » و « مكتبة آمد » . ولقد ملك أسامه ابن منقذ أيضاً مكتبة خاصة ، تحتوي على ما يقارب ٤٠٠٠ / كتاب .

يرى فليب حتي « أن جمع الكتب والاهتمام بها كان عند المسلمين التسليمية الوحيدة لأن حياتهم لم تكن تألف المهافل السياسية ومسارح التمثيل المعروفة منذ القدم في بلاد اليونان وروما مما اقتضى أن تكون الكتب وحدها تقريباً السبيل إلى تحصيل المعرفة وهي التنفيس الذي يضمونه آراءهم وكوامن أفكارهم » (٢) .

في القرن الثاني عشر ، في الشرق الأدنى لم تتصادم فقط قوتان سياسيتان، بل وثقافتان أيضاً ، ولبناسية ففي أكثر العلاقات كانت الثقافة المحلية أقوى وأرفع ، وأثرت تأثيراً بليغاً على الصليبيين . طبعاً ، إن تقدم الفلسفة والفلك قليلاً مالاقي اهتمام الفرسان الاوربيين ، لكنهم بشكل واضح لمساو تفوق مستوى الحياة في الشرق ، حتى إنهم في الجبل الثاني قد تقاربوا بظواهر الحياة مع الاقطاعيين المسلمين .

١ - أبو شامة - ١ ، ص ٢٠٠ . عن هذه المكتبة كتب أسامه في كتاب المعاصر :
المعاصر : أنظر :

Derenbourg H., Le Vie d'Ousama, p.563

Hitty, ph., History of the Arabs. p. 563

- ٢

هذا كان بالضبط ذلك الوقت الذي بدأ فيه أسامة بن منقذ حياة نشيطة في الأمور السياسية . في مؤلفاته - كما سترى فيما بعد - سنعثر على الكثير من المعلومات الثمينة التي تجدد وتصف العلاقة بين المسلمين والصليبيين ، وتلك الروح الصبورة نسبياً ، التي وجدت فيما بينهم بغض النظر عن الحرب المستمرة . عن هذه الروح الصبورة قد كتب مؤلف اسلامي آخر ، معاصر لأسامة وهو (ابن جبير ٥٣٩-٦١٤/١١٤٤-١٢١٧) :

(« وكل من وفقه الله بهذه الحيات من الرباء للانفراد يلتمز، إن أحب، ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش فاعم البال ، وبشال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتمز الامامة أو التعليم أو ما شاء ، وحق ستم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المريدن المنقطعين إلى الله ، عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف إلى حيث شاء . » ومن العجيب أن النصارى المهاجرين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلدوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فإن ذلك بالمسلمين بعضهم مع بعض . » واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . ولا نصارى على المسلمين ضرية يؤدون في بلادهم من الأمانة على غاية . وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلمهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب . » وخرجنا نحن إلى بلاد الافرنج وسببهم يدخل بلاد المسلمين ونأهيك عن هذا الاعتدال في السياسة . » ورحلنا من

[تبيين] ، دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون . وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ... (١) .

وبهذا فإن العصر الذي عاش فيه أسامه إنما هو عصر الظلم الاقطاعي ، والاستغلال الوحشي للطبقة الكادحة ، عصر المنازعات الاقطاعية والحملات الصليبية . لقد لعب هذا كله دوراً ليس بالقليل في تكوين المجتمع الثقافي والسياسي والشعور الوطني والقومي ، ومفاهيم عدة ك مفهوم «الوطن» ، «نحن» و «هم» ، «جيشنا» و «جيش أجنبي» و «أرضنا» و «أرض غريبة» ، «شرق» و «غرب» . في هذه الظروف وفي هذا الجو والوسط نشأ أسامة وزرع في هذا الواقع العاصف الذي أعطاه إمكانية التعرف على أنواع مختلفة من البشر ، وحدد آفقه الواسع ، وتفهيمه وشمول نظراته التي لا تعتمد على معطيات مسبقة وأحكام ذاتية غير مستندة الى الواقع . بهذا الشمول وبهذه النظرة الواقعية الصحيحة تميزت جميع مؤلفاته.

أدب هذا العصر - عصر الحروب الصليبية - لم يدرس بالشكل الكافي وبصورة خاصة في سورية ومصر لأن اهتمامات البعثات المعاصرة ، بما فيهم العرب ، كانت موجبة بشكل رئيسي للمعربين الاموي والعباسي ، [العصر الذهبي للادب العربي] .

١ - ابن جبير ، الرحلة ، ص : ٢٣٧ ، ٢٨٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الجزء الأول

حياة أسامة وآثاره الأدبية

٤٨٨ - ٥٨٤ / ١٠٩٥ - ١١٨٨

الفصل الأول

حياة أسامة بن منقذ :

أسامة بن منقذ فارس وقائد حربي ، رجل سياسة وحكم ، شاعر وعلم عاش حياة طويلة مملوءة بالاحداث الثيرة ، وكان الشغل لاطبقة الاقطاعية الحاكمة في سورية . أثر في الوضع السياسي المنقذ للشرق الأدنى في القرن الثاني عشر ، هذا الوضع الذي حاولنا تحديد مميزاته في «المدخل».

عادة ، في حالات دراسة الحياة الخاصة للناس الذين عاشوا في عصور قديمة تواجه الباحث صعوبة عدم كفاية مادة الدراسة ، لكننا مع أسامة تقع على حالة جداً موفقة وسعيدة ، ذلك ان أسامة على مسدار حياته كان قد شغل بالمؤلفات الأدبية ، وأخرج الوجود فكرتين موقفتين : جمع في مؤلف واحد « في ديوانه » تقريباً جميع أشعاره ، وكتب - من أجل إعطاء المظهر للاجتهاد - كتاباً من تجربته الحياتية الخاصة . لقد حفظ كلا الكتابين الى وقتنا الحالي وأصدرا ، كما أنه يمكننا العثور في

مؤلفاته الأخرى على نيز من حياته الخاصة ، إضافة إلى هذا فإن نشاطه السياسي والعسكري والحربي ، انعكس في السجلات التاريخية لذلك الوقت كما أن آثاره الأدبية لم تغفل من قبل الناقدين وواضعي المجموعات « المختارات » .

ولذا ، وبصورة أساسية ، بفضل هذه الأوضاع - (شهرة شخصيته ، وغزارة المادة) - كانت قد غدت سيرة حياة أسامة في أيامنا مادة لمجموعة من الدراسات والأبحاث .

لقد كان المستشرق الفرنسي الكبير (أواخر القرن التاسع عشر) هروبغ درنورغ الباحث الأساسي الأول لأسامة وآثاره الأدبية إذ قد طبع عدة أبحاث ومقالات ونيز عن حياته . والأعمال اللاحقة عن أسامة - ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغات الأوروبية ، ومقالات ودراسات عنه قد اعتمدت كلها على أعمال درنورغ . أما في الاتحاد السوفياتي فقد طبع المستشرق الكبير الأكاديميك كراتشكوفسكي إ . ي . أعمالاً قيمة جداً عن أسامة : مقدمة وخاتمة للترجمة الروسية ، لسيرة حياة أسامة « الاعتبار » ومقالة عن كتاب « المنازل والديار » وغيرها .

ولقد صدرت في البلاد العربية مجموعة من النسخ والمقالات عن أسامة إذ كان أول عمل عن شيزر وآل منقذ مقالة ط . النعساني ، التي قرئت في المجمع العلمي العربي بدمشق وطبعت في عام ١٩٢٩ حيث اعتمد النعساني على مصادر المصور الوسطى العربية فقط . وبفهم من هذا أنه لم يكن مطلعاً على أعمال درنورغ (هذا ما يدل عليه فقدان الاقتباس والاستشهاد من مؤلفاته) .

ثم إن ف . حتي - العالم ذا المنشأ العربي قد اشتغل مع مذكرات أسامة : ففي عام ١٩٢٩ ترجم كتاب « الاعتبار » إلى الإنكليزية ، وبعد عام ، في ١٩٣٠ ، وبالاتحاد على غطوطة كتاب « الاعتبار » الموجودة في الأوسكرال في إسبانيا أصدر مجدداً النص العربي المخطوط . لقد تعرض فيليب حتى في المقدمة لعمله العلمي هذين للحياة العامة لأسامة ، ولأهم الحوادث في حياته (المقدمتان بالمضمون متشابهتان) . وبعد عدة سنوات بدى في الوطن العربي بإصدار مؤلفات أسامة .

كان أ . شاكرا أول من أصدر كتابه « لباب الآداب » في القاهرة عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩٤٦ ، وفي القاهرة ظهرت دراسة ل : م . أ . حسين عن حياة أسامة هذه الدراسة التي تحتوي على استشهادات من أعمال درنورغ ، لكن بالمقارنة معها تعطي شيئاً جديداً قليلاً . فيما بعد ، عام ١٩٥٣ أيضاً في القاهرة أصدر أ . بدوي وح . عبدالحيد « ديوان أسامة » ، وبعد سبعة أعوام من هذا ، في ١٩٦٠ أصدر « كتاب البديع » ، وفي المقدمة لهذه الإصدارات كان قد أعطي من قبل المؤلفين مختصر عن حياة أسامة . وإضافة إلى هذا فإن أ . بدوي في عام ١٩٥٤ في عمله « الحياة الأدبية .. » و ع . م . باشا في أطروحته للدكتوراه « أدب الدول المتتابعة » كانا قد خصصا مقالين منفصلين مختصرين ل إعطاء الصبغات العامة لحياة أسامة كشاعر من شعراء القرن الثاني عشر . أما آخر الأعمال العلمية العربية عن أسامة فنعود إلى عام ١٩٦٨ . هذه الأعمال تعيد المعلومات العامة المعروفة عن سير حياة أسامة في الدراسات السابقة حتى أنها لا تورد حقائق جديدة عن حياته - وكمثال على هذه

الاعمال يمكن الاشارة إلى عمل أ. زكي في « سلسلة أعلام العرب »
و م. حجازي في مقدمته لكتاب « المنازل والديار » الذي قام بتحقيقه.
إن معظم هذه الاعمال مرتبطة بإصدارات مؤلفات أسامة ولهذا فإنه يشار
إليها حكماً في نهاية هذا الفصل . ومن الطبيعي أنها جميعاً قد دخلت
عندنا في فهرست التابع لهذا العمل .

إن الاهتمام الاساسي في دراستنا موجه إلى نشوء وتطور الشاعر
الوطنية في الشعر العربي بالاعتماد على كتاب « المنازل والديار » لأسامة
بن منقذ ، وتبيان مستوى مفهوم الوطن عنده ، كما أننا نهتم بدراسة
أسامة الممثل للشعر والنثر [من خلال شعره ونثره] في أواخر النصف
الثاني من العصر العباسي .

سيرة حياة أسامة في عملنا ليست هدفاً وحيداً ، أو بحثاً مستقلاً
لكن نتناولها - في رأينا - غير ممكن ولا وارد . ولهذا سنحاول
بشكل عام دراسة وتحليل حياة وآثار أسامة بحجة وحدانية معتمدين من
أجل تحقيق هذا الهدف - لأول مرة بهذا الحجم - ديوانه ، وعدد من
المصادر القديمة التي لم تستعمل بشكل كاف . وفي طريقنا ، وفي طريقنا
وسد ترفناً على جميع الاعمال الادبية عن أسامة ، قد استطعنا ،
وبشكل دقيق مجد أن نجيب على عدد من الاسئلة التي بقيت طيلة الالة
السابقة بدون جواب ، وإن نشير الى عدد من اخطاء الدارسين في أحكامهم
ونماذجهم ، وإلى العدد من المعلومات الخاطئة التي أوردوها ، وأن نكتشف
حقائق جديدة عن حياة أسامة . كما حاولنا جاهدين في دراستنا أن
نوضح علاقة أسامة بالوطن ، وتصوره عنه ، ومستوى مفهومه عنده .

أسامة ونسبه :

لقد سموا أب أسامة ، مرشداً ، وجده ، علياً أما جده البعيد
فمنقذاً ، ولهذا فقد دعوا أسامة غالباً : أسامة بن منقذ ، ولتسهيل
ابن منقذ . وكل عشرينه : بني منقذ ، أو المنقذين . أما تسميته الكاملة
فهي أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ إلى انتهاء
نسبه إلى كنانته [الكنانة] ، وفيما بعد إلى الجد الاساسي لجميع القبائل
العربية الجنوبية - إلى قحطان ومنه إلى الأب الاول - آدم^(١) . نسب
آل منقذ وبني كنانته (شجرة العائلة) توجد في المصادر المختلفة مع
اختلافات غير اساسية^(٢) لا نرى ضرورة لتطرق لها في دراستنا .

أشهر كنية لأسامة أبوالمظفر (ابن هذا الاسم - على ما يبدو - لم يكن عنده)،
هذه الكنية موجود عند ياقوت وفي مصادر أخرى . ويوردون أيضاً أبوالمحارث^(٣) ،

١ - عماد الدين الاسفهاني ، الجريدة ، طبعة درنبورغ - XIX

ص ٢

٢ - انظر مثلاً ياقوت . معجم الادباء . II ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛

ابن خلكان ، وفیات الاعيان . III ص ٨٨ - ٨٩ ؛ ابن

الصائفي . تكملة . ص ١٧٧ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ؛ الذهبي ، سير

أعلام النبلاء . ص ٩٠٢ . المعالي ، اعيان الشيعة - XI

ص ٧ - ٢٦ .

٣ - التميمي ، المدارس في تاريخ المدارس .

وأبنا الفوارس (١) ، وأبنا أسامة (٢) ، ومن ألقابه يذكر الذهبي وأبن البوحي:
 « مؤيد الدولة » وياقوت : « مجد الدولة » وابن الجوزي (٣) : « مؤيد الدين » .
 ف . حتي في « تاريخ بيروت » وجد لقب لأسامة « عز الدين » ، والذهبي
 يدعو « مجد الدين » أما ابن خلكان فيورد نسب أسامة - الكنكاني ،
 الكلي والشيزي ، ولا بد من الإشارة الى ان هذه الانساب متفردة أو
 مجمعة يثر عليها في مصادر أخرى .

- شيزر وبنو منقذ -

لقد ظهر بنو منقذ على الساحة التاريخية ، وسببا مجدهم في فترة
 وجودهم القصيرة ، حتى إنهم تمكنوا أن يؤسسوا سلالة حاكمة مستقلة
 لم تتم طويلا ، وذلك بسبب (تراجعيا) وفاتهم وفنائهم جميعا في الكارثة
 المؤلمة التي ألت بشيزر ودمرتها ولم تبق منها إلا آثارها وأطلالها ،
 التي لا تزال شاخة تذكر مجدها النابر . ولقد كانت فترة سيادة بني
 منقذ في شيزر أشهر مرحلة من مراحل حياتها وتاريخها ، ولا عجب بعد
 ذلك أن تقرر شيزر بني منقذ وأن يقرنوا بها ، حيث كان لشيزر
 وبني منقذ الدور البارز في تاريخ البلد ومواطنيه في هذه الحقبة العvisية
 من حقب صراع العرب والشرق .

وبحق ^٤ يدعون شيزر من مدن سورية القديمة . إنها تذكر
 في النصوص المصرية القديمة باسم «سنزار» و«سنزارا» وسبها
 الاغريق «سنزارا» أما البيزنطيون «شيزار» . ويصادفنا اسم
 المدينة في صيغة «شيزر» في أشعار الشعراء العرب الجاهليين
 مثلا في أشعار امرئ القيس ، وعبيد الله بن قيس

- ١ - احمد محمد شاكر ، مصدر كتاب « باب الآداب » ، وجد هذه
 الكنية على صفحة العنوان لكتاب أسامة ، البدع في نقد الشعر ،
 الذي مستكام عنه فيما بعد ، من الممكن انهم قد نسبوا له كنية
 أبيه (انظر فيما بعد) .
- ٢ - هذه الكنية واردة عند ياقوت ، ربما خطأ ، حيث ليس من
 عادات العرب الآن إعادة الكنية باسم ذات الشخص .
- ٣ - مرآة الزمان ص ٢٤١ .

الرفيات^(١) ، أما المؤلفون اللاتينيون فقد خلطوا بين «شيزر» و «سيزريا» وسأها مؤرخو الحملات الصليبية « سيزاريا » أو « قيصرية » حيث من هذه التسمية الأخيرة تشتق التسمية العربية الثانية « قيصرية »^(٢) .

١ - يا قوت ، معجم البلدان . ج ١١ ص ٣٥٣ (ليزينغ) (١٩٦٨) .
قال امرؤ القيس :

تقطع أسباب اللبانه والهوى عشية جاورنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما تحاول ملكاً أو تموت فتعذرا
وقال ابن قيس الرقيات :

قفوا وانظروا في نحو قومي نظرة فلم يقف الحادي بنا وتنشما
فوا حزنا إذ فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا
بلاد تعمل الناس لم يولدوا بها وقد غنيت منها معاناً ومحضراً

٢ - دوتنبرغ وزكي أحمد ومصطفى حجازي يرون أن الآثار الباقية من حصن شيزر مشهورة تحت تسمية « سيجر » ، لكن في عام ١٩٧١ يزارني المدينة وبقي الحصن تأكدت من أنها تسمى «شيزر» وقد عودت الزيارة في عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ .

تعد شيزر بين الحصون المبنية على ضفاف نهر (أورنت) ، (الأرند) أي العاصي ذلك النهر الذي ينبع من جبال بعلبك في لبنان ويتابع مسيره شرقاً ثم شمالاً في الأراضي السورية ماراً بعلبك وحمص وحماه وشيزر والمضيق وأفاميا^(١) . تقع شيزر إلى الشمال الغربي من حماه على بعد ٢٨ كم على تلة مطلة على الشاطئ الجنوبي الغربي لنهر العاصي حيث يسير النهر هنا من الشرق إلى الغرب . التلة الصخرية مع القلعة (الحصن) المحيطتان بالنهر من ثلاث جهات يذكرا بشبه جزيرة متصلة من الجهة الشمالية - حيث تقع الطريق المؤدية من حماه إلى أفاميا - بحجر حجري متين وطيد . الحصن على أعلى التلة بشبه « عرف الديك » وعند عدد من المؤرخين العرب هذا التشبيه استعمل مكان التسمية^(٢) .

لقد كان حصن شيزر في تلك الاثناء صعب المنال . حسب قول أحد آل منقذ : « نظرت الى هذا الحصن فرأيت أنه يتسع لثلاثة آلاف رجل بالاهل والمال ويمكن ان تمسكه خمس ندسو » .

لقد تألفت شيزر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الحصن الخساس أو « القلعة » يتصل به « البلد » ومن مدينة « الجسر » على ضفة النهر .

كان للقلعة ثلاث بوابات : شمالية ، تقود إلى الجسر ، وغربية كان

- ١ - مصطفى حجازي (ص ٣٢) خطأ عد أفاميا والمضيق حصناً واحداً .
- ٢ - محمد الدمشقي ، النص العربي ، ص (٢٠٥) ، الترجمة الفرنسية ، ص (٢٧٩) .

استعملها أكثر وذلك لأنها تتوجه إلى المدينة ، وبوابة متصلة بالدهليز تحت الأرض الذي يقود إلى النهر حيث بواسعتها كان السكان يجلبون ماء الشرب ، وفي بعض الأحيان استعملت في الاوقات الحربية والصدام كما يتجر عن ذلك أسامه^(١) .

الأرض المجاورة لشيزر ، والمتصلة بها ، خصبة ، صالحة للاعمال الزراعية ، ولعمل السكان ، وقد أعطت إنتاجاً من الحبوب والفواكه أمن للمدينة حياة اقتصادية مستقلة ، وانتشر عليها عدد من المناطق السكنية والقرى ، من بينها : كفر نبوذا ، وبندر قنسين في الشمال ، ومعرزف في الجنوب .

لقد كان دور [شيزر] في القرون الثلاثة الاولى - على ما يبدو - قليل الأهمية لأنها تذكر في المصادر العربية بشكل نادر جداً . أما في

١ - أسامة ، الاعتبار ، اصدار درنبرغ . ص ٦٨ - ٦٩ ؛ الترجمة الروسية ص ١٦١ ؛ اصدار حتي ص ٩١ . قال أسامة : « وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الأفرنج ، لعنهم الله ، زلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم المعاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ولا تقدر نحن تجوز إليهم ، فزلوا على الجبل بجناهم وزل منهم قوم إلى البساتين ، وهي من جانبهم فتجرد شباب من رجالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسحبوا إلى أولئك النيام قتلوا بعضهم ، وتكثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا .. » .

الربيع الهجري / المائس الميلادي فقد كانت منطقة شيزر مسرحاً للصدامات المستمرة بين الحدانيين و**البيزنطيين** ، وأيضاً **الفاطميين** ، وذلك بسبب أهمية موقعها الجغرافي الاستراتيجي ، إذ كانت شيزر مفتاحاً إلى قلب سورية ، وكان حكمها سجلاً بين العرب والبيزنطيين إلى أن استولى عليها الامبراطور فاسيلي الثاني في ٣٩٠ / ٩٩٩ ، بقيت تحت سلطة بيزنطة إلى عام ٤٧٤ / ١٠٨١ .

لقد استولى بنو منقذ على شيزر في عام ٤٧٤ / ١٠٨١ وأسسوا فيها إمارة مستقلة امتد نفوذها لعام ٥٥٢ / ١١٥٧ ، وغنكوا من المحافظة على امتلاك المدينة بغض النظر عن أن جيرانهم الاقوياء : الحكام المسلمين ، والفرنجية كانوا يحاولون باستمرار الاستيلاء عليها وضربها إلى ملكيتهم . وقام بنو منقذ في مدة حكمهم بمجموعة من التحصينات الدفاعية حول شيزر . وهكذا - حتى قبل استيلائهم على المدينة - كانوا قد بنوا بوابة حصينة على الضفة الغربية للمعاصي مقابل جسر شيزر ، وسميت « بحصن شيزر » . والجسر بذاته دعي فيما بعد « جسر بني منقذ » رغم أنه - ربما - كان فقط مدعماً ومصلحاً في أيامهم . كما أقيمت التمدعات أيضاً من جهة المدينة وعلى موازاة الجسر ؛ ومن الخلف ، من جهة القلعة ، في الجنوب الغربي كان قد حفر خندق في الصخر للدفاع عن شيزر . وعلى ما يبدو فإن « مدينة الجسر » كانت قد بنيت بشكل كامل في أيام بني منقذ^(٢) .

١ - أسامة ، الاعتبار . اصدار درنبرغ ، ص ١٠٩ ، اصدار حتي ، ص ١٢٩ : « ومن إقدام النساء أن جماعة من الأفرنج الحجاج حججوا وعادوا إلى ريفية وكانت ذلك الوقت لهم . وخرجوا منها يريدون أطمية . فهاووا في الليل وجاموا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور » .

المصادر تصممت ولا تعطي شيئاً من المعلومات عن البناء ضمن البلد والحصن ، لكن ماكس يرشم - فقط - كتب عن الآثار الإسلامية (الارخيتكتورا) في شيزر^(١) . ولذا يمكن الافتراض بأن هذه الآثار عائدة الى أيام بني منقذ .

في عام ١١٥٧/٥٥٢ كانت شيزر قد تهدمت من الزلازل التي أصابت القسم الشمالي من سورية . ورغم ان نور الدين الزنكي حاول اعادة بنائها في نفس العام لكن المدينة لم تنهض ثانية . إذ إننا لا نجد الآن منها إلا خراباتها الباقية فقط . وفي عام ١٩٢٩ وجد طاهر النعساني نقوداً وكتابات عربية على أحد جدران القلعة^(٢) ، ووصفها هكذا :

« كانت في عهد بني منقذ عامرة بقطانها ومحصولاتها الزراعية وفواكهها الطيبة ، يخرج منها خمسة آلاف مقاتل ، وهي اليوم لا يكاد يوجد فيها خمسون مزارعاً ، موبوءة ، أمراضها فتاكه يضرب بها المثل لهوائها الفاسد فيقال : « أؤخم من شيزر » ، ويقال : « تفعل كذا ، وتنال كذا ، وتقول شيزر وخة »^(٣) .

أما في عام ١٩٧١ فقد بدت لنا شيزر هكذا : الحصن القديم (القلعة) حيث لا يبعش هناك أحد (يمكن رؤية مشهده في الصورة رقم ١) ، في القسم السفلي الغربي من القلعة ، وعلى الطريق السائرة من حماه الى أفلamia تقع قرية حديثة متصلة بسهل فسيح أصبح من أخصب

١ - N. Eliaseeff , Nur ad - Din , P. 223 - 224 .

٢ - في عام ١٩٧١ لم نتمكن من العثور على هذه الكتابات .

٣ - النعساني ، أسامة ، ص ٧ .

المناطق الزراعية المنتجة في سورية ، وذلك بعد تخفيف مستنقع الغاب الذي كان بؤرة للأمراض والابوة ، وفي هذه القرية مدونة ابتدائية يبنائها الحديث .

بعد عام ١٩٥٨ طبق هناك الإصلاح الزراعي فأُمتت الأراضي التابعة لآل الكيلاني ووزعت على الفلاحين . أما وراء القلعة ، وعلى بعد قليل ، على نهر العاصي ، فيقع سد محردة الذي يمتلك أهمية اقتصادية كبيرة ، حيث يروي معظم سهل الغاب المجفف .

★ ★ ★

استملاك آل منقذ شيزر

إن المصادر تعطينا روايتين عن استلاك آل منقذ شيزر ، وللنظرة الأولى تبدو أن متناقضتين . الرواية الأولى أساسها ابن الاثير ثم اعتمد عليه فيها مؤرخون آخرون (١) وتفيد ان القائد العربي صالح ابن مرداس (٢) الذين استولى على المنطقة بين حلب وعانة قام باقطاع شيزر إلى آل منقذ .

أما الرواية الثانية فترجع في الاصل إلى ابن خلكان الذي يحبر بان شيزر كانت مأخوذة بالقوة في عام ١٠٨١ وذلك بفضل الرجال الجليليين الاقوياء من بني منقذ الذي حاصروها لمدة طويلة .

والواقع نرى بان الروايين متفقان ، إذ ربما استلم آل منقذ إقطاعهم من ابن مرداس اسماً ، أما بشكل فعلي فقد كان مع البيزنطيين ، أو منطقة مختلفاً عليها ، ولا بد من الحرب لاستلاكها .

عن المنقذي الاول المشهور تاريخياً - جد جد أسامة - مقلدين نصر ابن منقذ يكتب ابن خلكان ما يلي : « كان رجلاً نبيل القدر ، سائر الذكر ، رزق السعادة في بنيه وحفدته وكان ينزل في جماعة كبيرة من كمن أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بني منقذ المنسوب اليهم ، وكانوا يترددون إلى حماه وحلب وتلك النواحي ، ولهم بها الدور النفيسة والاملاك الثمينة . وذلك كله قبل ان يملكوا قلعة شيزر . وكان ملوك الشام يكرمونهم ويملكون أقدارهم ، وشمراء عصرهم يقصدونهم ، ويعدحونهم وكان فيهم جماعة اعيان رؤساء اجلاء (١) .

لقد كان مقلد زعم بني منقذ عندما استلموا الاقطاع من المرديسي الحالي ، ذلك الاقطاع الذي لم تمكن مساحته محددة وحدوده معروفة - على ما يبدو - منذ البداية . وفي نهاية عام ١٠٤١ نجد ان مقلدا قد وسع سلطته حتى على كفر طاب (القرية الجبلية) إلى الشمال من شيزر - وربما في عهده قد بني حصن الجسر - رغم ان خلفه أكد بأنه هو الذي بناه (٢) . ويصف أسامة جد جده هذا بأنه تمتع بنفوذ كبير في حلب ، وخدم عنده الطبيب الشهير ابن بطلان ورجف امامه خوفاً

- ١ - ابن خلكان ، وفيات الاعيان . ج II ، ص ١٧٣ - ١٧٦ ؛
و ج I ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .
- ٢ - انظر فيما بعد .

- ١ - أبو شامة ، ج I ، ص ١١١
- ٢ - مؤسس السلالة المرديسية التي انتقلت في بداية القرن الحادي عشر من منطقة الحلة في العراق إلى حلب وشمال سورية ، وركزت هناك من ١٠٢٣/٤١٤ إلى ١٠٧٩/٤٧٢ .

في نضالهم لامتلاك سورية . فيه قال الشعراء شعرهم . فابن خلكان يورد
مرثية ابن أبي حصين التي ألفها في موت مخلص الدولة - مقلد . ثم لا بد
من ذكر اسم الشاعر ابن سنان الخفاجي في عداد الشعراء الذين مدحوه ،
كما أنه قال مرثية في موته وموت أخيه أبي الفيث منقذ بن نصر (مات
عام ١٠٤٧/١٠٤٧) .

أما خلفه علي بن مقلد والذي لقب « سيد الملك » فقد تابع
سياسة أبيه إلى أن تمكن في النهاية من امتلاك شيزر والسيطرة عليها .
ولهذا يجب الاعتراف بأنه المؤسس الأساسي لامارة شيزر المستقلة ، ولحكم
سلالة بني منقذ . هذا هو حديثه الشخصي عن حوادث عام ١٠٨١ كما
أورده ابن خلكان :

« شيزر حماها الله تعالى وقد رزقني عز وجل » من الاستيلاء
على هذا المعقل العظيم ما لم يأت لخلق في هذا الزمان . نظرت الى هذا
الحسن فرائت أنه يتسع لثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال ويمسكه خمس
نسوة ، فعمدت الى تل بينه وبين حصن الروم ويرف بالخراس وأخذته
بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت اليهم
وأكرمتهم ولم أكلفهم الى ما يعجزون عنه وخلطت خنازيرهم بفنني ،
ونواقيسهم بأصوات الآذان . فرأى أهل شيزر فلي فأنسوا بي ووصل إلي
قريب نصفهم فبالت في إكرامهم ووصل اليهم مسلم بن قريش فقتل من
أهل شيزر ، نحو عشرين رجلاً فلما انصرف مسلم عنه سلخوا الحصن
إلي . »

أما ابن القلانسي فيكرر إيراد هذا الحديث ذاته مع بعض العبارات

لقد ملك مقلد المنطة الواقعة على طرفي العاصي من كفر طاب
إلى شيزر ، لكنه لم يتمكن حتى نهاية حياته (مات في عام ١٠٥٠/١٠٥٨)
من التمركز في شيزر ذاتها . كما لم يتمكن من ذلك أيضاً ابنه ووريثه
علي إلا في أواخر أيام حكمه وحياته . وكان مقلد هذا مخلصاً قوياً
سعى جاهداً للاستقلال السياسي ، ونالور بدعاء مع المراديين والفاطميين (٢)

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دزبورغ ، النص العربي ، ص ١٣٦ ؛
إصدار حتي ، ص ١٨٤ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٧٧ .

قال أسامة : « وكان ابن بطالان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي
التوج مقلد بن نصر بن منقذ فظهر في جدي أبي الحسن علي بن
مقلد بن منقذ - رحمه الله - ، وضع وهو صبي . فألقى ذلك
أباه وأشفق عليه من البرس . فأحضر ابن بطالان وقال له :
« ابصر ما قد ظهر في جسم علي » فظفرو وقال : « أريد خمسةائة
دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه » فقال له جدي : « لو كنت
داويت علياً ما كنت رضيت لك بخمسةائة دينار » . فلما رأى الغضب
من جدي قال : « يا مولاي ! أنا خادمك وعبدك وفي فضلك .
ما قلت ما قلته إلا على سبيل المزح وهذا الذي بعلي بهق الشباب
وإذا أدرك زال عنه » .

٢ - لقب « مخلص الدولة » تلقاه من الخليفة الفاطمي كتقدير لمواقفه
إلى جانب الجيش الفاطمي في سورية .

النايرة ويضيف في النهاية كلام سديد الملك : «حضرت فيه ومعي سبعمائة رجل من بني عمي ورجالي وأعطيتهم مالا له قدره وقمت بأعيادهم ونواقيسهم وصلواتهم وخنازيرهم وسمعت بذلك أهل برزبة وعين تاب فجاءني رسلهم ورغب كلهم في الضم إلي » (١) .

بهذا الشكل ، في نضال مرير حاد مع البيزنطيين وقواد حلب العسكريين أخذ سديد الملك شيزر مستعملاً الحرب والسياسة ، وتصالح مع أهلها ، وحصل بفضل هدائه الرسالة إلى حلب على اعتراف حكام حلب بإمارته في شيزر بعد أن فكوا حصارهم عنها في ٢٨ صفر ١٠٨٢/٥٧٥ . وانشغل طيلة فترة حكمه في نهاية ذلك العام بتعليم أمور الامارة التي ضمت وقتها أفاميا ، كفر طاب واللاذقية .

لقد كان سديد الملك ذاهية فطناً ، حاد الذكاء ، كما كان أيضاً شاعراً حتى ان ابن خلكان قد أورد في كتابه أحسن يتبين شعريين له (٢) ، وكذلك فانه يمكن العثور على سيرة حياته وغتارات من شعره في خريدة القصر (٣) .

١ - ابن القلانيسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣ .

٢ - ابن خلكان ، I ، ص ٥٢٤ .

٣ - الخريدة ، I ، ص ٥٥٢ - ٥٥٧ .

ان اشعاره الخاصة (١) وبعض المصادر (٢) تصف سديد الملك بأنه شخص هادئ صبور ، مترو ، حازم ، ثابت ، وطيد عندما تتطلب الظروف ذلك ، ورجل سياسي ، ذكي ، لطيف ، مقدر للظروف عندما يجيب ذلك (٣) . وبلغ تلك المرتبة من الجهد والعزة بفضل معرفته وذكاائه الخي ؛ وبهذا كان موصوفاً من قبل العديد من الشعراء ، كأبن الخطيب (٤) وابن الخفاجي (٥) .

١ - المنازل . ص ٣٣٩ . قال جدي سديد الملك ذو المناقب :

ولست بحيار العزيمة إن جرت عليه رياح الخطب وهي زعازع
يكر على الاوطان طرفاً موزعاً يلين لها طوراً وطوراً يمانع

٢ - انظر مثلاً ، ياقوت ، معجم الأدباء . II ، ص ١٨٧ ؛ وابن خلكان . I ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤

٣ - انظر رقم (٢)

٤ - أبو عبدالله بن محمد بن علي بن يحيى الثعالبي ، المشهور بابن الخطيب اللمشقي الكاتب ، شاعر مشهور توفي في دمشق ، عام ٥١٧ هـ .

٥ - الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن يحيى الخفاجي ، الذي عينه محمود بن مرداس حاكماً على حصن اعزاز وسمه بقطعة خبز بدون ذنب (٥٤٦٦ هـ) لقد تبادل المراسلات الشعرية مع علي بن منقذ .

« لم يعرف أسامة جده علي بن مقلد في حياته ، لكنه شعر بأنه مرتبط معه برباط روحي داخلي . لقد كانت عند الحفيد تماماً تلك الروح الحية المضطربة ، بأمال ، وتطلعات متنوعة ، وبحب كبير للشعر والأدب » (١) .

خلف سيد ذلك في حكم شيزر كان ابنه عز الدولة أبوالمهرف نصر ، الذي استطاع بإخلاص وحب للسلام أن يحفظ استقلالها في حماة الهزات العنيفة ، والاحداث العاصفة ، والتزعاجات الاقطاعية انتالية التي اجتاحت سورية وقتها . وبسبب الاوضاع العصية التي وقت بها سورية كان مضطراً ان يتنازل عن اللاذقية وأقاليمه وكفر طاب « الى ملك شاه السلجوقي ، متباعاً بذلك سلاماً مؤقفاً . ولما لم يكن عنده وريث من صلبه (ابن) ، كان لا بد من أن يخافه أخوه مجد الدين أبو سلامة مرشد - أب أسامة (٤٦٠ - ٥٣١ / ١٠٦٨ - ١١٣٧) ، لكنه امتنع عن تسليم السلطة ، وخلفها إلى أخيه الأصغر - « د سلطان » قائلاً : « والله لاوليها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » (٢) .

لقد كان والد أسامة ، كما تروي ذلك المصادر ، (٣) تقياً ورعاً ،

١ - Derenbourg, H. Le vie de Ousama, p. 16.

٢ - أبو شامة . ح I ، ص ١١١

٣ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، ص ١٣٩ وغيرها ، ولقوت معجم الأدباء ، ح II ، ص ١٩٠ .

لم يرد ان يغير طريقة حياته وعاداته ، فابتعد عن تيمات الرئاسة وأعباء الحكم . خير وصف لحياته قول أسامة : « فأما ماكان بشيزر [من أخبار الصيد . و . ط .] فكان مع الوالد ، رحمه الله . وكان مشوقاً بالصيد لهجاً به وبجميع الجوارح ، وما يستكثر ما يفرمه عليه لفرحته . فانه كان زهته . فليس له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه . وهو ، رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن . فكان الصيد كما جاء في الخطير « روحوا القلوب تعي الذكر » . فإ رأيت قط مثل سيده وتربيته » (١) ويذكر السمعاني أنه رأى مصحفاً بخط والد أسامة كتبه بماء الذهب على الطاق الصوري (٢) ، ويقول عنه ما يلي : « مارأيت ولا أظن أن الرايين رأوا مثله ، فقد جمع إلى فضائله حسن خطه ، وتقتم بحسن تدييره على رهطه » (٣) . فليس من العجب ، والحال هذه مع والد أسامة بصفاته وطبيعته ، أن يتمتع عن الامارة ، ويسلمها إلى أخيه الأصغر « سلطان » . ويشير أسامة في مذكراته إلى شجاعته والده وصلابته وهذوء أعصابه

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٣٩ ؛ إصدارخني ، ص ١٩٢ ؛ الترجمة الروسية . ص ٢٨٤ .

٢ - بمعنى أنه محضر بصورة .

٣ - نقل ياقوت عن السمعاني هذه العبارة في معجم الأدباء : ح I ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، في تعريفه بوالد أسامة . [طبعة دار الآمون ، ١٩٣٦] . أو معجم الأدباء . ح II ، ص ١٩٠ . (الطبعة المعتمدة من قبلنا) .

وصبره في المارك حيث يقول : « وكان الوالد رحمه الله كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة . ومات على فراشه » (١) .

« وكان [عمه ووالده ، و . ط] ، رحمه الله من أشجع قومه » (٢) .

لقد كان قوي الجسم ، عتيقاً ، يتحمل الألم تحمل الفارس المقاتل : « فطن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارساً وأحرف حصانه وثني يده برعته وجذبه من المطون . فحدثني قال : « حسنت شيئاً قد لدغ زندي ، فظننته من حرارة الجوشن . إلا أن رمحي سقط من يدي ، فردتها فإذا قد طعنت في يدي ، وقد استرخت لقطع شيء من الاعصاب ... » فحضرتة ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي يدلوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف : فقال : « يا زيداً اخرج هذه الحصاة من الجراح » . فلما كله الجرائحي . فعاد فقال : « يا زيد إما تبصر هذه الحصاة ؟ ومازلتها من الجرح ؟! » فلما أنجزه قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصا القرات، (٣)

- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٣٨ ؛ إصدار حتي : ص ٥١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٤ .
- ١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي . ص ٤١ ؛ إصدار حتي ، ص ٥٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٨ .
- ٣ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٣٩ ؛ حتي ، ص ٥٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٥ .

ورغم أن مرشد قد امتنع عن الامارة ، إلا أنه طوال حياته كان الساعد الأمين لأخيه سلطان ، أزره في تسيير أمورها في ذلك الوقت العصيب ، حيث تواتت على شيزر المهجات الدورية لقبيلة « كلاب » بحلب ، والحشاشين ، والبيزنطيين ، والافرنج . وإضافة الى حذقه ومهارته كان طيب القلب (١) ، وعلاوة على كل هذا كان غرافاً بالتنجيم والفلك (٢) . قدم اليه الشراء من لثاء عدة ليقولوا الشعر في عزه وكرامته ، مفتخرين به ومادحينه . وكان نفسه شاعراً (٣) ، عبر في شعره عن عاطفته الأبوية

- ١ - مثلاً : رعى أسرة أحد من قتلهم في لحظة غضب (الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، ص ٨٦) .
- ٢ - انظر : الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٤١ ؛ إصدار حتي ، ص ٥٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٩ .
« وكان ، [أب أسامة . و . ط] ، رحمه الله ، له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن . وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبني وامتنع . فيقول : « فأعرف أسماء النجوم : ما يطلع منها ويغرب » . فكان يريني النجوم ويسرفني أسماؤها » .

- ٣ - معجم الأدباء ، I ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ؛ المنازل ، ص ٣٦ .
انظر نموذجاً من شعره . يقول أسامة : قال والذي مرشد :

تجاه أبنائه ، وبخاصة تجاه أسامة . توفي يوم السبت ، رمضان ٥٣١ هـ^(١) وبعد وفاته غادر أبنائه شيزر حسب مشيئة عمهم أبي العساكر سلطان ، ولم يعد معظمهم بعد ذلك إليها .

لقد استلم عز الدين أبو العساكر سلطان إمارة شيزر من علم ١٠٩٨/٨ إلى عام ١١٥٤/٥٤٩ ، وكان رجلاً شجاعاً ، سياسياً ومحارباً عتيقاً ، إذ إن شيزر قد تعرضت في عهده للهجمات الحربية العنيفة كما من جانب البيزنطيين ، كذلك من جانب الصليبيين ، لكن شجاعته ، ودعم جميع بني منقذ له من جهة ، وحذاقته وسياسته من جهة ثانية ، كل هذا ساعده على الدفاع عن شيزر ، وحفظها كامارة مستقلة . لقد كانت علاقاته مع أخيه مرشد وأولاده ، وبصوره خاصة مع أسامة ، جيدة ، حيث كان يرى في أسامة أمير شيزر القبل . لكن ما أن رزق ولد ذكر حتى تغيرت جميع علاقاته مع أخيه وأولاده ومع أسامة خاصة ، الذي جلبت له نجاحاته واتصاراته الشهرة والحج ، وجعلت منه المنافس الأول

ظلوم أبت في الظلم إلا التاديا
وقلت أخى يرعى بني وأسرتي
فمالك لما أن حنا الدهر صعدتي
تسكرت حتى صار برك قسوة
وفي الصدد والمهجران إلا تناهيا
ويحفظ فيهم عهدتي وزماني
وتلم مني صارماً كان ماضياً
وقربك منهم جفوة وتناسيا

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٣٩ .

والجدي لأولاد عمه ، والمهدد الوحيد لمستقبلهم .

وكان عز الدين محارباً خبيراً ، تتمتع بالمعرفة والمهارة والروية في حل الامور . يحدثننا أسامة في اعتباره عن حادثة اكتشاف فيها عز الدين خبث العدو الحربي ، ونجا من الكمين المبرر له^(٢) .

أما أيام حكمه في شيزر فتعتبر الفترة الذهبية في تاريخها . ونفسه افتخر بأنه لم يوفر شيئاً من أجل شيزر والدفاع عنها ضد الروم ، والافرنج ، والترك ، والبداء . ودافع عنها بكلمته ، وبكل شجاعة بسيفه . أما في الفترة الاخيرة من حياته فأخذ يهتم بمصير أبنائه الذين

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٤٢ ؛

حتى ، ص ٥٧،٥٨ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١١٠

قال أسامة : « رأينا سرية من الافرنج ... جاءوا الى باب المدينة قبل أن يفتح . فقالوا للبواب « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » ... قال : « شيزر » . فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم . فركبنا فكلان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ... فقلت لمعي : « على أمرك أخذ أصحابنا وأتيمهم وأقلمهم وم غير بعيدين » . قال : « ولا » ، (وكان أخير مني بالحرب) في الشام افرنجي لا يعرف شيزر ؟! هذه مكيدة ... ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال : امضيا اكشفا تل ملح ، وكان مكمناً للافرنج . فلما شارفاه خسر حصر عليها عسكر انطاكية جميعه !!

قلق على مستقبلهم ، وخاف عليهم من تجارب الحياة . وكل هذه الصعاب التي قاساها وعانها في سبيل حفظ السلطة في الامارة ظهرت عنه بتعبيرات شعرية ، حيث قال القصائد في هذا ، وهذا ما يثبت قدرته الشعرية ، وعبقريته الادبيه كفرد من آل منقذ^(١) .

توفي أبو العساكر عام ٥٤٩ / ١١٥٤ ، فخلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد - آخر حكام شيزر من بني منقذ ، حيث في أيام

١ - ابن الأثير ، الكامل . ج I ص ١٤٥٢٧ ، هذا ما تؤكدته قصيدته التي اخترنا منها ما يلي :

قال عز الدين أبو العساكر سلطان :

أبني لست بعالم ما أصنع بكم أجمع شملكم أم أصدع
ماقطع الارحام جاهلكم بما أبداه بل كيدي بذلك تقطع
أصبحت أعمى بل أصم بكل ما أمسيت أنظر منكم أو أسمع

وأبو كم من ليس ينكر أنه السدب الكمي الألمي الأروع
ذاد الجيوش برأيه وبسيفه عن شيزر فتمزقوا وتصدعوا
قد رد عنها الروم والافرنج وال آراك والأعراب حين تجمعوا

ولايته حدثت الزلازل المدمرة التي دمرت فيها دمرته شيزر فخليت وأوحشت وأفرت بعدها .

نمّر في المصادر الادبية والتاريخية على ذكر عدد آخر من رجالات بني منقذ ، الذين عاشوا في بعد عن شيزر ، لكنهم كانوا - أبنيا وجدوا - من القواد والحكام ، وتركوا آثاراً جيدة وذكرنا حسناً^(١) .

فعضد الدولة أبو الفولرس مرهف أحد أبناء أسامة ، بقي على قيد الحياة لفترة متأخرة ، وعاش في مصر أميراً^٢ في أيام حكم الأيوبيين ، وكان مقرباً من صلاح الدين وساعده الايمن حتى صار جليسه ، ونسبته ، وأنيسه^(٣) . التقى به ياقوت عام ٦١٢ / ١٢١٥ حيث كان له من العمر ما يقارب ٩٠ عاماً ، وكان مقعداً لا يقوى على المشي . يصفه ياقوت بأنه شيخ هرم صبور لخد كبير ، جماعة للكتب .

١ - انظر زاباور ، معجم الانساب . ج I ، ص ١٠٥ .
(القاهرة - ١٩٥١) ؛ وابن خلكان . ج I ص ٥٢٣ -
٥٢٤ ؛ ج II ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ معجم الادباء ، ج II ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

٢ - ياقوت ، معجم الادباء . ج II ، ص ١٧٥ .

ولد أبو الفوارس في عام ٥٢٠ / ١١٢٦ و توفي ٦١٣ / ١٢١٦ .

يمكننا القول بشكل عام : أن بني منقذ جميعاً كانوا من السادة
الاجواد ، والفرسان الشجعان والشعراء العباقرة . كان الشعر فيهم سليقة
عند الرجال كما عند النساء .

* * *

رَفْعُ

عبد الرحمن النخعي
السكنى النبى الفروسي

أسامة بن منقذ

أيام طفولته وصباه

دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي . ورزقت الاولاد فريتهم .
وكانت من النساء الصالحات صوامة قوامة ... وعاشت حتى قارب المائة
سنة^(١) .

المائلة الاقطاعية ، بأجبالها الثلاثة ، والتي ملكت بيدها السلطة ،
وحافظت على استقلال المقاطعة غير الكبيرة - شيزر ، اهتمت على الدوام
بقرية وتنشئة وراثتها الذكور بشكل رجولي كي يكون الواحد منهم قادراً
على السلطة والحكم والدفاع عن الامارة . ومن المحتمل - في عداد هذا -
أن أسامة قد ربي كوريث للعرش والسلطة في بني منقذ ، وربي كأمر .
ولهم فان كلاً من أبيه وعمه قد حاول أن يربي فيه صفات الفروسية :
القوة البدنية ، القدرة على ركوب الخيل بهارة ، المهارة الفائقة
بأستعمال كافة أنواع الاسلحة [وقتها] ، وبشكل رئيسي ، الرجولة ، البطولة
الصبر ، الحزم ، هدوء الاعصاب ، التروي والتفكير ، وضبط النفس .

في تربية أسامة كرجل وكأمر ساعد والده وعمه مثلهم الشخصي
في البطولة والرجولة ، والشجاعة ، التي كانت حتى من صفات نسامشيزر .
وإضافة إلى هذا فقد ساهم كل من التجربة الحياتية ، والظرف التاريخي
في تربيته تربية الفروسية هذه . ولقد هيأت له والدته وجدته وأخوته
جواً خصباً من المحبة والاخلاص والتضحية .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١٣٧ ؛ إصدار حتي ،
ص ١٨٦ .

ولد أسامة يوم الاحد في ٢٧ جمادى الآخرة لسنة ٤٨٨ / ٣ تموز
عام ١٠٩٥ في شيزر . ساعة ميلاده تبقى على الدوام بالنسبة له الامس
البارق ، والعنود السيد في حياته ، رغم أنه منذ ميلاده بدأ يقامي ،
ويتعذب ، فكانت صفحة حياته - حسب تعبيره - قناعاً قائماً من المصوم
والتعذب تسقط في وسطها ساعة ميلاده براقه مضيق^(٢) . ومن الواضح
يمكن أن ولادته كانت مرغوبة ، تلقاها أهلها بالفرحة والبهجة ، وعاش
طفولته بسعادة وفرح . ترعرع وربي في أسرة يسيطر عليها نظام الابوه
بشكل زائد ، محاطاً برعاية وعناية الاهل والاقرباء والخدم . مربيته
كانت « لؤلؤة » ، التي خدمت عند جده ، ورثت كذلك أباه . وكان
لجدي سيد الملك أبي الحسن علي بن مفاد بن نصر بن منقذ ، رحمه
الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والذي يجد الدين أبا سلامنة
مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت
معه . فرزقي فريتي تلك المجوز الى ان كبرت وزوجت وانتقلت من

١ - أسامة الديوان ، ص ٣٤٧ ، الخريدة ، ص ١٢٤ . قال أسامة
وهو في سن الاربعين :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا
كم ضل في ليل الشباب فذله
وإذا عددت سنيتي تم تقصتها
وأخوال المشيب يجور ثممت يهتدي
وضح المشيب على الطريق الاقص
زمن المصوم فتلك ساعة مولدي

عليهم (١).

نعم ! ان الاب لم يمنعه وبوقفه أيضاً عندما أراد قتل أفعى ، رغم أن أسامة كان وقتها صغيراً جداً : « ومرة كنت معه [مع والده.و.ط.]. وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على أفريز رواق القناطر التي في الدار . فوقف يبصرها . فحملت سلفاً كانت في جانب الدار أسندته تحت الحية وصمدت إليها ، وهو يراني فسلا ينهاني ، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطها وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة ، وبين وجعبي وبينها دون الذراع ، وجملت أحز رأسها - وخرجت التفت على يدي - إلى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار وهي ميتة » (٢) .

والوالد وهو يربي فيه الشجاعة والاقدام ، طلب منه الخنزير وتماسك الاعصاب ، وهكذا فقد لام أسامة مرة عندما هجم على الاسد في لحظة حرجة : « فإرأيتني نهاني عن قتال غير ذلك اليوم » (٣) .

لقد ملك الامير الفتى قلباً لطيفاً طيباً ، ورأساً حامية عاصفة . وهو طفل قد آزر ضد الظلم والاحتقار . لكن وجدت حوادث ، انتهت

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٧٦ ؛ إصدار حتي ، ص ١٠٣ ، الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنبرغ ، النص العربي ، ص ٧٦ ؛ حتي ، ص ١٣ ، الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

٣ - انظر . هناك أيضاً .

لقد كان لأبام طفولة أسامة وقوته - كما يرى هذا من مذكراته وشعره - الاثر الحاسم في تكون شخصيته ، وصفاته وطباعه ، حتى إنه دخل الحياة - حياة ذلك العصر - كفارس للاسلام ، أديب ، وشاعر ، وسياسي مجرب خبير ماهر .

المثل العربي يقول : « الرجال بشهون عصرهم أكثر مما يشبهون آباءهم » . والفرقة بين صفات أسامة وصفات أبيه كانت أقوى من الحوادث الكبيرة التي تميزت بها بداية القرن الثاني عشر في سورية . مع الاحترام الكامل للأب ، والاعجاب الشديد به ، قد كسب منه أسامة التبعية - للاعمال الحرة أكثر من التبعية للزهد ؛ لقد كان عدواً للفرنجة أكثر من كونه خطافاً ؛ رجل حرب وعمل وتأثير وحزم وثبات ، أكثر من زاهد وناسخ للقرآن . رباه أبوه تربية حرية قتالية ، وأشبعه بروح البطولة والرجولة :

« وما رأيت والوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مهما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره » . فركب عجي وأبي ، رحمه الله ، ووقفنا ، وكل من يصل إليها قد سيراه من خلفهم [خلف الافرنج ، و . ط] ، وجئت أنا ، فقال لي أبي : « انبهم بمن معك ، وارموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهاثكم » . فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار ، واستخلصت من كان معهم وأخذت بمسح خيل حمص . وعجبت من قوله : « ارموا نفوسكم

به فيها هذه الثورة المصاحفة إلى القساوة والظلم ، حتى إنه مرة ، لكي يدافع عن غلام مهبان ، يخدم في البيت ، قتل غلاماً (١) .

لقد كان حيويًا فمالًا منذ الطفولة لم يدرس برغبة فائقة وحساس منقطع النظير ، وكان محبًا للمعرفة والاطلاع بشكل مدهش عجب . أخذته أبوه ذات مرة مع أخته الثلاثة للصيد وظلهم في الطريق بقراءة القرآن : « فيوم خرجوه [خروج أبيه . و . ط] إلى الجبل لصيد الجبل وهو بعيد من الجبل يقول لنا إذا خرج إلى طريق الجبل : « تفرقوا . كل من عاين قراءة يقرأها » . ونحن أولاده حفاظ القرآن . فنفترق ونقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد بأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منّا . فإذا أخبرناه يقول : « أنا قرأت مائة آية أو نحوها » (٢) .

لقد حفظ أسامة عن ظهر قلب ما يقارب (٢٠.٠٠٠) بيت من الشعر لشعراء مختلفين .

لا يمكن للأهل أن يكونوا معلمين قساء مع أولادهم ، ولقد وعى والد أسامة هذه الحقيقة ، ولذا حاول ، وبسرعة ، أن يجد لابنه معلمين آخرين . فاستقدم من أجل تربيته الأدبية العالمين الشيخين : أبا

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٧ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٤٦ .

الترجمة الروسية ، ص ٢٩٦ .

عبدالله [ابن المنير] ، وأبا عبدالله [الطليطي] - عالم القواعد . لقد درس أسامة مع الأخير القواعد لمدة عشر سنوات ، وكتب عنه : « وكان في النحو سيوبه (١) زمانه . قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس فلما أخذ الافرنج (٢) طرابلس نفذ الوالدوا العلم ، رحبوا الله ، استخلصوا الشيخ أبا عبدالله هذا « وياس » الناسخ . وكان قريب الطبعة في الخط من طريقة ابن البواب » (٣) . قدر أسامة واحترم معلمه الطليطي ، الذي عرف وقتها ، حفظاً عن ظهر قلب ، عدداً من كتب القواعد الشهيرة آتت . لكن الطليطي - كما يصفه أسامة في كتابه الاعتبار - كان مشغولاً بنفسه وعلمه أكثر مما كان مشغولاً بطلابه ، في حين أن ابن المنير غنى في أسامة حب الأدب ، والبلاغة ، والبديع ، والشعر ، وعلاوة على هؤلاء فقد كان بيت آل منقذ مكان التقاء الأدباء والشعراء الذين جاؤوا إلى هنا ملاحين بيت الأمراء ، طالين منهم الرعاية والعناية والمؤازرة ، واجدين عندهم ، وعلى الدوام ، كرم الضيافة والهدايا .

١ - سيوبه : رجل القواعد العربي الشهير [توفي حوالي ٧٩٦] .

٢ - حدث هذا في عام ١٩٠٩م

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٥٣ ؛ حتي ، ص ٢٠٨ . لقد أخطأ I. sehen عندما أكد أن أسامة أمضى عشر سنوات في طرابلس دارساً القواعد العربية عند الطليطي . انظر :

Journal of Semitic studies, Vol. XVII, No 2, 1972, p. 221.

كنت حاضر القلب ، ما أدهشك القتال » . (١)

كان عم أسامة سعيداً جداً عندما يتمكن أسامة من ضبط نفسه ،
ومن الهدوء في وقت المعركة والقتال ، قائماً بالنصائح الحكيمة للكبار .
واستطاع أسامة أن يلين طباعه ، مما كان حكماً في صالحه هو أكثر
من غيره .

إن النسوة المحيطات بأسامة ، ومنذ الصغر ، قد رين فيه الرجولة
والبطولة ، حيث إن أوضاع النساء في شيزر وقتها أعطتهم سلطة كبيرة
في تربية أبنائهن .

أما الزواج فكان يستقبل في شيزر باحتفال كبير ؛ ولادة الأطفال،
وبخاصة الذكور كانت بالنسبة لآل منقذ وكأنها هبة من الله ودلالة على
رضائه ورحمته . عن أمه وجدته كتب أسامة ما يلي : « ولعمري إنهن
أمهات الرجال » . وكانت الزوجة مثال الفروسية والبطولة والاحترام
وال تقدير ، ومحاطة بكل مظاهر الاهتمام والانتباه . أما أسباب الطلاق في
شيزر فقد اقتصرت على السلوك الشاذ وعدم الحسب والانتخاب .

وكان الحدث الهام في شيزر عندما تلد الزوجة ولداً ذكراً ،
أكثر من مرة - في أصعب الأوقات وأحرجها - جدة أسامة لأبيه ،

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربنورغ ، النص العربي ، ص ٧٥ ؛

الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

لم يتمكن «سلطان» من إعطاء تربية أسامة - ابن أخيه الكثير
من وقته وانتباهه ، ذلك لأنه كان مشغولاً بأعماله الحربية الدفاعية ،
لكنه رغم هذا - لم يكن مرتاحاً لتضييع أسامة وقته في تمارينات
القواعد - قواعد الامة ، وفي الشعر [وبالمناسبة فإن الشعر بالنسبة
لسلطان كان مقبولاً كتسليية بعد المارك الحربية] ، إن
وجود القلم مكان السيف في يدي أي شاب صحيح الجسم معافى من
بني منقذ كان بالنسبة للأمير سلطان علامة سقوط الامارة . وبالإضافة إلى
هذا فإن طبيعة أسامة الحارة الحركية لم تقتنع وترتوي فقط بتلك «الضربات»
التي يضرها زيد لعمر : [المثل القواعدي الكلاسيكي المشهور : ضرب
زيد عمرأ وغيره] ، وكذلك فإن الصيد ، واهتمام أسامة به ، لم يكن
المتنفس الكافي لجميع نشاطه وحيويته .

تقد قرر العم ، وهو عالم بمقدرة أسامة وإمكانياته وطبيعته ، أن
يوجه الوجهة الحربية ويدب في نفسه تشق هذا الاتجاه . كان أسامة -
الطل الفتى محتاجاً وبصورة أساسية إلى النصيحة الهادئة الصبورة . لكنه
انفق إلى إمكانية ضبط نفسه وحماسته ، إلى إمكانية وعي واستيعاب
تكتيكات انكسارات هجوم الأعداء . « قلت : كان عمي عز الدين ...
يتفقد مني حضور فكري في القتال ، ويمتحنني بالسئلة . فنحنس يوماً في
بعض الحرب ... فقال لي عمي : وأي شي «نفذت تقول لي ؟ » قلت :
« نفذت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » فقال : « مع من نفذت
إلي ؟ ؟ قلت : « مع رجب الببد . » قال : « صدقت . ما أراك إلا

للتساء الكرام الأنفة والنخوة والاصابة في الرأي^(١) .

حياة النساء هذه ، الموصوفة بإعجاب مدهش من قبل أسامة ، كانت وكأنها انطباعات منذ الطفولة عن الحياة ، مما ترك في ذاته أثراً كبيراً ، ونغى في نفسه التعلق بالأهل ، وبسقط الرأس (وطنه) في جميع مراحل حياته .

إذا كان نشاط أسامة وحيويته ، طباعه وصفاته ، مستوى تفكيره وإنسانيه ، إذا كان كل هذا - في الغالب - قد تطور بتأثير الأب والعم ، فإن قلبه ومنذ الطفولة تنعم بلطافة أشعة حب نساء شيزر له ، وبخاصة لطافة ورقة الأمومة . لقد كانت لأسامة طبيعة حية وقوية ؛ كان يقفز في أيام الطفولة على الجدران ، يتسلقها ، والكل تشابه في الاعتقاد بأنه أكثر الأطفال حيوية ونشاطاً . وكان - غالباً - شاهد عيان للذوخرات العائلية التي جلبت له تصورات كبيرة تفوق عمره الزمني .

في عام ١٠٩٩ ، عندما عاد الخيالة من الصيد ، وأخبروا بقرب قدوم الافرنج ، وجلس الجميع من آل منقذ يفكرون بروية في الامر ، فجأة ، في قلب هذا الصمت المفكر صرح صوت أسامة قائلاً ما معناه : دعوا التفكير بهذا ، دعوم يأثوا فاننا سنقتلهم .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٩٢ ؛

إصدار حتي ، ص ١٥٢ .

لقد سئم أسامة البقاء مدة طويلة في مكان واحد ، وحاول الرحيل إلى جهة ما ، لكن شيئاً ما غير معروف كان يشده إلى شيزر رغم أحلامه بالعيش في أرض جديدة ، وبالتعرف على أنس جدد . نقطة البداية في عذابه ومشاكله الحياتية كانت تتمثل في امتناع أبيه عن الامارة ورئاسة شيزر ، وانتقال هذه الامارة إلى عمه وأبناء عمه . ولذا غدا تايماً لعمه ، وكثيراً ما عانى من هذه التبعة . تعشفه الجسد وكبرياؤه لم يقتنما بتلك النجاحات التي كان يحرزها في الصدامات الحربية . رغم إن هذه الصدامات في الواقع قد أوجدت متنفساً لبعض حيويته ، التي كانت متجددة على الدوام ، ودفعته ، وباستمرار للعطوح والتوذب .

حاول أسامة أن يملأ الحياة الفارغة في شيزر والوحدة ، بالأعمال والإنجازات الأدبية ، فقلقد وصلت إلينا بعض محاولاته الشعرية الأولى ، التي ، وباهتمام بالغ قد اسفلناها واختارها . لكن الفضل في مجده الأدبي المخلد إنما يعود لأعماله ومؤلفاته وهو شاب ناضج .

لقد حافظ أسامة على نشاطه ووجهه للحياه في كل شيء : في الصلوات في الحملات الحربية والمارك ، في التغلب على المصاعب والمقبات ، على الآلام والتعب . وكان قوي النفس والجسم ، نادراً ما مرض (هكذا في إتيقاله إلى شيزر أصيب بالزكام ومرض)^(١) ، وبسرعة يشفى بدمرزه .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ،

ص ١٣٧ .

والروح الأبية الشاغرة لم تناديه لآخر حياته الطويلة (عاش ٩٣ سنة شمسية) .

أسامة - فارس شيزر الشجاع ، « شمس زمانه الساطعة » (١) ، كان طويل القامة (٢) فارعا ، مستقيم الجسم ، جميل المشية ، رافع القوام . بشرته بيضاء ، رغم وجود ما يشير إلى أن بعض أبناء كنانة كان أسود البشرة (٣) . وبالإضافة إلى هذا لا توجد أدلة على أن أحداً من بني منقذ المنجدين من كنانة كان أسود البشرة . إن ب . لا جارد يشير في عمله المبني إلى أن أسامة كان رجل نكتة وفكاهة ، كثيراً ما تحضره البهجة ، ويسرع إلى التشبهات المضحكة ، والنكتة الفكاهية (٤) .

هذا هو الجو التربوي الذي أحيط به أسامة ، وترعرع ، وتربى:

★ ★ ★

١ - من شعر ابن القيسراني عن أسامة .

٢ - ابن القيسراني يرى أنه كان معتدل القامة .

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٠٧

٤ - درنبورغ يقتبس من Cottingische

« من صفات أسامة استقباله اللطيف الرقيق لثيئه المضحك » .
و « شعور الفكاهة الذي يظهر في اللفاظ المفردة والتراكيب ، وفي الصورة الكاملة » قد لاحظها إ . ي . كراتشكوفسكي .
انظر . المقدمة لكتاب الاعتبار ، الترجمة الروسية ، الإصدار الثاني ، ص ٣٨ .

من رعاية الأب والعم ، وتربية الأساتذة الذين استفادوا خصيصاً لتنشئته على عادة الأمراء آتذّر ، ومن جو نسائي شجاع كريم بذّر فيه بسنور الشجاعة والاقدام ، وخوض المخاطر ، والتفكير بالمواقب ، والعزة والاباء . أضف إلى كل هذا الجو الأدبي والحربي في شيزر - الذي كان المدرسة الكبرى والأعم والأشمل التي تخرج منها أسامة ، مدرسة الحياة التي ربت فيه ، وطورت ، ومنذ الصغر ، الحب إلى الوطن - إلى شيزر .

حياة أسامة في سبزر

(٤٨٨ - ٥٣٣ / ١٠٩٥ - ١١٣٨)

التحضير والتمرن على الأعمال الحربية ، الصيد مع الأب على الحيوانات الوحشية المفترسة ، والتعلم ، بكل هذا كانت مفعمة حياة أسامة - د فارس الاسلام ^(١) - في سبزر . شارك في المعارك وهو فتى يافع ، ولم يخش مرة الصعاب والمخاطرة . نفسه يتذكر هذا ويسجله قائلاً : « فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر . فكم لقيت من الأهوال ، وتفجعت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيف ، وطعنت بالرمح ، وجرحت بالسهم والجروح - وأنا من الأجل في حصن حصين - إلى أن بلغت سن التسعين . لقد حاربت من سن الخامسة عشر إلى سن التسعين » ^(٢)

إننا لا ندرى التاريخ الأكيد لمشاركة أسامة في المعارك ضد الصليبيين . ففي مكان من كتابه الاعتبار يكتب : « ومثل ذلك ماجرى لي على أنابية إبان نجم الدين بن إيلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، كسر الأفرنج على البلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة [١٤ ب ١١١٩ . و . ط] وأفانم وقتل صاحب

١ - أمين . أ . ، فارس كنانة ، ص ١٢ .

٢ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ج X ، ص ٢٣٠ ؛ الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٦٣ .

انطاكيا روجار وجميع فرسانه . فسار اليه عمي عز الدين أبو المكارم سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدي ، رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد أوصاه أن يسيرني الى أقامية عن معي بشيزر من الناس ... وسرت في نفر قليل ما يلحق عشرين فارساً ... ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر في القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك ...^(١)

وفي مكان آخر يقول : « وجاءنا دنكري^(٢) (تانكرد) فيعسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وأنا صبي^(٣) ، وهو أول يوم رأيت فيه القتال^(٤) .

وربما كان من المحتمل هنا أن أسامة يريد أن يقول بأنه منذ عام ١١١٠ شارك في المارك ، وفي عام ١١١٩ ولأول مرة ترأس

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ إصدار حتي ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨٨ - ٨٩ .

٢ - تانكرد - ابن أخت ييموند - حكم انطاكية من ١١٠٤-١١١٤ . وييموند أمير نورماندي شارك في الحملة الصليبية الأولى . توفي عام ١١١١ .

٣ - في ربيع ١١١٠ كان عمر أسامة (١٥) عاماً .

٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٦٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٢٥ .

معركة مستقلة^(١) .

في عام ١١١١/٥٠٥ وأسامة عمره ١٦ سنة كان في عداد (٥٠٠٠) جندي ، التي خرجت من شيزر ضد تانكرد . لكن درنبورغ يبدى شكوكه في صحة هذا الرقم : « هذه المبالغة العادية للرجل الشرقي لا توافق الواقع . إنني أعتقد بأن هذا الرقم لا يتوافق وعدد السكان في شيزر ، لكنه عدد السكان في أسفل الجبل وعلى شواطئه العاصي (أورونت)^(٢) .

إن رأي درنبورغ هنا لا يمكن قبوله دون نقد ، ذلك لأن أسامة مشهور كمؤلف واقعي صادق موثوق ، يقول الحقيقة حتى في تلك الحالات ، عندما لا تكون الحقائق في مصلحته^(٣) وزيادة على هذا فقد

١ - هذا ما يؤكد شعرة ، حيث يقول أنه ركب حصان الحرب وعمره (١٥) سنة (انظر . الديوان . ص ٢٠٩) :

لخمس عشرة نازلت الكيامة إلى أن شبت فيها ، وخير الخيل ما قرحا

٢ - Derenbourg, H., Le Vie d'Ousama, p. 9

٣ - هذا ما يشير إليه مثلاً في الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٥٣ ، خسر رفاقه لقلة خبرته إذ يقول : « وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا . والسبب فيه نفاذ الشبهة ثم قلة الخبرة بالحرب ... وزلوا [الأعداء . و.ط] من الجانب الآخر بالغنمة . وعدنا نحن

أثرتنا سابقاً إلى أن علي بن مقلد قال بان سكان شيزر ٣٠٠٠ رجل مع عائلاتهم ، وبدور الحديث عن هذه ثلاثة آلاف الرجل في كتابه إلى الخليفة القتيبي .

بعد عدة شهور من هذه الواقعة أرسل تانكرد إلى بني منقذ فارساً صليبياً كي يقضي بينهم بعض الوقت وهو في طريقه إلى وطنه . وكان هذا الافرنجي معجباً بأسامة ، بفروسيته ورجولته ، وبهارته في استعمال السيف والرمح .

عقد أسامة العزم على زيارة انطاكية بدعوة من تانكرد ، لكن ظروفًا غير منتظرة قد حالت دون تحقيق هذا التصميم .

لقد انقضت فتوة أسامة بسرعة وكأنها سحاب خفيف قد تلاشي .

وقد قتل منا فارسان وأخذ منا فارسان وأخذ منا ثلثه حصن والقاطنة . فبذة نغري لقة الحيرة بالحرب . وفي ص ١٤٤ يورد قصة الضبعة التي آذنه ٠٠٠ . وها هو يروي قصة الافرنجي المدو الذي يهزم أربعة مسلمين : « وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم [فرسان الافرنج . و . ط] يقال له بدرهوا ٠٠٠ فالتفت فرأى أربعة منا من ناحيته ٠٠٠ فحمل عليهم فهزمهم ٠٠٠ ودخل أولئك النفر إلى البلد فاقضحوا واستخفهم الناس ولا موم وأزروا بهم وقالوا : أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد !!! » انظر . الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

إنه يتذكر بألم مرير الأيام التي قضاها بدون متعة ، وبأسف لها لأنه شغل فيها سعيًا وراء المال والأجداد ، فلم يتمتع بها كآثرابه :

وما كنت مفتبئاً بالشباب وهل كان إلا رداء معار
ولكنني ساءني فقدته فوها له ، أي هم أثارا
ومازلت منذ ترديته كخابط ليل أعاني العثارا
أكبدهراً يشيب الوليد وهما يشب بأحشائي نارا
فوجدني أني فارقتهم ولم أبل ما يزعجون اختبارا (١)

بعد تأزم الموقف الشديد في العلاقات بين أبي أسامة وعمه توصل بمساعدة الوستاء عام ١١٢٠ إلى مصالحة فيما بينهما ؛ وعندئذ أسند العم « سلطان » إلى أسامة قيادة فرسان شيزر . غدا أسامة قائد الفرسان واتخذ النسر ذا الرأسين شعاراً له - وربما قلد في هذا البيزنطيين - ، وسافر إلى انطاكية ليتعرف العدو عن قرب ترفاً كاملاً .

لكن تمر الأيام لتوقف في موقف حرج ، وحالة معقدة ، مسع كثير من الصاعب والتعاب . ويتلخص الموقف فيما يلي : حاكم حلب

١ - أسامة ، الديوان ، ص ٢٦٨ . [ابو: أخير] .

نيمور تاش (١) استعان بمساعدة عمه سلطان ، ليكون وسيطه في الاتفاقية ، التي وجبها كان على صاحب حلب أن يطلق سراح بلدين (٢) ، الذي كان في الأسر عنده ، وعلى الأخير ، بالقباض أن يتخلى لصاحب حلب عن بعض ممتلكاته .

ركزت وساطة سلطان في أن يرسل أسامة وإخوته كرهائن إلى حلب حتى تنفيذ الاتفاقية والوساطة . لكن بلدين لم ينفذ شروط الاتفاقية . ولهذا فقد بقي أسامة في الأسر مدة ثمانية أشهر إلى أن عهد حاكم حلب الآخر إلى إعطائه حريته وفك أسر (٣) . كتب

١ - خليفه الأرتقي المرديني الغزي ، الذي استلم السلطة بعد وفاة بلن ، حيث كان هناك معتقل بلدين ؛ لقد حكم منذ ٥١٦ - ٥٤٧ / ١١٢٢ - ١١٥٢ ، انظر : يوسفورت ، ص ١٦٦ .

٢ - بلدين - حاكم (صاحب) عدد من الحصون في منطقة آسيا الصغرى ؛ واحد من جبابرة الصليبيين الأشداء - في عام ١١٢٣ كان قد أسر من قبل نور الدولة بلن ، وفي عام ١١٢٤ مات قتلاً .

٣ - زكي ، أ . ، في كلامه عن أسامة ، (ص ٦٣) يؤكد خطأ أن أسامة بقي في الأسر إلى أن استولى أتق سنقار على حلب ، وأطلق سراحه . بالنسبة أن سنقار كان قد قتل عام ١٠٩٤/٤٨٧ . (انظر . أبوشامة . I ، ص ٢٦١) ، وأسامة كان في الأسر عام ١١٢٤ .

أسامة بهذه المناسبة أشعاراً يفخر فيها بذاته ، ويشير إلى أن أعداءه يهابونه ويخشونه وهو أسير ، وأن السجون لا تحقر الرجل الحقيقي الانسان ، القادر على أعمال البطولة والرجولة :

حبسوك والطير النواطق إنما حبست لميزتها على الأنداد
وتيمبوك وأنت مودع سجنهم وكذا السيوف تهاب في الأعماد
ما الحبس دار مهانة لذوي العلاء لكنه كالغيل للأسناد

ورغم أن عم أسامة قد امتنع من شعر الكبرياء والفخر هذا لكنه سكت على مضض ، ذلك لحاجته إلى أسامة ، وإلى خبرته الحربية في قتاله مع أعدائه . وازداد فؤور العلاقة والجفوة بينها ، فبمقدار ما يحرز أسامة انتصارات يخشاه عمه . وبرأينا ، قد لعب الوشاة دوراً كبيراً في زيادة هذه الجفوة بينها ، ومن المحتمل أن حسد وحقد قد ازدادا لسبب انتصارات أسامة الحربية ، وعلو شأنه ومكاته : « وأنهم الأفرنج الذين جاؤوا من أقاليم ، فقال له (لعمه . و . ط .) بعض غلمانهم : يا مولاي ترى ما فعل ؟ يعني . تخلف عنك ، وماسار معك لقاء جيش أقاليم » (١) هذا ما يؤكد أبو شامة أيضاً الذي يقتبس قول ابن الأثير : « وسعى المفسدون بينها فذيروا كلا منها على الآخر » (٢) .

- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنورغ ، ص ١١٢ .
- ٢ - أبوشامة . I ، ص ١١١ .

لقد نصحه أبوه بترك أمر الجفوة مع عمه ، ذلك لأنه لم يشأ أن
تتكرر مأساة صراع عام ١١٢٠ ، وقالت له جدته : « ولداه أولى منك
بقلبه يا أسامة » .

لقد تفجرت الأزمة عندما أعلن سلطان أن شيزر لا تستوعب
جميع آل منقذ . ونتيجة لهذا الإعلان كان على أولاد مرشد ، ومن
بينهم أسامة ، أن يتركوا شيزر ويعيشوا في ضياعهم ، على أن يلبوا دعوة
العم للدفاع عن شيزر متى كان ذلك ضرورياً . حدث هذا عام ١١٢٨ .
وبنتيجة عاش أسامة عدداً من الأشهر في قريته ، في منطقة شيزر الريفية ،
عيشة هادئة ، لا يتكلم عن القصر ، مشغولاً بنظم الشعر ، والتعليق
على « كتاب البديع » لابن المعتز ، الذي قال عنه أسامة : « كان
مؤلف هذا الكتاب عظيماً ولكن أهله ضيعوه » ، وكأنه وجد في ابن
المعتز قريباً ونداً له للتشابه في مصيرهما .

وأخيراً ، كان أسامة مضطراً أن يفارق شيزر - وطنه الأم ،
حيث أصبح بقاءه فيها لا يطاق ، وقضى (٩) تسع سنوات تقريباً
[١١٢٩ - ١١٣٨] في بلاط عماد الدين الزنكي المهدي الوحيد ، والند
الأول لسلطة الصليبيين ، يعمل تحت رايته ، ويشاركه في معاركه ، التي
قادتته إلى أبواب بندا . إن تصميم الزنكي بالهجوم على سورية لتوحيد
كل المنطقة ضد الصليبيين وجد صدًى جيداً عند أسامة ، بأفكاره
النضالية ، فبالإضافة أن تقع شيزر تحت سلطة الزنكي بهدف النضال الأكبر
ضد الإعداء .

قبل سفر أسامة إلى عماد الدين الزنكي طلب نصيح أبيه بقصيدة
شعرية مقنعة بالفخر بالأجداد ، والكبرياء ، وشكوى من الجفوة المميتة ،
ومن علاقته بأقربائه ، راجياً من الوالد السماح له بالسفر بعيداً عن
الحساد والوشاة ، عن « وطنه » الذي لاقى فيه الازدراء والاحتقار :

دعني وقطع الأرض ، دون معاشر كل علي ، لغير جرم ، محنت
تغلي علي صلورهم ، من غيظهم فتكاد ، من غيظ علي تحرق
أعيا علي رضاهم ، فيست من إدراكه ، ما النجم شي يلحق
قد أفسدوا عيشي علي ، وعيشهم فأنا الشقي بهم ، وبني أيضاً شقوا
فضل الاقارب برهم وحنوهم فلا جفوني فالأبعد أرق (١)

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٢٨ . لقد أخطأ مصطفى حجازي عندما
أورد القصيدة في مقدمته لتحقيق « كتاب المنازل والديار » ،
مؤكداً بأنها قد كتبت بعد أن توجه أسامة وأخوته من شيزر إلى
دمشق . في الحقيقة أنها كتبت عندما توجه أسامة إلى عماد الدين
الزنكي في عام ١١٢٩ ، وعلاوة على ذلك فقد توفي أبو أسامة
عام ٥٣١/١١٣٧ ، ورحل أسامة إلى دمشق في عام ٥٣٣/١١٣٨ ،
والواضح أنه لم يتمكن حينذاك من طلب السماح بالهجرة من أبيه .
كذلك يرى حجازي أن أسامة قد وصل إلى عماد الدين في
←

لقد سمح له والده هجر شيزر ، تاركاً أسرته تحت رعاية أخيه ، طالباً من عمه أن يعطيه بعض الفرسان من شيزر ، لأنه أبى أن يقال إن أبا الساكر وبني منقذ لم يشتركوا في تكوين الجيش الذي عليه أن يكسر الافرنج تحت راية عماد الدين . ونظراً لأن العم قد شاء أن يعيد أسامة ، مها كان ذلك ممكناً ، فقد أعطاه ما طلبه .

موقف عمه منه ، موافقة الأب على هجره شيزر ، التقاؤه وعماد الدين بوجهات النظر السياسية ، التي تقضي بالوحدة الإسلامية ضد الصليبيين - كل هذا قد قاد إلى أن يتوجه أسامة إلى الزنكي في الموصل ، ويعمل تحت قيادته في عام ١١٢٩/٥٢٣ .

لقد كانت علاقة الزنكي مع أسامة جيدة ؛ استقبله استقبالا حاراً ، وأقطعته إقطاعاً بالموصل ، وغدا منزله فيها موطناً للشعراء والكتاب . عندما عين عماد الدين صلاح الدين النسياني أميراً على كفر طاب ، بقصد إبعاده عنه ، حيث إن الأخير حسب قول أسامة :

←

الوصل عام ٥٢٩ هـ ، لكن أسامة في كتابه «الاعتبار» [ص ١١١] يذكر أنه في هذا العام نفسه قد اشترك والزنكي والنسياني في حصار دمشق . ثم في عام ١١٣٠/٥٢٥ وهو موجود في الموصل ، قد شارك في التحضير لرحلة أخرى ، وفي عام ١١٣١ / ٥٢٦ شارك عماد الدين في الموقعة في تكريت .

« لا يخاف عماد الدين ولا يخاف الله »^(١) ؛ النسياني بدوره قد عين أسامة قائداً لجيشه ، رغم أنه شاركه في جميع المعارك ، كيلا يفوته شرف النصر . أراد أسامة أن يكون قريباً من شيزر ، وقضى حياته في هذه المرحلة بين الموصل وكفر طاب ، وشارك في حصار دمشق .

في كل مرة يمر فيها أسامة بالقرب من شيزر . يرجع يسوماً أو يومين على وطنه شيزر ، وبخاصة على أبيه ، ثم يتابع طريقه ثانية . لقد أفسدت عليه حياته من قبل الوشاة الذين أوغروا صدر أبيه عليه^(٢) . ولقد كتب أسامة بهذا شعراً ، محاولاً أن يبرر موقفه أمام والده :

وبعد مالي ، فاشفافي يهددني بشوب رأيك بالتكدير والرتق
وأن قلبك قد رانت عليه ، من الواشين بي ، جفوة، يها، كالفسق
أما كفاهم نوى داري، وبعذك عن عيني، وفرقة إخوان الصبا الصديق
وأنتي كل يوم قطب معركة دريئة السمر والهندية الدائق
وموضعي منك لاتسمو الوشاة له ولا يغيره كيسى ولا حمقى^(٣)

أسامة ، وهو في الزرية ، تارة في سورية ، وأخرى في العراق ،

- ١ - أسامة ، الاعتبار . لإصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ١١٦
- ٢ - في تاريخ حياة أسامة لا توجد إشارة إلى انزعاج والده منه .
- ٣ - أسامة ، الديوان . ص ١٢٩ .

يُحَنِّ إلى أبيه ، ويرسل له التحيات والاحترام ، ويتبادل معه المراسلات الشعرية :

قال أسامة :

لا تفسدن نصيحتي بشقاق وأييك ما السلوان من أخلاقي
وأبلغ تحية نارح قذفت به أيدي النوى في أسحق الآفاق
قد كان بالشامي يعرف برهة من دهره ، والآن فهو عراقي
ينزو لذكر أبي سلامة قلبه فيكاد يغرق من حشاوصفاق (١)
واهتف به : ياخير من أرجوه للأواء (٢) أو أدعوه يوم تلاق
بي لوعتان عليك يضعف عنهما جلدي : من الاشواق والاشفاق
فالشوق أنت به العليم ، وغالب الا شفاق مما أنت في ملاق
وإذا أخطأتك الحادثات ، فكل ما ألقاه محمول على الأحداق (٣)
فأجابه أبوه بقصيدة أولها :

١ - الصفاق (كتاب) : الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، أو مابين الجلد والصران . أو جلد البطن كله .

٢ - الأواء : الشدة .

٣ - أسامة ، الديوان . ص ١٣١ .

أُظُنُّ أني بعد بعدك باقي أجزى عن الأشواق بالأشواق

يقول فيها :

أبأ المظفر دعوة تشفي الظأ مني ، وإن أضحي بها إحرافي
لم أستكن أبدا لخطب نازل إلا بعدك ، فهو غير مطاق
فاذا أطعت الوجد فيك أطاعني قلبي ، ويبدى ، إن عصيت ، شقافي
فاذا ذكرتك خلت أني شارب ثمل ، سناه من المدامة ساق (١)

إن شعر الاب مملوء بكل مشاعر الشوق والحنين ، وألم الفراق للابن .

لقد حارب أسامة تحت راية عماد الدين الزنكي إلى أن كان مضطراً للمودة إلى شيزر ، ليدافع عنها ضد جيوش بيزنطة والصليبيين المتحدة في عام ١١٣٨/٥٢٣ .

تابع الامبراطور البيزنطي جاك كومنينوس (١١١٨-١١٤٣) سيامة سلفه ألكسيس كومنينوس الموجهة لتوسيع رقعة سلطة بيزنطة في آسيا وسعى لأخذ كيليكيا من الارمن ، وانطاكية من الصليبيين . فبعسد انتصاره في كيليكيا وجه اهتمامه إلى انطاكية ، لكنه لما لم يتمكن من امتلاكها سلمياً ، قرر أخذها عنوة بالقوة . ولذلك هاجمها في آب ١١٣٧ ،

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٣٣

فتوجه حاكمها ريموند دي بوانيه لطلب المساعدة من « فولك » ، حاكم بيت المقدس . لكن فولك لم يتمكن من تقديم المساعدة له لأنه كان مشغولاً بالقتال ضد عماد الدين الزنكي . ولم يبق لريموند غير عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطي . لقد نصت اتفاقية الهدنة بينها على أن تهاجم بيزنطة سورية لمساعدة ريموند ، وبمساعدة الأمراء الأوروبيين الصليبيين الآخر ، لأخذ شيزر من بني منقذ ، وحمص - من صاحب دمشق ، وحلب - من عماد الدين ؟ ومقابل حكم ريموند لهذه المناطق بمسدة الاستيلاء عليها ، يجب أن يتنازل عن انطاكية ليزنطة .

لم يقدر عماد الدين خطورة هذا الاتفاق ، وتابع قتاله مع دمشق ، فاجتمع المتحدون قرب شيزر ، وهاجموها . واضطر سلطان بن منقذ أن يطلب مساعدة عماد الدين ، واندفع أسامة للدفاع عن وطنه - شيزر . لقد كانت قوى المتحدين كبيرة جداً ، لذا لجأ عماد الدين إلى الخدعة ، فقرر أن يوقع بين البيزنطيين ، والفرنجة والصليبيين . وكان له النجاح في هذا فقرر امبراطور بيزنطة التراجع . هذا ما يصفه أسامة مفصلاً في كتابه « الاعتبار » (١).

ترك عماد الدين شيزر تحت سلطة سلطان بن منقذ ، أما أسامة فقد حار في أمره : أيتابع النضال تحت لواء عماد الدين ضد الصليبيين؟ أم يبقى مع أولاده وزوجته الذين حرموا من رعاية أبيه ، حيث كان قد توفي منذ قرابة عام [١١٣٧/٥٣١]؟ لكن القرار في مصلحة المائلة ومسقط

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٨٣.

الرأس قد غلب الشاعر الوطنية (القومية تجاوزاً) ، والنضال ضد الصليبيين . وقرر ترك عماد الدين والبقاء في شيزر ، شاعلاً وقته في صيد الأسود ، آملاً أن تمكنه بطولاته وانتصاراته من أخذ حب عمه ، متناسياً ما قالته جدته سراً عن عمه (انظر . أعلى ، ص ٧٠) (٢) .

ورغم صعوبة فراق مسقط الرأس كان أسامة مضطراً فيما بعد أن يترك شيزر . لم يعلم في البدء إلى أين يتجه : إلى الموصل ؟! إلى عماد الذي كان قد هجره منذ عام ؟! أم إلى أية جهة أخرى ؟! وأخيراً قرر السفر إلى دمشق ، وبوصوله دمشق بدأ عنده مرحلة حياة جديدة .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٩٣ .
أبو شامة . (I ، ص ١١٢) يقول اعتياداً على كلام ابن الأثير : أن هذه الالفاظ قالتها والدته ؛ وأن انتصارات أسامة الصيدية كانت سبب خروجه من شيزر إلى الابد .

يصف أسامة قدومه الاول إلى دمشق على الشكل التالي: «فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق ، ورسل أتابك [عماد الدين . و . ط] تتردد بطلي إلى صاحب دمشق . فأقمت فيها ثمانين سنة^(١) ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها^(٢) ... العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك إلى اشتغال الامير معين الدين^(٣) ، رحمه الله علي ، وملازمي له ، ورعايته لأسياني^(٤) .

قدم أسامة إلى دمشق في أواخر عام ١١٣٨ هـ حيث كان الحاكم الاسمي لها شهاب الدين محمود البوري ، الذي استلم السلطة بعد أن قتل الاسماعيليون أباه (وهو نفسه فيما بعد كان قد قتل من قبلهم في عام

أسامة في دمشق

(٥٣٣ - ٥٣٩ / ١١٣٨ - ١١٤٤)

- ١ - في عام ٥٣٢ هـ لما حاصر جان كومينيوس شيزر كان أسامة فيها ، وفي عام ٥٣٩ هـ نجده في مصر ؛ لذا علينا أن نفترض أن إقامته في دمشق لم تتعد أكثر من (٧) سبع سنوات قمرية .
- ٢ - شهاب الدين محمود - أتابك دمشق من سلالة البوريين ، حكم من ١١٣٧ - ١١٣٩ .
- ٣ - الامير معين الدين أنثر (أنثر . في ديوان أسامة) - أول وزير بدوي . مات عام ١١٤٩ .
- ٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورخ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٤٦ .

١١٣٩) . لكن الحاكم الفعلي كان الوزير معين الدين أئمر^(١) . وبعد وفاة شهاب الدين انتقلت السلطة إلى أخيه جمال الدين ، وبسرعة إلى عبيد الدين . وفي هذه الأثناء كان عماد الدين قد استولى على بعلبك في عام ١١٤٠ ، وهدد دمشق . لقد كان أئمر سياسياً لامعاً . فبعد المشاورة مع أسامة قرر أن الطريق الوحيد للدفاع عن دمشق ضد عماد الدين - هو الاتحاد والاتفاق مع الصليبيين وبشاط وحماة دخل أسامة في النضال ضد عماد الدين - صديقه القديم . كان على أسامة مهمة عقد الاتفاق (الاتحاد) مع الفرنجة ، فاسافر لاجل ذلك إلى فولك الخامس - ملك القدس ، الذي أصبح رئيس المملكة بعد وفاة حميه . (أب زوجته) بلدوين الثاني^(٢) في ١١٣١ ، للنقاش في إمكانية إقامة اتحاد ضد الزنكي .

لم ينس فولك الخامس الخدمة التي أداها بنو منقذ حميه سابقاً ، ولهذا بحجارة ، كان قد استقبل أسامة الذي استطاع بفضل هذا أن ينفذ المهمة التي كلف بها بنجاح . أعطى أسامة صورة عن الموقف في دمشق ، مؤكداً أن في يد الزنكي الموصل ، حلب ، حماة ، حمص ، وبعلبك ، وإذا استولى على دمشق فيسكون هذا تهديداً كبيراً للفرنجة ، ذلك لأن سلطة عماد الدين في سورية مستعظم . لقد عقدت الاتفاقية لصالح الطرفين ، وجاء فيها ما يلي : الفرنجة يقدمون قوة حربية ، ودمشق تدفع لهم

- ١ - في الترجمة الروسية « لكتاب الاعتبار » ، وفي مقدمة ديوان أسامة يسمى (أئمر) .
- ٢ - زوجة فولك الخامس كانت ابنة بلدوين الثاني .

مقابل ذلك (٢٠ ألف يوزن شهرياً) ، وبقوتها الذاتية تحتل بانياس^(٣) ، وتأخذها من الزنكي . كان الاتفاق من وجهة نظر حكم دمشق مربحاً ، أما أن يكون الاتفاق صحيحاً أو غير صحيح فهذا شيء آخر . وبعد البدء بتنفيذ الاتفاقية تمكن الدمشقيون من دحر جيش الزنكي ، المحاصر لدمشق في رمضان ٥٣٤/١١٤٠ ، وأخذوا منه بانياس ، وأعطوها للفرنجة . أما أسامة ، فبفضل جهوده السياسية ، قد علا نجمه عند أهالي دمشق والفرنجة معاً . وتنقل أحياناً بحرية كاملة مع الوزير أئمر^(٤) في مدن الأفرنج كطبرية ، وعكا ، وبانياس ، متعرفاً على حياة وعادات الفرسان الفرنجة .

ثم أُرسل أسامه أيضاً من قبل معين الدين أئمر لعقد الاتفاق مع وزير مصر - رضوان الوطشي^(٥) ، الهارب من مصر ، والمفتش عن ملجأ في صليخدا^(٦) ، والذي يرغب في طلب النجدة من عماد الدين الزنكي .

- ١ - بانياس - مدينة في الاطراف الجنوبية من لبنان ، عند منبع نهر الاردن .
- ٢ - انظر . الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٤٢ .
- ٣ - رضوان السيد الأجل* الملك الأفضل . كان وزيراً في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ من ١١٣٧ - ١١٣٩ .
- ٤ - صليخدا - مدينة في حوران الى الجنوب الشرقي من دمشق .

ان إتحاد رضوان وعماد الدين - فيما لوحدث - يهدد صديق أسامة معين الدين أزر . فكان على أسامة أن يقنع رضوان بمسدم الدخول في هذا الاتفاق ، والامتناع عن تنفيذ الوعد بالسفر الى عماد الدين^(١) ، وتم الاتفاق على أن يذهب رضوان إلى دمشق ، ويقيم هناك [٣٠٠٠٠ دينار^(٢) ؛ نصفها دراهم ، ونصفها الثاني منتجات زراعية ، ويعطوه دار العقيقي ، وإمكانية تأسيس ديوان لأصحابه . لكن رضوان خان ذلك ، وعاد إلى مصر ، آخذاً معه جنداً من صلحده .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي، ص ٢٢-٢٣؛ الترجمة الروسية ، ص ٧٦-٧٧ ويذكر أسامة في « الاعتبار » أن أمين الدولة تكتكين كان في صلحده وقتها ؛ لكن الأتابك تكتكين - مؤسس السلالة البورية في دمشق كان قد توفي عام ١١٢٨ ، ولهذا فانه يوجد في حديث أسامة عدم دقة . من الممكن أن الذي وجد وقتها هناك جوموشتكين لانتكين .

٢ - حسن ابراهيم حسن في كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » (القاهرة ، ١٩٥٨) يخطئ عندما يكتب « عزل رضوان ففر إلى الشام وطلب من زنكي أتابك الموصل مساعدته ، وكان رضوان ينوي غزو مصر ، ولم يشته عن ذلك إلا أسامة الذي أوفد اليه من القاهرة ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار فعدل عن ذلك » . ذلك لأن لقاء أسامة مع رضوان كان قبل سفر أسامة إلى مصر .

وعندما بلغ مصر خانه الجند الأتراك ، فالتقى به الحافظ^(٣) في السجن .

لقد صادق أسامة في دمشق معين الدين أزر ، وأكرمه ونال على ذلك هدايا ثمينة ، حيث يكتب عنها في شعره :

معين الدين ، كم لك طوق من بحيدي مثل أطواق الحمام
يعبدني لك الاحسان طوعاً وفي الاحسان رق للكرام
فصار إلى مودتك انتسابي وإن كنت العظامي العصامي
ألم تعلم بأني لانتسابي إليك رمى سوادي كل رام
ولولا أنت لم يصحب شماسي لقسر دون إعذار الحسام
ولكن خفت من نار الأعادي عليك فكنت إطفاء الضرام^(٣)

لكن الظروف فيما بعد قد تغيرت ، إذ ظهر منازعات ومتنافسون لعين الدين منهم أبو الفوارس السيب بن علي بن الحسين المشهور بابن الصوفي ، الذي تازع معين الدين على سلطته ومكانته ، وبدأ يحول ضده المؤامرات ، ويدير الفتن والعصيان ، وسعى جاهدأ ليصبح وزيراً مكانه . ولهذا فقد

١ - الحافظ لدين الله - لقب الخليفة الفاطمي أبوالمعيد (١١٣٠-١١٤٩).

٢ - عندما توجه أسامة إلى مصر ، كان رضوان لا يزال في السجن.

٣ - أسامة ، الديوان . ص ٢١٩ ،

كان معين الدين بحاجة إلى رجل ، يعرف أكثر مما يعرف أسامة عما يحاك ضد الوزير في الخفاء . إضافة إلى هذا فإن أسامة ذاته قد ملك حساداً ، وأمثاله لا يعدمون مثل هؤلاء الحساد ، الذين حاولوا الايقاع بينه وبين معين الدين . لقد سعى به الواشون عند معين الدين مما سبب انحراف قلبه عن أسامة ، وصبت على أسامة الحياة في دمشق ، ونبت به الشام « أبو الدار بالكریم » حسب كلام العباد الاسفهاني .

أخطر أسامة إلى الرحيل مع أهله إلى مصر ، فودع معين الدين بقصيدة مملوءة عتاباً وشكوى ، شبيهة - من حيث مضمونها - بقصيدة المتنبي - في أيامه - التي كتبها في سيف البولة عندما قرر السفر عنه بعيداً إلى مصر - إلى كافور ، مع تشابه بين المناسبتين . حتى كانت قصيدة أسامة معارضة لقصيدة المتنبي ، مشيراً فيها إلى الوشاة الذين كان معين الدين قد اعتمد على آرائهم في حكمه على أسامة ، مادحاً معين الدين ، ومذكراً بتلك الحوادث ، التي كان فيها خلاصاً له ومؤيداً ومدافعاً . ثم ينتقل بعد كل هذا ليعرض الخطر المحدق به وبمائلته من وقوع في يد الافرنج ، ويشير إلى أنه لا بأسف على رحيله عن بلد لا تقدره ، لكنه بأسف بأنم على فراقه معين الدين ، ويطلب له الصحة والسعادة ورعاية الحياة :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب ، وما نالك من زينة الدنيا قلت : هم

بليغ أميري : معين الدين ، مألوفة

هل في القضية يا من فضل دولته

تضييع واجب حقي بعد ما شهدت

وما ظننتك تنسى حق معرفتي

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من

لكن تقانك مازالوا بنفهم

هبتنا جنينا ذنوباً ، لا يكفرها

ألقيتهم في يد الافرنج متبماً

من نازح الدار ، لكن وده أمم

وعدل سيرته بين الوري علم

به النصيحة ، والاخلاص ، والخدم

وإن المعارف في أهل النهى ذمم

وُدٍّ ، وإن أجلب الأعداء ، ينصرم

(حتى استوت عندك الأتوار والظلم)

عذر ، فماذا جنى الاطفال والحرم

رضاعداً يسخط الرحمن فعلمهم (١)

وهكذا كان أسامة مبعداً^(١) ، فانتقل من دمشق إلى مصر
[القاهرة] ، وربما لم يكن يتقدمور معين الدين أن يتنعمه من الرحيل ،
ويحتفظ به .

« ثم مرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضع من حوائج
داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله . وفرطت في أملاكي ما كان نكبة
أخرى^(٢) . كل ذلك والأمير معين الدين ... محسن بجل كثير التأسف
على مفارقتي مقر بالعجز عن أمري ، حتى إنه أنفذ إلى كاتبه الحاجب
محمود المسترشدي ... قال : « والله لو أن نصف الناس معي لضربت بهم
النصف الآخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك .

أسامة في مصر

(٥٣٩ - ٥٤٩ / ١١٤٤ - ١١٥٤)

١ - عمر موسى باشا في كتابه « أدب الدول المتتابعة » يخطئ. إذ
يكتب [ص ٢٧٥] أن أسامة لما رحل عن دمشق عندما
شاهد حاكمها يريد عقد اتفاقية مع الفرنجة ضد الزنكي . والحقيقة
أن أسامة ذاته عقد هذا الاتفاق باسم حاكم دمشق .

٢ - إن المصيبة الأولى عند أسامة ، كما عدها هو ، حدثت في حصار
شيزر من قبل البيزنطيين والفرنسيج ١١٣٨/٥٣٢ (الاعتبار ،
إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة
الروسية ، ص ٤٥) .

لكن الناس كلهم قد تماؤوا علي ومالي بهم طاقة . وحيث كنت فالتقي
بيننا من المودة على أحسن حاله ... فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس ،
الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة [٣٠ تشرين
ثاني ١١٤٤ . و . ط] (١).

قدم أسامة القاهرة مع أمه ، وزوجته وأخيه محمد . واستقبله
الخليفة بكل مظاهر الاحترام والتقدير ، وأتاح له فرص الحياة المهنية
على خير ما يكون :

نلت في مصر كل مايرتجى الآمل من رفعة مالٍ وجساه (٢)

إنه لمن المحتمل أن يكون رضوان الوخشي قد تحدث عن أسامة
في قصر الخليفة مع رجال القصر الكبار ، ولهذا من الممكن أن يكون
الجميع في مصر قد رأوا فيه مثلاً لسورية بقادتها المسكرين ، وانجابهما
السياسي .

عاصر أسامة في مصر خليفتي فاطميين : عث في أواخر أيام

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، ص ٣٤ ؛ الترجمة
الروسية ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٦٣ .

الخليفة الحافظ (١) ، وعاصر خلافة الخليفة الظافر .

لم تكن الأحوال السياسية في مصر وقتها متينة مرضية ، فالتلاف
على أشده بين الخلفاء ووزرائهم ؛ كل منهم يحاول جاهداً نكابة الآخر
وانتهاءه . المؤامرات المتلاحقة الدائمة بمشاركة الجيوش قادت إلى إضمحلال
الاقتصاد في مصر ، مما أدى إلى أن قاسى السكان الكثير من هذا .

لم يشارك أسامة في البداية في هذه الاحداث الانقلابية . ونعتقد
أنه كان حذراً ، لم يرد المشاركة في أعمال لم يعرف نتائجها . فرغم قربه
ومكانته عند الخليفة الحافظ لم يحرك ساكناً لتخفيف عن رضوان
الوخشي ، الذي قبله الخليفة ، بعد أن حاول الفرار من السجن . ربما
أن أسامة قد أراد مقتل رضوان ، ذلك لأنه قد أخذ بشرط اتفاقه
معه في سورية .

وحدث بعد ذلك انقلاب عسكري ، مات بعده الخليفة الحافظ ،
وغدا خليفة البلاد ابنه الأصغر أبو منصور اسماعيل الظافر بالله (٢) ،

١ - يكتب ابن خلكان [ح ١ ، ص ٨٨ - ٨٩] عن قدوم أسامة
إلى مصر في عهد الخليفة الحافظ الذي قدره وقدم له إمكانية العيش
الحادى ، لكنه يؤكد - خطأ - أن أسامة قد نظم مؤامرة ضد
هذا الخليفة .

٢ - لقد كان لهذا الخليفة الفاطمي (١١٤٩ - ١١٥٤) من العمر وقتها
ثمانية عشر عاماً فقط .

الذي عين وزيره نجم الدين بن مسال ، فلم يرق ذلك للأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن السلار والي الاسكندرية وقتها ، الذي دخل القاهرة بجنده ، واستولى على قصر الوزير ، وقرب منه أسامة ، وأسكنه في بيته . وتمكن بمساعدة ابن زوجته^(١) عباس وابنه [ابن عباس] ناصر الدين وأسامة أن ينهي ابن مسال ، ويستلم من الخليفة منصب الوزير^(٢).

أسامة سفير الى سورية

عندما غدا ابن السلار وزيراً وجه كل اهتماماته للوقوف بوجه الافرنج ، الذين بدأوا بتهديد مصر . لقد سعى لتوحيد مصر وسورية لمحاربة الافرنج وقتلهم في فلسطين ، واضعاً في حسابه كل الاحتمالات العسكرية والديبلوماسية . فأرسل أسامة إلى دمشق ؛ إلى نور الدين الزنكي مع اقتراح بالطلب من الزنكي مهاجمة الافرنج في طبرية^(١) ، على أن يهاجم المصريون في ذات الوقت غزة لأن الافرنج بدأوا بتهديدها ، ثم التوجه لمحاصرة عسقلان^(٢) .

سافر أسامة ليعمل على تنفيذ مهمه سفارته في عام ١١٥٠ ، آخذاً معه [٦٠٠٠ دينار مصرية] بأوامر أن يعطيها إلى نور الدين ، فيما إذا هاجم طبرية ، أما إذا لم يتمكن من مهاجمتها ، فعلى أسامة أن يجمع

١ - مدينة في شمالي فلسطين .

٢ - في هذه الفترة كانت عسقلان في الحكم لا تزال تابعة للخلافة الفاطمية ، وكانت آخر حصن للحكم الاسلامي في فلسطين . ووقعت تحت سيطرة الصليبيين لأول مرة عام ١١٥٣ ، في عهد حكم بلدوين الثالث ، حاكم بيت المقدس .

١ - أم حاكم بليس - عباس [بلارة] في زواجها الثاني كانت زوجة ابن السلار .

٢ - عن هذه الحوادث انظر (أسامة ، الاعتبار . ص ٦) .

جيشاً تحت إمرته ، ويقدم به إلى عسقلان ، منتظراً أوامر ابن السلاّر .
وصل أسامة إلى بصرى^(١) بعد أن تعرض في طريقه إلى عذاب شديد كاد يؤدي لجميع المال الذي معه ، واتفق هناك بأسد الدين شيركوه^(٢) - قائد جند نور الدين ، ثم سافرا بعد ذلك إلى دمشق لاجراء المحادثات مع نور الدين . لكن جواب نور الدين على مقترحات مصر الذي قتله لأسامة كان : « فقال لي : يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج^٣ أعداء ، ما آمن منها إذا دخلت بينها » . عندئذ طلب أسامة من نور الدين السماح : « بأن أدب من محرومي الجند قوماً آخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك » . وتلقى موافقة نور الدين التالية : « قال : « افعل » . فديوت إلى الاثنين الآخر ثمان مائة وستين فارساً وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج^٤ نزل باليوق وزحل باليوق^(٥) ، توجه أسامة بعدها إلى عسقلان ، وأمضى هناك أربعة شهور محارباً الافرنج بمساعدة أخيه عز الدولة أبي الحسن علي^(٦)

١ - مدينة قديمة في حوران إلى الجنوب من دمشق .

٢ - قائد جند نور الدين الزنكي ، وعم صلاح الدين الأيوبي المشهور عند الأوروبيين باسم «صلاح الدين» .

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ١٠ ؛ حتي ، ص ١٤ - ١٥ .

٤ - هو الأخ الأكبر لأسامة ، كان قد ترك شيزر معه وعاش في دمشق ، ومنذ عام ١١٤٤ في عسقلان ، حيث قتل هناك عام ١١٥٢ .

وجنوده ، الذين قدموا معه من دمشق . وانصباعاً لأوامر ابن السلاّر غادر أسامة عسقلان عائداً إلى مصر ، تاركاً فيها أخاه ، حيث عاش أسامة بعد ذلك خمس سنوات في مصر / ٥٤٤ - ٥٤٩ / ، مشتركاً في المؤامرات السياسية ، والانقلابات العسكرية ، التي عانت منها مصر كثيراً في تلك الفترة .

حسب رواية ابن ميسر قام أسامة مباشرة بتجريض عباس^(١) على علي أن يستخدم منزلة ابنه ناصر الدين نصر لكونه عشيق الخليفة^(٢) . وبعد حصول ناصر الدين على موافقة الظافر ، بشكل خياني دخل إلى بيت ابن السلاّر : « احتز رأسه ، ومضى به إلى الظافر بالقصر^(٣) » . كان هذا - حسب رواية أسامة - يوم الخميس ٦ محرم لعام ٥٤٨ هـ . وبعد سماع عباس بقتل ابن السلاّر (العادل) دخل القاهرة وأصبح وزيراً فيها .

يفهم من هذه الرواية إن أسامة إنما أوقع وحرص عباساً على قتل ابن السلاّر واحتلاله مكانه . وعلاوة على هذا فإن الظافر لم يجب ابن

١ - لقد كان حاكم بلبيس ، المدينة الرئيسية في المنطقة الشرقية إلى الشال الشرقي من القاهرة ، حيث كانت هناك المراكز البربرية الأساسية للدفاع عن مصر ضد الصليبيين .

٢ - ابن إيلس ، تاريخ مصر ، ٦٥ .

٣ - ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٩٢ .

السلار كما قال ذلك أسامة :

« كل ذلك والظافر منحرف عنه [عن ابن السلار . و . ط] ،
كله له ، مضمر له الشر ، فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان
الخاص وغيرهم من استمالتهم وأنفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه » (١) .

ويرى ابن الأثير أيضاً في كتابه « الكامل » أن أسامة هو
ذلك الرجل الذي زين لعباس مقتل العادل زوج أمه . وهذا ما يقوله
ابن خلكان مع التشديد على اشتراك أسامة بتعرضه على قتل
ابن السلار (٢) . أما أسامة ذاته فلا يعرف بأي شيء من هذا في حديثه
عن هذه الحادثة . إنه يتحدث مقلداً للهمة على نصر الذي دبر هذا
بالاتفاق مع الظافر ، ولا يشير أبداً إلى معرفته بهذا أم لا (٣) .

إن آراء ابن ميسر ، وابن الأثير عن أمراء مصر واستيحاشرهم
أسامة بعد مقتل ابن السلار متفقة ، إذ يفترضان أن أسامة لعب دوراً
رئيسياً في مقتل ابن السلار ، حتى إن ابن ميسر يخبر بأن أمراء مصر
قد أخذوا بأنفوسهم بقتل أسامة ذاته .

ويؤيد أسامة في براءته بعض البحاث العرب المعاصرين كمصطفى

- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ٦ .
- ٢ - ابن خلكان . ح ١ ، ص ٥٢٨ .
- ٣ - أسامة الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٠٣ .

حجازي (١) ، وأحمد شاكر (٢) . ونعتقد - نحن شخصياً - أن أسامة
كان قد شارك في مقتل ابن السلار بلا شك ، وأكثر من هذا ، كان
أسامة قد فقد تماماً ثقة وزراء مصر بعد سفره منها إلى سورية (٣) .

اتفق الجميع على أن نصراً قد قتل ابن السلار . وبعد قتله
ابتعد كل الأمراء عن نصر وقطعوا علاقتهم به إلا أسامة الذي - خلافاً
لهم جميعاً - تابع صداقته معه كما يكتب عن ذلك هو نفسه قائلاً :
« وأنا مع ابن عباس (نصر . و . ط) لا يفسح لي في الغيبة عنه
ليلاً ولا نهراً : أظن وأرأي على رأس مخدته » (٤) .

ومن جهة أخرى فإن جهد أسامة بالسفر إلى سورية ، تاركاً
عائلته في مصر ، إننا هودلالة أكيدة على أنه قد خشي نأر الأمراء ، غير
عارف كم سيبقي صديقه طلائع في السلطة . هذا يجعل ما يقدمنا للتأكيد
على مشاركة أسامة في المؤامرة والقتل .

بعد مشاركة أسامة في قتل ابن السلار ، بشارك في مؤامرة

- ١ - المنازل ، ص ٤٦ . يرى حجازي أن ما يؤكد براءة أسامة هو
المراسلات الشعرية بينه وبين ابن رزيك ، والاحترام المتبادل بينهما .
[انظر فيما بعد ،] .

- ٢ - باب الآداب ، المقدمة ، ص ٢٣ .

- ٣ - 6. Nikita Elisseeff, Nur ad-Din, p. 577.

- ٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٤ .

أخرى ضد الخليفة الظافر . ونجبر ابن ميسر بأن أسامة قال لعباس :
« كيف تصبر على ما يقول الناس في ولدك ، ولتألمهم له بأن الخليفة
يفعل به ما يفعل بالنساء » (١) . وبالفعل كان ابنه نصر ملازماً للخليفة ،
ومعاشراً له (٢) .

حسب إخبار ابن ميسر وابن الأثير كان عباس قد طلب نصحاً من
أسامة ، وهذا أشار عليه أن يقتل الخليفة الظافر بمساعدة نصر . لكن
أسامة لم يورد شيئاً عن دوره في القتل ، مودراً بعض الظروف التي
لا يشار إليها في المصادر التاريخية الأخرى . إنه - بقصد تبرئة عباس -
يقول بأن الظافر نفسه كان قد أقنع نصرًا بقتل أبيه ، ووعدته بمنصب
الوزارة لقاء ذلك . ونصر بدوره حدث أسامة عن هذا ، لكن أسامة
أجاب : « فقلت (خطأً نصرًا . و . ط) : « يا مولاي ، لا يستترك
الشیطان وتنجذع لمن يترك . فما قتل والدك مثل قتل العادل . فلا تفعل
شيئاً تلن عليه إلى يوم القيامة . فأطرق ، وقاطني الحديث . وغشا .
فأطلع والده على الأمر ، فإلفه ، واستأله ، وقرر معه قتل الظافر » (٣) .

هذه هي رواية أسامة عن الحادث ، وفيهم منها أن مقتل الظافر
إنما كان بتدبير عباس وابنه بدون مشاركة أسامة في الأمر . لكن ابن
تفري بردي (توفي عام ٨٧٤ / ١٤٩٩ - ١٤٧٠ م) (١) يؤيد رأي ابن
ميسر وابن الأثير عن اشتراك أسامة في هذا القتل .

لقد قتل نصر الظافر يوم الخميس ليلة ٥٤٩ هـ ، وألقاه
في بئر في دار القصر واتهم عباس أولاد الحافظ في مقتل الظافر ، وبدأ
بتقتيلهم . فالتقسيم الجيش إلى أحزاب ، وبدأت بالقتال فيما بينها . أما بنات
الحافظ فقد كاتبن طلّهم بن رزيك (٢) ، طالبات منه العون . فاستعد
عباس لهذا وخرج من القاهرة ، لكن جيشه قد عصاه ، ووقف ضده ،
ووقعت معارك حامية قاسية في شوارع القاهرة يصفها أسامة هكذا :
« ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة : خيالهم تقائلنا في الطريق ،
ورجلهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان
يوماننا بالحجارة من الطاقات . ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار
إلى العصر . فاستظهر عليهم عباس وفتحوا أبواب القاهرة وأنزموها . ولحقهم
عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره

١ - ابن ميسر ، أخبار مصر . ص ٢٢ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربورغ ، النص العربي ، ص ١٤ ؛

ابن إيس ، تاريخ مصر ، ص ٦٥ .

٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربورغ ، النص العربي ، ص ١٥ ؛

حتى ، ص ١٩ ، ٢٠ .

١ - ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة . إصدار دار الكتب ، ج ١ ،

ص ٢٨٨ - ٢٩٦ .

٢ - في هذه الأثناء كان حاكماً لشمسية ، في الدلتا العليا ، بالقرب
من القاهرة .

ونبيه، (١).

يقول : « لا دخان بلا نار » ، « والذي لا يأكل ثوماً لا تظهر رائحته ».

فمحاولة ابن رزيك تبرئة أسامة إنما تدل على أن القصر على اطلاع كامل على أعمال أسامة ، وفيه تكلموا كثيراً عن مشاركة أسامة . ولقد أكد ابن رزيك - من حيث لا يدري - خوف أسامة من القصر ، ذلك لأن القصر يعلم عن أسامة أكثر من ابن رزيك الذي لم يكن فيه وقت تلك الأحداث . وعلاوة على هذا فإن أسامة قد دعم عباساً ، وساعده حتى كان قد أودى بحياته في المارك التي حدثت نتيجة قتل الظافر في شوارع القاهرة .

حتماً ، لقد كان عباس عائلاً ببلاقة أسامة وابن رزيك - علاقة الصداقة ، فأراد استخدام هذه الصداقة في أخرج الأوقات صعبة . وعندما قرر السفر إلى سورية ، صمم على أخذ أسامة معه مها كفه ذلك ، وعلى أخذ عائلة أسامة أيضاً كيلا يبقى له اتصال بغير . وأقنع أسامة بالسفر ، فخرجاً من القاهرة ، ولكن عندما وصلا إلى بلييس شاهد أسامة الطريق محفوفة بالمخاطر ، ولذا أعاد عائلته إلى ابن رزيك ، الذي استقبلها استقبالا حاراً راضاً ، فأسكنها القصر ، وقدم لها كل ما تحتاجه في الحياة الجيدة .

وخرج عباس وابنه وأسامة مع قسم من الجيش إلى دمشق في عام ١١٥٤/٥٤٩ . كان لزاماً عليهم أن يمروا بمنطقة واقعة تحت نفوذ الافرنج : « وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الاول . فصبحنا

لقد وعى عباس حقيقة أساسية وهي أن جميع من في مصر يكن له البنض والحقد ، فقلبه ألا يبقى فيها . ولذا فقد عزم على السفر إلى سورية لطلب موازنة نور الدين الزنكي . أما أسامة فقد كانت له صداقة قديمة قوية مع ابن رزيك ، وفي هذه الاثناء تبادلوا الرسائل ، وبث له ابن رزيك رسلاً تشييه عن السفر ، طالباً منه البقاء في القاهرة ، راضياً في أن يكون أسامة مساعده .

ولا بد من الإشارة الى أن ابن رزيك لا يعتبر أسامة مشتركاً في مقتل الظافر ، بل على العكس يبرئه . فبعد أن يتكلم في قصيدة شعرية له عن عباس وابنه ويحرمها في قتل الظافر ، متشفياً بمقتلها ، بعد هذا يقول مبرئاً أسامة :

وحاشاكم ، ماختمت العهد مثله ولالكم فيما جرى منه من ذنب
ومن مثل ماقدنا لكم من دنوّه يحاذر أن تدنو الصحاح من الجرب

إننا نرى أن في هذين البيتين الدليل الآخر أيضاً على اشتراك أسامة في قتل الظافر ، أو في التحريض على ذلك القتل : المثل العربي

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربورغ ، النص العربي : ص ١٦-١٧ ؛
إصدار حتي ، ص ٢٢ .

الافرنج في جميعهم على المولى^(١) . فقتلوا عباساً^(٢) ، وابنه حسام الملك ، وأسروا ابيه ناصر الدين وأخذوا خزانته وحرمه . وقتلوا من ظفروا به^(٣) . لقد أخذوا في الأسر أيضاً أخا أسامة نجم الدين أبا عبدالله . أما أسامة نفسه فقد هرب عابراً وادي موسى^(٤) ، وبلغ دمشق ، لكن ابن تغري بردي يخبر بأن أخت الظافر كانت الافرنج في عسقلان، واعدة إياهم بكمية كبيرة من المال إذا قتلوا عباساً ، فقتلوه وأخذوا هذه الدراهم؛ بعد ذلك طلب ابن رزيك من الافرنج أن يعطوه نصر بن عباس وأعطاهم

١ - منخفض (مستنقع) بين صحراء سيناء ومرقعات السعودية .

٢ - هذا يخالف اخبار ابن إياس في كتابه « بدائع الزهور » (ص٦٦) حيث يقول :

« كان للفائز من العمر ٦ سنوات عندما ولاء عباس الخلافة بعد أن قتل أبيه . هرب عباس إلى الشام ، وفي أثناء الطريق خرجت عليهم طائفة من الافرنج فأسروه ، وأرسل طلائع إلى طائفة الافرنج الذين أسروا الوزير عباساً يطلبه منهم . فأرسل الافرنج عباساً وولده نصرًا إلى طلائع وهما في الحديد فأمر الفائز بأن يصلب الوزير وولده نصر على باب القصر فصلبا » .

٣ - الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٢٧ .

٤ - وادي موسى واد في شبه الجزيرة العربية .

على هذا كمية كبيرة من الدراهم^(١) . وقام نساء الظافر بضربه بالقبايب والزرايبيل إلباً ، وقطن لجه وأطمعته إياه إلى أن مات ثم صلب^(٢) .

وهكذا زى أن حياة أسامة في مصر كانت هادئة في البسطة ، بعيدة عن الصراعات السياسية ، ثم غدت - بالتدريج - أكثر تعقيداً وصراعاً . حتى شارك في مؤامرات القصر التي كادت تؤدي بحياته ؛ نهت داره ، وعاش حياة قلبيه ، وقلبي الكثير من الصعوبات ، ولذا قرر السفر من مصر حتى لا يعود إليها بعد ذلك . لقد جاء في شعره ما يلي :

هب أن مصر جنان الخلد ما اشتبهت إلا نفوس فيها من اللذات موجود
ماذا انتفاعي إذا كانت زخارفها موجودة ، وحبيب النفس مفقود
وما الحياة لمن بانث أحبته رضا ، ولا هو في الأحياء معدود

ويكتب في مكان آخر أيضاً :

١ - يقول نيكيتا إليسييف بأن ابن رزيك أعطى الافرنج (٦٠٠٠٠) دينار ، انظر :

Nur ad - Din, p. 497

٢ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة . ص ٣١٠ - ٣١١ .

خمسون من عمري مضت، لم أتعط فيها ، كأني كنت عنها غائباً
وأنت عليّ بمصر عشر بعدها كانت عظام كلها وتجارها
شاهدت من لعب الزمان بأهله وتقلب الدنيا الرقوب عجائباً (١)

اقامة أسامة الثانية في دمشق

(أسامة ونور الدين)

(٥٤٩ - ٥٥٩ / ١١٥٤ - ١١٦٤)

لقد دخل أسامة دمشق يوم الجمعة (٥ ربيع الثاني ٥٤٩ / ١٦ حزيران ١١٥٤) (١)،
بعد أن قطع مع بعض مراقبيه طريقاً شاقاً صعباً . أما دمشق فقد عاشت
حيثما حياة هادئة تحت ظلال سلطة نور الدين ، الذي وحده جميع
سورية ؛ فلم تعد هناك العداوات بين الأمراء الكثر ، وضعفت كثيراً
التوترات السياسية ، كما ان الكثير من أولئك الذين هاجروا في عهد
الحكم السابق عاد إلى دمشق في عهد حكم نور الدين (٢) ؛ وبين أولئك
المائدين كان أيضاً أسامة ، الذي عاد بعد عشر سنوات غياب في الغربة
وهو الآن في الستينات من عمره .

لقد استقبل أسامة نور الدين استقبالاَ حاراً ، وأسكنه قصره . لم

١ - أسامة الاعتبار . إصدار درنبورخ ، النص العربي ، ص ٢١ .

N. Elisseeff, Nur ad-Din, p. 487

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢١٥ . [الرقوب : التي لا يعيش لها ولود] [ولد] .

يكن الآن ابن الصوفي (توفي في ربيع الأول ٥٤٣ / ١١٥٤)
 منفس أسامة في عهد أنثر . لكن ابن رزيك ، مستخدماً الصداقة
 القوية بينه وبين أسامة ، تابع مساعيه في إقناع أسامة بالعودة إلى مصر ،
 أما إذا « كان لا يرغب في حياة القصر » فقد وعدّه بإعطائه حكم أسوان.
 لقد حدث أسامة بهذا نور الدين ، فنصحّه هذا بأن يبقى بعيداً عن
 مصر ، مذكّره بأنه بصعوبة شاقة قد نجا من صولاتها ومشاكلها ، وحفظ
 حياته ، ووعدّه بأن أخذ له من الافرنج السباح بنقل عائلته من مصر
 ضمن أراضيهم . وعندما فقد ابن رزيك الأمل بعودة أسامة إلى مصر
 ارسل له عائلته رغم محاولات الامراء لابقائها كرهينة ، كيلا يحاول
 أسامة بعد توجيه نور الدين ضد مصر ، ولتبقى عائلة أسامة ورقة رابحة
 بيد الامراء ضد أسامة .

وصلت عائلة أسامة وأقرباؤه معها ، ومجموعهم خمسون شخصاً ،
 إلى ميناء عكا^(٢) الذي كان حينئذ في يد الافرنج . حطمت السفينة التي
 انقلوا عليها - بأوامر ملك الافرنجة - ، وسلب كل شيء كان معهم ،
 حيث بلغت قيمته التقريبية (٣٠٠٠) دينار ، بما في ذلك مكتبة
 أسامة المؤلفّة بما لا يقل عن (٤٠٠٠) مجلد ، تاركين لهم فقط (٥٠٠)

- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٥ .
- ٢ - ميناء إلى الشمال من يافا ، مشهور في الوثائق الاوربية بـ
 «Sen-Jan d'Akr»

دينار ثم وجّههم إلى دمشق .

لقد كان أسامة ، في هذه الايام ، مع نور الدين في أرض
 السمودي^(١) . وكتب أسامة بمناسبة هذه الحادثة ما يلي : « وكنت إذ
 ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود رعبان وكيسون.
 ففون علي سلامة أولادي وأولاد أخي . وجرمنا ذهاب ما ذهب من المال ،
 إلا ما ذهب لي من الكتب ، فلها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب
 الفاخرة . فان ذهابها حزازة في قلبي ماعشت^(٢) ».

وكتب الشعر التالي بهذه المناسبة أيضاً :

إلى الله أشكو فرقة دميت لها جفوني وأذكت بالهموم ضميري
 تبادت إلى أن لاذت النفس بالنسي وطارت بها الأشواق كل مطير
 فاما قضى الله اللقاء تعرضت مساة دهر في طريق سروري^(٣)

- ١ - على الحدود بين كيكيا وبلاد الرافدين . ومسعود هذا من السلالة
 التي تدعى « السلاجقة الروم » التي حكمت عدة مناطق في آسيا
 الصغرى (تقريباً حتى ١١٥٦) .

- ٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٦ ؛
 إصدار حتي ، ص ٣٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨١ - ٨٢ .
- ٣ - أسامة ، الديوان . ص ٧٦ .

قرر أسامة - وهو في دمشق ، غير بعيد عن شيرز - زيارة
وطنه الأم بعد فراق دام قرابة ثمانية عشر عاماً . وحضر فيها تنويع
ابن عمه على العرش - ناصر الدين محمد بن سلطان ، وأهداه قصيدته
التي يبدؤها بقوله :

يا ناصر الدين ، يا ابن الأكرمين ومن يغني ندى كفه عن وابل الديم (١)

ويطلب فيها من ابن عمه أن يفتدي أخاه نجم الدين من الافرنج ، لكن
ناصر امتنع عن هذا بما أدى إلى فتور العلاقة بينهما ، رغم جميع محاولات
أسامة أن يبقى في صداقة مع ناصر الدين والقريين منه ، ذلك لأنه كان
مؤمناً على الدوام ، بالمحافظة على علاقات قوية متينة مع أصدقائه ، وبخاصة
أقربائه .

لكن القدر كان قد خبأ له فاجعة كبيرة ، ومصيبة فادحة ، حيث
لم يمض عامان على وجوده في دمشق حتى حدثت الزلازل الحادة في عام
١١٥٧/٥٥٢ ، التي هدمت كثيراً من مدن سورية بما فيها شيرز ،
وقضي تقريباً ، على جميع أقربائه .

لقد اجتاحت شمال سورية هزتان أرضيتان عنيفتان في مدة عشرة
أيام من ٢٥ جمادى الأولى إلى ٤ جمادى الثانية . وبعد ٩ شعبان / ٢٧
أيلول ١١٥٦ أسابت الزلازل حلب ، وحوض نهر العاصي . وبحسب

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٤٩ .

إخبار ابن خلكان حدثت سبعة زلازل ، أخطرها وأقواها دمر حلب
وكفر طاب وأفاميا وشيرز وحماة وحمص . وبشير أيضاً إلى زلزال قوي
حدث في رجب ١١٥٢/٥٥٧ .

في هذه المرة الأخيرة تحطمت وتهدمت جميع البيوت والقلاع
والحصون الحربية التي كان قد أصابها الغلب فقط في الزلازل السابقة .
وتوفي معظم السكان أو هاجروا إلى القرى ، وأخطر هذه الزلازل كان
في حماة وشيرز ؛ وفيها قال أحد شعراء تلك الحقبة :

روعتنا زلازل حاديات بقضاء قضاء رب الساء
هدمت حصن شيرز وحماة أهلكت أهله لسوء القضاء

كان في هذه الأثناء ، في حصن شيرز ، حفل عائلي : لقد اجتمع
جميع بني متفد ليقموا حفلة ختان ابن تاج الدولة محمد بن سلطات .
وكان أحد الحصن مربوطاً في مدخل القاعة ، فعندما بدأ الزلازل
اضطرب الحصان ، وهاج . وفي هذا الوقت أراد أحد الضيوف الخروج
فترك القاعة إلى الدهليز حيث الحصان الهائج ، فقتل بضربة من رجل
الحصان ، وسد المخرج بالحصان والتمتلك (٢) ، الذين عاقلوا المجتمعين في القاعة
من الخروج . لقد قتل الجميع تحت الانقباض عدا الخاتون - زوجة

١ - أبو شامة ، ص ١٠٣ - ١٠٥ .

الأمير تاج الدولة التي أُنقذت من تحت هذه الأتفاض^(١) ، وأولئك الذين كانوا خارج شيزر مثل أسامة وابنه أبي الفوارس ، وأخيه^(٢) ، وشرف الدولة ابن سلطان صهر الخاتون .

لقد كتب أسامة قصائده المصبوغة دماً ودموعاً ، يكي فيها النصاب والنبكة وققدان الوطن والأهل ، الذين هلكوا دفعة واحدة . تاركين له الحزن والألم والأسى^(٣) . لقد مجد في هذه القصيدة عزهم ،

- ١ - ابن خلكان ، فوات . ج ١ ص ٥٢٣ ؛ ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، VIII ، ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ الاعتبار ، المقدمة ، إصداراتي .
- ٢ - نيكيتا بليسيف يخطئ ، إذ يقول : لقد نجا فقط زوجة الأمير ، وصهرها شرف الدولة ابن سلطان وأسامة . من المشهور أن ابن أسامة أبا الفوارس كان في دمشق قائداً عسكرياً عند صلاح الدين الذي حكمها فيما بعد .

٣ - أسامة ، الديوان ، ص ٣٠٧ . قال أسامة :

قالوا : تأس ، وما قالوا : عمن ، وإذا أفردت بالرزء ما أنفك أسوانا
ما استدرج الموت قوماً في هلاكهم ولا نخرتهم مثنى ووحداً
ما تواجهم كرجع الضرف وانقرضوا هل مآرى تارك للعين إنسانا
يقول بالظن إذ لم يدر ما خلقي ولا محافظتي من حان أوبانا :

←

وذكر بمجدهم القديم ، وأسف لحياته بعدهم ، إذ إنه يبحث عن المواساة ويدفع عن نفسه ظن من يظن ثنائه بأقربائه في هذه السكرنة ، ثم ختم القصيدة بالدعاء لهم .

ترك هذا الحادث المؤلم صدى قوياً في شعره ، فأقض مضجعه ، وخلده شعراً بئساً حزيناً أسود ، تنبث فيه روح الحكمة والتصبر والمواساة ، وكان بداية حزينة مؤلمة ، ودافعاً أساسياً لانتاج أدبي قيم هو كتاب « المنازل والديار » .

أما صلة أسامة بالملك الصالح طلائع بن رزيك ، فقد بقيت مستمرة على أحسن حال ، وعندما قطع الأخير الأمل بقدوم أسامة إليه ، إلى

→

أسامة لم يسوه فقد معشره كم وأغروا صدره غيظاً وأضغاناً
ومادري أن في قلبي لفقدهم ناراً تلتظى وفي الأجفان طوفاناً
بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دهم وإن أروني مناواة وشنآننا
كانوا سيوفى ، إذا نازلت حادثة وجنتي ، حين القى الخطب عرياناً
سقى ترى أودعوه رحمة ملأت مشوى قبورهم روحاً وريحاناً
[الأسوان : الحزين ؛ تحريمهم : استأصلهم ؛ حان : هلك ؛
الأضغان : جمع ضغن وهو الحقد ؛ الشنآن : البغض] .

مصر ، بدأ يكتبه برسائل شعرية تنضح ودّاً مكيناً بينها ، وأعجاب كل منها بصاحبه أكبر الاعجاب . فمضت قصائد الصالح إلى أسامة تدعوه إلى مصر حيناً ، وتعقب عليه إثارة البعد عنها حيناً آخر ، وتأخذ عليه أحياناً ، قلة مراسلته . وكثيراً ما حدثته الصالح بأقام به من حروب مع الافرنج ، وطلب منه أن يكون وساطته عند نور الدين كي يجتمعا على حرب الصليبيين . وشارك الصالح أسامة فيما نزل به من أحداث قلبية في حياته . وكان معجباً بواهب أسامة في الحرب والسلام ، يراه محارباً شجاعاً ، وشاعراً مقلداً ، وخطيباً بارعاً ، وحكيماً في إبداء الرأي . قال طلائع :

وجهاد العدو بالفعل والقول ، على كل مسلم ، مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأمم ، رين ، مذ كنت إذ نشبت حروب
أنت فيها الشجاع ، مالك في الطم ، ن ولا في الضراب يوماً ضريب
وإذا ما حرصت فالشاعر في ، ما ، تقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالخزم لا ين ، كر أن التدبير منك مصيب

بالإضافة إلى علاقات الصداقة والود بين ابن رزيك وأسامة ، فقد ركز هدف ابن رزيك السياسي أن يقوم أسامة بدور الوسيط يفتح نور الدين الرنسي بالاتفاق معاً على حرب الصليبيين في وقت واحد حتى تنتشر وحدة الصليبيين ، وفي نظره أن أسامة خير من يحمل عبء هذه الرسالة :

والق عنا رسالت عند نور الدين ، ن ما في إلقاتها ما يريب
قصدنا أن يكون منا ومنكم ، أجل في مسيرتنا مضروب
ويقول أيضاً :

فلو ان نور الدين يح ، حل فعلنا فيهم مثلاً
لأريت للافرنج ط ، رأ في معاقها اعتقلاً

لكن سياسة نور الدين في هذه الآونة كانت سياسة التريث ، وذلك لأنه كان منشغلاً بتمتين وتوطيد سلطته في سورية ، والوقوف بحزم ضد الصليبيين ، وبخاصة في المناطق الشمالية منها . ففي انطاكية - مثلاً - كانت القوة الكبيرة للافرنج ، لذلك فإن نور الدين لم يفكر في بيوت القدس ، وفي مصر ، التي كانت بعيدة عن سلطته . وكانت وساطة أسامة عنده ، كما يرى بوضوح ، غير ناجحة ، لذلك فإن أسامة يتباطأ في الرد على مراسلات ابن رزيك ، الذي يشكو منه هذا التباطؤ ، وعدم التأثير على نور الدين . ويكتب ابن رزيك في هذا قالاً :

قل لابن منقذ الذي ، قد حاز في الفضل الكمالا
كم قد بعثنا نحوك الأ ، شمار مسرعة عجلاً
وصددت عنها حين را ، مت من محاسنك الوصالا

هلا بذلت لنا مقاً لآ حين لم تبذل فعلاً
مع أننا نوليكَ صبراً في المودة واحتيالاً

فاجابه أسامة راداً على عتبه ، مشيراً إلى رغبته في الوحدة ،
وحدة القوى السياسية والعسكرية (١) .

إن المصادر التاريخية لا تتحدث بشيء ، ولا تشير إلى اشتراك
أسامة في غزوات نور الدين ضد الصليبيين ، ولعل ذلك لأن أسامة في
هذا الوقت كان قد تاهز السبعين . لكن أباً شامة ، معتمداً على اقتباسه
من ابن الأثير ، يخبر عن مشاركة أسامة في حصار حارم في نهاية عام
١١٦٢/٥٥٧ هـ ؛ د (إنه) أسامة . و . ط (كان من الشجاعة التي
لا مزيد عليها) (٢) .

ويشير أبو شامة إلى أن أسامة وهو عائد من هذه الحملة ، دخل
أحد المساجد في حلب ، وكتب على جدرانها الأشعار التالية ، التي
تتحدث عن مشاركته في الحملة ، وزارته لهذا المسجد في العام الماضي ، وهو
في طريقه إلى الحج :

- ١ - من أجل التفصيل في هذه الرسائل الشعرية ، انظر : أبو شامة ،
ح ١ ، ص ١١٥ - ١٢٠ .
- ٢ - أبو شامة ، ح ١ ، ص ١٢٧ .

للك الحمد يا مولاي ، كم لك مثنة علي ، وفضلاً لا يقوم به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً من الغزو ، موفور النصيب من الأجر
ومنه رحت العيس في عامي الذي مضى نحويت الله ذي الركن والحجر (١)
فأديت مفروضي ، وأسقطت ثقل ما

تحملت من وزر السنين على ظهري (٢)

سن السبعين نقطة تحول خطيرة في حياة أسامة . إنه يصف
ضعفه الشديد فيها ، حيث إن السبعين لم تترك له أملاً في القتال ،
وحطمت قواه وأوهنتها ، رغم أنه شهد المعارك الضروس التي تمضى لو
قتل في إحداها ، فكان ذلك المقتل أفضل له من أن يعيش عاجزاً ،
لأن القتال في المعركة أفضل للإنسان من أن يهرم وبشيخ .

عاش أسامة حياة طويلة مملوءة بالحوادث والشجاعة والقوة وكالت
سيفه دائماً الشاهد الأصدق على شجاعته في المعارك ، والآن - في
السبعينات - بكل أسف وألم ، يتذكر أيام الماضي المسالمة بالانتصارات
والبطولات ، بالقوة والمجد والشهرة ، خلافاً لحالته الراهنة . إنه بشدة

- ١ - الحجر - مكان محمد في جامع مكة المكرمة الى الشال الغربي من
الكمية .
- ٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

تقت شيخوخته ، لأنها قد سلبته قوته ، وغطت رأسه شيئا ، وقوست
ظلمه ، كما أضعفت يديه ورجليه ، وأهانت أمام الناس :

لم تترك السبعون في إقبالها مني سوى مالا عليه معول
حتى إذا ما عاينها عني انقضى ووطئت في العام الذي يستقبل
حطمت قواي ، وأوهنت من نهضتي وكذا بمن طلب السلامة تفعل
والقتل أحسن بالفتى من قبل أن يبلى ، ويفنيه الزمان ، وأجل
وأياك ما أحجمت عن خوض الردي في الحرب ، يشهد لي بذلك المنصل (١)

وهو في السبعين يتحدث حديث حكيم عارفته الأيام ، ووعظته
التجارب ، ثم ينتهي ليعظ غيره ، ويخطب ابن السبعين الذي عاد إلى
شرب الخمر (٢) بعد توبته ونسكه فأفسد بذلك دينه ، كما أن السبعين أفسدت
دينه ، وغدا كالفخار الذي إذا نكسر لا تنفع فيه . ثم يخطب ابن
السبعين الذي لم يقدم على التوبة بعد . ويطلب منه ألا يتخذ منه الإيمان
فقد تحمل أوزار السنين ، وفعل المعاصي ، وأشرف على الهرم والموت ،
فأقل ربيع ، ولم يبق منه إلا الهشيم ، حيث بدت أيام الصبا ، وبقي
له الشيب الشنيع :

ماعم السبعين تسويف ، ولا يخدعك الأمل الواهي الخلدوع
ثم أفضت مدة الشيب إلى هرم يعقبه الموت الشنيع (١)

وها هو في السبعينات قد غدا مرعى ذالواً يست أغصانه وذبلت
وتناثرت أوراقه ، وخاتته رجلاه فلن يقوى بعد على الركوب والقتال ،
خلفاً لما كان عليه سابقاً ، حيث كان أول الملين للداء القتال والوغي ،
كاشفاً بسيفه الماضي ظلمة الوغي ونعما ، منازل الأبطال الصناديد الذين
يترامون من رعبهم قبل ضربه لهم . مرت هذه الأيام بخلفة فيه الصبر على
المصاعب ، حيث لاقى الرايا دائماً بقوة وصبر ، وبزم صادق لم يخنه قط :

رجلاي والسبعون قد أوهنت قواي عن سميي إلى الحرب
وكنت ، إن ثوب داعي الوغي لبتيه بالطعن والضرب
ما خاني عزمي ولا عزتي صبري ، ولا ارتاح لها فلي (٢)

والأيام تأتي بالشيء العجيب ، فبعد قوته وشجاعته وجبروته
اضطرت بعد عامه السبعين وهو من اعتاد حمل السلاح والقتال ، اضطرت

١ - أسامة الديوان . ص ٢٨٧ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٠٨ . [الثوب : الداء ؛ عزتي : غلبي
فلم يطعني] .

١ - أسامة . الديوان . ص ٢٧٠ - ٢٧١ . [المنصل : السيف] .
٢ - لم يعرف عن أسامة أنه شرب الخمر .

إلى حمل العصا للاعتماد عليها ، لانه لا يقوى على حمل ذاته . إنها خطيئة الموت الذي لم يعالجه ، وتركه حتى غدت حياته موتاً بطلياً :

فرجمتُ أحمل بعد سبعين العصا فاعجب لما تأتني به الأيام
وإذا الحامُ أبى معاجلة الفتى فحياته ، لا تكذبُ بنِ حمام (١)

ثم يصف عصاه التي لازمته بعد عامه السبعين ، وتحملت ثقله تحمل المتكاه ، وقادته وكأنها إنسان تمب عبي ، يحمل ثقلاً ووزراً كبيرين ، لا يقوى على النهوض ، مكبلاً بتمترانه المتلاحقة ، إن هذه العصا تعبت من ثقل ما ألقاه الشباب عليه من المضاعب والمتاعب :

حملتُ ثقلها بعدما شبت العصا فتحملته تحمل المتكاه
ومشت به مشي الحسير بوقره لا يستقل ، مقيداً بعشاره (٢)

إن السبعين أضفت قواه ، وخطت رأسه شيا ، فنقوس ظهره ، وامتد البلاد إلى يده ، التي غدت في رجفان دائم ، حيث لم تقو على الكتابة ، فخطه مضطرب . إنه عامه السبعون الذي أنقص من قيمته بين الناس ، وغير كثير من صفاته ؛ وما أجل الموت حيث يكون خلاصاً من أذى الحياة الضعيفة :

نكسستُ في الخلق ، وحطتني السبعون لما أن علتُ سني
وغيرتُ خطي فأصحى كما ترى ، وكم قد غيرت مني
والموت فيه راحة من أذى الدهن يا ، فما أغفله عني ؟ (١)

لم ترق الحياة لأسامة في دمشق أكثر من ذلك ، لأن التقاليد الرسمية وواجبات القصر تتطلب منه خدمة السلطان ، والمشاركة في الحياة السياسية . إن أعمار هذه المرحلة عند أسامة لتدل على عدم وجود اتفاق كامل بينه وبين نور الدين ، كل منهما كان يحتفظ بوجهة نظره السياسية . فنور الدين لم يقبل وساطة أسامة التي كلفهها ابن رزيك بشأن الوحدة بين مصر وسورية لاسترداد القدس . ولم يهتم بهذه الخطوة ، مما جعل التباين بينه وبين أسامة في ازدياد ، أضف إلى هذا أنه ربما قد انضمت المواقف المدائية التي كانت سابقاً بين أسامة وعماد الدين - والد نور الدين ، والملافة الوثيقة بين أسامة والأمراء الأتراك في دمشق ، الذين كانوا ضد عماد الدين ، تقول ربما انضمت كل هذه المواقف إلى أسباب زيادة الفتور بين أسامة ونور الدين . وعلاوة على هذا فقد كانت نور الدين زاهداً جداً ، لم يحب الشعراء ، ولم يتهجج لمديحهم ، لما علمه من يزيد الشعراء به (٣) ، والناس مثله قد زهدوا ، حتى غدت أيامه

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٤ .

٢ - أبو شاقة ، ص ٢٢٩ .

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٣ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٥ . [حسر : أعيا ، فهو حسير ؛ الورق

بالكسر : الحمل الثقيل ؛ يستقل : ينضج] .

مثل شهر الصوم ، ليس فيها إلا الجوع والعطش :

أميرنا زاهدٌ والناس قد زهدوا له ، فـكل على الطاعات منكش
أيامه ، مثل شهر الصوم، طاهرة من المعاصي وفيها الجوعُ والعطش (١)

أسامة في حصن كيفا

(٥٥٩ - ٥٧٠ / ١١٦٤ - ١١٧٤)

ان تشابهاً كبيراً بين طبيعة ديار بكر وطبيعة شيزر ، حيث عاش
أسامة في طفولته : انه يعيش هنا في حصن مشابه لـحصن شيزر ، مياه
دجلة تذكره بمياه المعاصي ، والطبيعة تدعوه للصيد حيث يخرج اليه مع
حاكم الحصن فخر الدين^(٢) . وربما اختار أسامة هذا المكان ليكون
بعيداً عن قصر السلطان ، وليستخدم المكتبات الحلية الفنية . لقد كتب
أبو شامة « وكان فيها (آمد) ، خزانة كتب فيها ألف ألف وأربعمائة
كتاباً »^(٣) .

ان المدة التي قضاها أسامة في حصن كيفا هي حقبة البحث
والدرس والتأليف فهي التي خلدها علمياً في التاريخ ، إذ فرغ للتأليف

كل هذه الاسباب مجتمعة قد أجبرت أسامة على قبول دعوة فخر
الدين أرسلان^(٢) صاحب حصن كيفا . لقد طلب أسامة من نور الدين
الساح له بالسفر ، فوافق له برغبة كبيرة^(٣) . وبمخصص أسامة حالته في
دمشق بما يلي :

وكدت أعلن أن الزمان لا يبلى جديدة ، ولا هي شديدة ،
وأني إذا عدت إلى الشام وجدت به أيامي كمـيدي ، ماغيرها
الزمان بدي . فلما عدت كدبتي وعود الطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب
اللامع^(٤) .

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٥٨ ، أبو شامة ، ص ٣٢٩ .

٢ - أمير حصن كيفا في ديار بكر في تركية بالقرب من الحدود الشمالية
السورية .

٣ - زكي ، أ . أسامة ، ص ١٥٨ .

٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٣٠ ،
إصدار حتي ، ص ١٦١ : الترجمة الروسية ، ص ٢٤٨ .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، النص العربي ، ص ١٣٠ ،

الترجمة الروسية ص ١٤٣ .

٢ - أبو شامة ، II ، ص ٣٩ .

حين جاوز السبعين ، وبقي هذا همه أكثر من ٣٥ سنة ، انه هنا يدرس العلوم ويؤلف مؤلفاته الاساسية ، التي بفضلها أصبح مشهوراً لدينا كأديب وعالم .

يبقى غير واضح رأي أسامة وعلاقته بسعي فخر الدين أرسلان للاستيلاء على حصن آمد الحصن القوي ، الذي وصفه ناصر خسرو : « وقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع في أطراف العالم ، في بلاد العرب والمعجم والهند والترك ولكني لم أرقط مثل مدينة آمد في أي مكان على وجه الأرض ولا سمعت من أحد أنه رأى مكاناً آخر مثلها » (١) .

لقد قرر فخر الدين أن يستولي على حصن آمد ، عندما كان أسامة فيه . والمصادر التاريخية نصت عن دور أسامة في هذه الحملة ؛ أكان بعيداً عن كل هذا ؟ أم أنه شارك في محاولة الاستيلاء على الحصن ؟ أم حرمض على ذلك ؟

لقد عاش أخو أسامة أبو الفيث في هذا الوقت في آمد ، وغير مشهور أنه كان هناك اتفاق بين أسامة وأخيه في مساعدة فخر الدين . ان هذا السؤال يبقى دون جواب ، لان المصادر نصت عن ذلك ، رغم أن أسامة يحدث عن هذه الحوادث ، مشيراً الى أن فخر الدين اعتمد على الامير الكردي ، الذي عاش في آمد ، ويعزو فشل هذه الحملة إلى

١ - ناصر خسرو ، سفرنامه ، ٨ - ٩ .

أن فخر الدين لم يثمد على الامراء الكبار (٢) .

توفي فخر الدين في عام ٥٦٢ / ١١٦٧ ، وخلفه ابنه الذي لم تكن علاقته مع أسامة كعلاقة والده من قبله ، مما سبب ارتعاج أسامة ، لذا نجده يسافر بين مدن شالي سورية يتقرب من الفقهاء والنساک والزهاد ، ويتوضح عنده بشكل أكثر أنه لم يعد صالحاً لمعاينة الملوك والسلطين . انه يكتب :

« أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلطين . فهجرت مفشى أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ، ورددت عليهم ما خولوني من نعمهم ، لعلمي أن ضعف الحرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وان سوق الشيخ الكبير ، لا ينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الجول شماري . ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ، ومفارقة الأماكن والتربة ، إلى أن تسكن نفارتي عن مرارتها . وصبرت صبر الأسير على قبره ، والظلمان ذي النلة عن ورده » (٣)

في هذا الوقت عندما كان لأسامة من العمر أكثر من ٧٤ عاماً ولدت له طفلة سهاها فروة . لقد جلب لأسامة ميلادها الحزن والهموم ، ذلك لأنه طول الوقت غدا يفكر بمستقبلها وباليتم الذي ينتظرها :

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنيورغ ، ص ٦٢ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنيورغ ، ص ١٢٢ : الترجمة الروسية ، ص ٢٥٢ .

رزقت فروة والسبعون تخبرها أن سوف تيتيمعن قرب ، وتنعاني
وهي الضعيفة ماتفتك كاسفة ذليلة . تمتري دمعني وأحزاني

إلى أسامة وهو في حصن كيفا ، وصلت الاخبار عن صلاح
الدين ، الذي كان قد صادق في بلاط نور الدين ، عن
انتصاراته ، وتدعم حكمه في مصر . سرّ بهذا ، وأرسل اليه القضاة
الشعرية ، المقولة في تمجيد هذه الانتصارات . وعبر فيها عن إعجابه
ببطولة صلاح الدين ، وطالبه بالهجوم على الأفرنج في سورية . لكن لم
تكن أمثال هذه التطلعات حينئذ عند صلاح الدين ، ذلك لأن الفاطميين
لم يتخلوا له بسهولة عن السلطة في مصر ، التي هوجمت أيضاً من قبل
الأفرنج مما شغله عن التفكير بسورية .

لقد كان أسامة ينتظر دعوة من صلاح الدين للقدوم الى مصر ،
أما ذلك ، للسكانة الرفيعة التي يشغلها ابنه مرهف ، الذي كان المرافق
الدائم ، وقائد جند عند صلاح الدين . لكن صلاح الدين لم يدعه اليه
للأسباب التالية كما نفترض :

لقد عرف صلاح الدين بأن أسامة شخص غير مرضي عنه في
مصر ، إذ يعرف موقف المصريين منه لاشتراكه في مقتل الخليفة
الفاطمي ، فلم ير من حسن السياسة وهو حديث العهد بالحكم أن
يدعو من اتهم بقتل خليفة فاطمي سابق ، وكذلك فإن الصلة بين أسامة
ونور الدين لم تكن لتشجع صلاح على إظهار العطف على أسامة ، وصلاح

الدين مدين لنور الدين بسلطانه في مصر ، أضف الى ذلك أن أسامة
قد بلغ الثمانين ولم يعد له من النشاط والقوة ما يمكن صلاح الدين من
الاعتماد عليه في ظروفه العصية ، حيث خارت قواه ، وأخذ إلى السكينة ،
ولم يستطع حتى السير على عصاه ، والامور تسير من سي إلى أسوأ حتى إنه
بضطر إلى الصلاة وهو قاعد ، ويتعذر عليه السجود :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جده مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حمل أقلاماً من بعد حطام القناني لبنة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقأت رجلي كأنني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والملد
وقال أيضاً :

تناستني الآجال حتى كأنني دريئة سفر بالفلاة حسير^١
ولما تدع مني الثمانون مئة كأنني اذارمت القيام كسير^٢
أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها علي إذا رمت السجود عسير
وقد أنذرتني هذه الحال أنني دنت رحلة مني وحن مسير^(١)

١ - البهادر الاصفهاني ، الخريدة ، ج ١ - ص ٥٢٩ ؛ هذه القصيدة
لم ترد في ديوان أسامة ، انظر أيضاً : الاعتبار ، إصدار حتي .
ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

لقد تغيرت الظروف والأحداث ثانية ، بعد وفاة نور الدين ، فقد قدم صلاح الدين إلى دمشق ، ووحد سورية ومصر تحت سلطته بهدف تجميع القوى ضد الأفرنج . ويسمى أسامة بأن دمشق وطنه الثاني أصبحت بيد صديقه القديم صلاح الدين ، ويكتب ابنه أبا الفوارس بأن يسمى لدى صلاح الدين لدعوته إلى دمشق وتصبح الأمور مؤاتية كلها . فيرسل إليه صلاح الدين كتاباً يرحب به في دمشق كصديق قديم وأمير يعتز به . ويغادر حصن كيفا إلى دمشق ليمش بقية حياته وليقضي نجه فيها .

اقامة أسامة الثالثة بدمشق

أسامة وصلاح الدين ٥٧٠ - ٥٨٤ / ١١٧٤ - ١١٨٨

يبدو من شعر أسامة أنه عاش في أواخر أيامه في ضيق مادي ، وهذا ما يرى في قصيدته التي أرسل بها من حصن كيفا إلى ابنه أبي الفوارس في دمشق شاكياً إليه العوز والفقر وعدم تمكنه من الكرم والعطاء ، وشدة ألمه لذلك :

أبا الفوارس ما لاقيت من زمني أشد من قبضة كفي من الجود
فعدت ان هزني جانٍ تعود أن يجني نداي رأني يابس العود^(١)

لكن استدعاء صلاح الدين إلى دمشق وأهداه بيتاً ، ووجهه هبات كثيرة ، وأقطعه قرية في المرة ، التي كانت ، كما يقول أسامة ، من ممتلكاته سابقاً : « نعب عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض لا مال لدي ولا أهل . فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه

١ - الخريدة ، إصدار درنيورغ ، ص ١٢٧ .

الجميل ، وحماني إلى بابه العالي بانعامه الفامر الجزيل ، وجبر ما هاشه
الزمان مني ، ونف على كرمه ماكسد علي من سواء من علوسني . فغمري
بفرائب الرغائب ، وأهنائي ، من إنعامه أهني المواب ، حتى رعى لي
بفائض الكرم ، ما أسلفت سواء من الخدم . فبو بمد لي بذلك وبرعاه ،
رعلة من كآته شاهده ورآه . فعطايه تطرقي وأنا راقد ، وتسري إلي وأنا
محبس قاعد . فأنا من إنعامه كل يوم في مزيد ، وإكرام كثيرمة الأهل
وأنا أقل من العبيد . أمتني جميل رآيه حادث الحادثات ، وأخلصف لي
إنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المحيقات . وأفض علي من نوافل فضله
بعد تأدية فرضه وسنته ، من بعجز الإعناق عن حمل أيسر منتبه . ولم
يبق لي جوده أملا أروجو نيله ، أقضي زماني بالدعاء به نهاره ولييله .
والرحمة التي تدارك بها البلاد ، وأحیی ببركاتها العباد . (٣)

لقد جالس أسامة صلاح الدين ، وتكلم معه على الأدب ، وأعطاه
النصائح في الحوادث الهامة . كما أن صلاح الدين كاتبه إذا كان بعيداً عن
عن دمشق في حملاته ، مخبراً عن نتائج معاركه . وقد كان دوماً معجباً
بديوان أسامة ، بصطاحبه ولو كان خارجاً للزوات (٤) . وكان يلعب معه
بالشطرنج في أوقات فراغه .

١ - أبو شامة ، I ، ص ٢٦٤ .

٢ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار دربنورغ ، النص العربي ، ١٥٣ ؛
الترجمة الروسية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٣ - أبو شامة ، ص ٢٤٢ ؛ والتعيمي ، الدارس ، I ، ص ٣٨٤ .

لقد عاش أسامة في هذه المدة حياة ترف وغنى ، وبدأ يلقي
دروساً في البديع .

ولعدم اشتراكه بالزوات كان يواسي نفسه باشتراك ابنه فيها -
الساعد الأمين لصالح الدين ، وكذلك نظمه الشعر مفتخراً بمناسبات
الاتصارات ، ومخاناته مع عماد الدين الاصفهاني . قال مادحا لصالح الدين
بقصيدة عصباء ، مينا كرمه وجهاده واتصاراته ، مطلعها :

يناصر الاسلام حين تخاذلت عنه الملوك ، ومظهر الايمان
جردت سيفك في العدا لارغبة في الملك بل في طاعة الرحمن
فضربتهم ضرب الغرائب واضعاً بالسيف مارفعوا من الصليان

لكن علاقة أسامة بصلاح الدين أصبحت مع الزمن بالفتور والبرودة،
حتى إنه كان يجبراً على الاقابة المداغة في بيته ، وكاتب الهاد الاصفهاني
ليكون وسيطاً بينه وبين صلاح الدين . ومن المحتمل أن يكون سبب هذا
الفتور عائداً الى الميول الشيعية عند أسامة ، التي غذتها حياته بين ظهري
الحلافة الفاطمية في مصر ، والتي أثرت في أفكاره ومعتقداته الدينية ؛
وكان هذا التأثير واضحاً ايضاً في المحاضرات التي كان قد ألقاها في
دمشق في ذلك الوقت . يقول (الذهبي) إن أسامة كان شيعياً إمامياً .
وكذلك يذكر (الهمامي) أن الأشعار التالية إنما تسبب إلى
أسامة :

سلام على أهل الكساء هداتي ومن طاب محيائي بهم ومماني
محبتهم لي حجة وولاهم ألاقى بها الرحمن عند وفاتي (١)

ومن المشهور أن صلاح الدين كان من مؤيدي المذهب السنّي
« نصير السنة ، ومحبي دولة أمير المؤمنين وسنة الخلفاء الراشدين » (٢) .

ولذا ازوى أسامة في بيته يتربّح موته بعد أن أذاقته الأيام
مرارة الاغتراب ، بعيداً عن وطنه ، وفي ألم كامل شديد :

أنا في أهل دمشق وهم عدد الرمل وحيد ذو انفراد
ليس لي منهم أليف وشجت بيننا الألفة أسباب الوداد
يحسبونني إن رأوني وافداً قد أتاهاهم من بقايا قوم عاد
وانفرادي رشد لي والهوى أبداً يصرف عن سبل الرشاد

وها هو يصف نفسه بعد أن صار له من العمر ما يزيد على
التسعين ، بالضعف العام وضعف السمع والبصر :

١ - العاملي ، أعيان الشيعة ، ج ٢١ ، ص ١٣ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ١٦٤ .

لما بلغت من الحياة إلى مدى قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يبق طول العمر مني منة ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدا
ضعفت قواي وخائني التقتان من بصري وسمعي حين شارفت المدى
فإذا نبضت حسبت أنني حامل جبلاً وأمشي إن مشيت مقيداً
وأدب في كفي العصا وعهدتها في الحرب تحمل أسعرا ومهددا
وأيت في لين المهاد مسهدا قلقاً كأنسني افتشرت الجملدا
والمرء ينكس في الحياة وبينما بلغ الكمال وثم عاد كما بدا (١)

لقد قضى أسامة باقي أيام حياته الأخيرة في دمشق منتظراً موته ،
ومات يوم الثلاثاء ليلاً ، ٢٣ رمضان ٥٨٤ / « تشرين ثاني ١١٨٨ » (٢) .
بعد أن عاش ٩٦ سنة قرية أو ٩٣ سنة شمسية ، ودفن في جبل قاسيون
في سفحه المطل على دمشق ، . قال ابن خلكان : « وقد دخلت تربته
وحي على جانب النهر يزيد الشاهي ، وقرات عنده شيئاً من القرآن وترجعت
عليه » .

قبره كغيره من القبور هناك قد اندثر وقامت مكانه البنايات

١ - الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٦١ .

٢ - ابن خلكان ، فوات ، ج ١ ، ص ٨٨ ؛ ياقوت ، معجم

الأدباء ، ج ٢ ، ص ١٧٤ ، أبو شامة ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

والدور الحديثة بطوايقها المدّة .

إن أسامة نفسه رجل ذكي فوق العادة ، وموهوب ، وعالم ، لقد التقى بمختلف رجالات عصره ، فقرأ لهم شعره ، وتحدث معهم وتناقش ، وكثير منهم أنشأنا إليه من قبل ، ونذكر أيضاً أبا سعد السمعماني ، وابن عساكر ، والعماد الاصفهاني ، والمقدسي . ولقد حفظت حتى الآن عبارات تنقد أسامة وتقومه ، بعضها يعود إلى معاصريه ، وبعضها من قبل المؤلفين المتأخرين . وسنقتبس بعضها فيما يلي :

قال الذهبي في « تاريخ دول الاسلام » عن أسامة : إنه « أحد أبطال الاسلام ، ورئيس الشعراء الأعلام » . وقال أيضاً في « سير أعلام النبلاء » : « أسامة - الأمير الكبير فارس الشام »^(١) . وقال ياقوت في معجم الأدباء :

« وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم »^(٢) . وقال العماد الاصفهاني : « وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه »^(٣) ، يلوح من كلامه أمارة الامارة ، ويؤسس بيت فريضه عمارة العبارة ، حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندى بجاء الفكاهة ، عالي

١ - الذهبي ، سير (مخطوطة مصورة) . - XIII ، ص ٣٨ .

٢ - ياقوت ، معجم الأدباء ، II ، ص ١٧٤ .

٣ - أسامة ، بالمرية تعني أحياناً « أسد » .

النجم في سماء النباهة معتدل التصاريف مطبوع التصانيف »^(١) . وجاء في خريدة القصر : « هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظام ، وقد منته الله بالمر وطول البقاء ، وهو من المعدودين من شجعان الشام . وفرسان الاسلام ، ولم تزل بنو منقذ ملاك شيزر ، وقد جمعوا السيادة والفخر ، والمهم من الأجواد والأجناد ... وما فهم إلا ذو فضل وبذل ، وإحسان وعدل ، وما منهم إلا من له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، ومن له قصيدة وله مقطوع ، وهذا مؤيد الدولة أعرفهم في الحسب ، وأعرفهم بالأدب » . وقال الاصفهاني أيضاً : « أكنت قد طالعت مذيّل السمعماني ، ووجدته قد وصفه وقرّطه ، وأنشدني الماعري له بأصفهان من شعره ما حفظه ، وكنت أتمنى أبداً لقيه ، وأنشئ على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة ٧١٠ - يعني ٥٧١ بدمشق »^(٢) .

ويقول ابن عساكر : « اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره سنة (٥٥٨) وقال لي أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الملحي : ان الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر ، ملك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطلقة أبيه ، ليس يستقصي وصفه بمات ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، قصائده الطوال لا يفريق بينها وبين شعراين الوليد »^(٣) ،

١ - أبو شامة ، I ، ص ٣٦٤ .

٢ - الخريدة ، I ، ص ٤٩٨ .

٣ - مسلم بن الوليد ، شاعر مشهور من شعراء القرن الثامن انظر :

ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبید ، وهي على طرف لسانه ، بحسن
بیانه ، غیر محتفل بطولها ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من فضولها ،
وأما المقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد الشهد ، في كل
معنى غريب وشرح عجيب (١) .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

الآثار الأدبية للأمام

١ - تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج ١١ ، ص ٤٠١ .

كان أسامة منذ أيام الفتوة قد بدأ قرض الشعر ، ورافقه نظم الشعر طيلة حياته ، مسجلاً به ضربات قلبه ، والشاعر الوطنية وظروف الحياة في ذلك العصر الذي عاش فيه .

لقد كانت حياته في ديار بكر هادئة نسبياً ، إذ قد هزم ، وخفتت شعلته الحربية القتالية ، فأعطى كل مقدراته التأليف الأدبي . ولذا فقد كانت هذه الحقبة من حياته فترة نشاطه الأدبي والعلمي . واشتهر في عصر كآدب ، وكاتب ، ومؤرخ وشاعر . لقد صنف أكثر من ٢٠ مؤلفاً ، معظمها مفقود حتى الآن .

وإنطلاقاً من فن ومحتوى مؤلفات أسامة ، ولسهولة دراستها دراسة نقدية فقد قسمناها على النحو التالي :

أولاً - المؤلفات ذات الطابع الأدبي لم التي تشكل القسم الأكبر والأشهر من مؤلفاته :

١ - « ديوان أسامة » وهو جميع الأشعار التي قلها أسامة في مدة عمره ، من أيام فتوته إلى آخر أيامه في شيخوخته ، ولقد قام بحجمه بنفسه في الثمانينات من القرن XX . فرتبه بحسب الموضوعات الشعرية ، كما أشار إلى ذلك في المقدمة : « وقد جعلته مشتملاً على ستة أبواب :

الباب الأول : الغزل ، وينتظم في سلكه شكوى الفراق ، ووصف الحنين والاشتياق ، ثم ما يجوز أن يلتحق به من مكاتبات الإخوان ومكاتبات الخلان ، وما يجذب هذا المعنى بأهدافه . الباب الثاني - الأوصاف . الثالث : الملاح . الرابع - المديح ، وينسب به القول في الفخر تتضمن مآثر الإنسان وخلال ، ثم الحماسة ، الرجوع منها إلى التمدح بالشجاعة والبسالة . الخامس - الأدب ، ويعلق بسببه الأمثال ، وما يجري مجراها ، أو يلاحظ معزاًها ، ثم وصف الشيب والكبر ، ثم الزهد لمن تأمل واعتبر ، السادس - المراثي . وكل باب من هذه الأبواب المذكورة مرتب على حروف المعجم ، فصلاً فصلاً ، يقرب تناول ما يقصد منه (١) . لكن من المؤسف أن القصائد غير مؤرخة .

وتجدير الإشارة إلى أنه في الديوان « لا يوجد فصل للهجاء » . وذلك لأن أسامة قد اعتبر الهجاء فناً حقيراً ، لم يكتب فيه ، وأسامة يؤكد هذا في المقدمة : « على أنني بحمد الله ما فته برث ولا هجاء » (٢) . لكن يفهم من شعر أسامة أنه بصموبة قد انخرق عن هذا الفن لوجود أسباب كانت تثير في نفسه شعور الهجاء :

ظلمت شعري ، وليس الظلم من شيعي يطيعني حين أدعوه وأعصيه
يهم أن يذكر القوم اللثام يا فيهم فأزجره عنهم ، وأنتيه (٣)

- ١ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٤ - ٤٥ .
- ٢ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٣ .
- ٣ - أسامة ، الديوان ، ص ٢٤٣ .

لكن الملاح المجاثية^(١) لشعره إنما تظهر في فصل « الملاح » .
نعم ولكن هذا الفصل غير كبير الحجم (٥ صفحات ، من صفحة
١٥٦ - ١٦١) ، في الوقت الذي يمثل فيه الهجاء مكاناً واضحاً كبيراً
في دواوين الشعراء العرب .

لقد نظم أسامة في فن « المدح » لكن لأجل العطايا والهيئات :
« ولا مدحت أطمع ولا رجا » (ديوانه ، ص ٤٣) . ومدح تلك
القلة ، التي كانت قريبة إلى نفسه (أنثرا وطلائع وعباساً وابنه نصراً
ونور الدين وصلاح الدين) ، ومن المريب أنه لا تعرف قصيدة واحدة
في عماد الدين الزنكي ، ربما أن هذه القصيدة قد وجدت لكن أسامة
لم يوردها في « ديوانه » عندما جمعه .

واقصر بني منقذ ، ومدحهم ، ومدح نفسه وشجاعته وإقدامه ،
وصموده أمام حوادث ونكبات الزمان . وهو في هذا بذكرنا بالثني ؛
فكلامها ينطلق من اعتقاده بأنه لا يقل مجداً ورفعة ورجولة عن
مدحوه .

وبكاء أسامة في « رئائه » شر أليم ، فهو يرثي الأقرباء والأصدقاء ،

١ - أسامة يمزح وينكت على الأعرج (ديوان ، ص ١٥٩) . إن
هذا يذكر بهجاء ابن الرومي للأدب .

وخاصة ابنه أبا بكر عتيق^(٢) ، الذي شغل رثاؤه تقريباً $\frac{2}{3}$ من رثاء
أسامة . ثم إن فقدان الوطن والأقرباء والأعزاء قد طبع شعره بطابع
الحزن واللام .

أما أسلوب وصور أسامة في النسيب ، فمتشابهة مع أسلوب وصور
الشعراء الجاهليين ، لكن شعره في هذا المجال يتميز بخلاص أكثر
وعاطفة صادقة مجروحة ؛ إذا عبّر عن آلامه العميقة ، ومشاعره
الشخصية .

إن أكثر الحوادث الهامة في هذا العصر ، وحياة أسامة الشخصية
قد لاقت صدًى وانعكاساً في شعره ، الذي يسجل الحوادث التاريخية
والمعارك وبطولات أبطال عصره المسلمين في صراعمهم مع الفرنجة . فأشعاره
تصور جميع مراحل حياته ، وبفضلها يمكننا أن نجمع حقائق هامة عن

١ - يبدو من شعر أسامة [ديوانه ، ص ٢٩٧] أن ابنه عتيق ،
الذي كان له من العمر سبع سنوات ، قد مات عندما كان
أسامة من العمر أكثر من ثمانين ، وبني هذا أنه ولد بعد فروة :

رمتني في عشر الثمانين نكبة

رزئت أبا بكر ، على شفقي به
ل سبع ، مضت من عمره ، غاله الردى
فيالهيقتا ، ماذا جنى الحادث البكر
و كنت أرجي أن يطول به العمر

هذه الحياة ، وعن آلامه في غربته ، وحنينه إلى وطنه وأهله :

- أهكذا أنا ، باقي العمر مقرب
ناء عن الأهل والأوطان والسكن

لا تستقر جيادي في معرسها
حتى أروّعها بالشدة والظعن

- أين السرور من المروع بالنوى
أبدا ، فلا وطن ، ولا خلان

عيد البرية موسم لعويله
وسرورهم فيه له أجزان

وإذا رأى الشمل الجميع تراحت
في قلبه الأموة والنيران^(١)

وأسماء كثيرة من فحول شعراء العربية السابقين ، أعاد النظر في
في شعره محصاً مشدداً ، وحذف تلك الأشعار التي لم تعجبه وتفحصه
وهذه :

كلما رددت في شعري النظر
بان ضعف العمي فيه ، وظهر

فأجبل الفكر في تقليله
فإذا قلّ اختصرت المختصر

وأشعار « الديوان » التي قام أسماء بكل اعتناء بتفقيحها وجمعها
في آخر حياته معيرة ، حقيقة التأخذ ، جملة البارة ، قريبة الفهم ،
عميقة الفكرة ، وخلافاً لأكثر شعراء ذلك العصر ، لم يمع أسماء إلى

١ - أسماء ، الديوان ، ص ١٠٤ .

التزين اللفظي الذي كان الميزة الفنية للشعر حينئذ ؛ فاستعمل الطباق
والجناس والمقابلة والاستعارة لم ينته به إلى التلاعب اللفظي ، الشغل
الشاغل لمظم معاصريه .

إن تراكيب شعر أسماء بعيدة عن التقيد ، تعبر عن أفكاره
بسكل عمق وسدق وإخلاص . وفهم شعره لا يحتاج إلى المعاجم ذلك لأن
اللفظة عنده واضحة مفهومة سهلة بسيطة . وتتابع أفكاره بسهولة
وسلاسة . لقد كتب قصائد قصيرة ، وطويلة أيضاً ؛ فبعض قصائده
يتألف من تسعين بيتاً تقريباً^(١) . وكان يقبس أحياناً بعض أبيات من
أشعار الشعراء الآخرين^(٢) ، أو من القرآن الكريم ، معبراً بهذا عن
معرفة راثية بشعر الشعراء الجاهليين والكلاسيكيين . ويبدأ قصائده في
أغلب الأحيان - جريباً وراء التقليد - « بالنسب » وأحياناً أخرى ينظم
الشعر في الغرض الرئيسي مباشرة دون مقدمات غزلية أو طائفة ، خاصة
إذا كان غرض القصيدة مدحاً أو « فخرأ » . (انظر . الديوان ،

١ - انظر قصيدته [من نور الدين الزنكي إلى طلائع بن رزيك] ،
الديوان ، ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

٢ - يظهر هذا بوضوح في قصيدته « الميمية » ، [ص ٤٠ و ١٤٦ -
١٤٨] ، حيث يقبس أشعاراً من شعر المتنبي ؛ وفي الرائية
(ص ٧٢ و ١١٩) - من أشعار أبي فراس . وربما كان اقتباسه
من أشعار هذين الشاعرين لاجتماعه بهما ، ولأنه كان قريباً منهما
بنموذج حياته .

ص ١٧٠) . ويعتبر أسامة بحق واحداً من أولئك الشعراء الذين أعادوا للشعر قوته ، وفنونه ، وأسلوبه الرفيع في أحدث ظروفه ، وعصور ازدهاره .

ويصنف قصائده في « الديوان » حسب موضوعاتها ، مما يخلق جواً واحداً للقصائد ذات اللون الواحد ، ويسهل دراسة فن الشاعر : طريقته ومنهجه في كل غرض من أغراضه . لكن كان من المفيد جداً لو قلم أسامة بتاريخ قصائده ، والإشارة إلى مناسباتها للمرك الجيو الذي أحاط به عند مقرضها .

ولا بد من الإشارة إلى أن أسامة لم يجمع جميع أشعاره في ديوانه . ففي مؤلفاته الأخرى : [الاعتبار ، والنصا ، ولباب الآداب ، والمنازل] يثر على أشعار لا يمكن العثور عليها في « الديوان » ؛ ففي « كتاب المنازل والديار » ، مثلاً ، يثر على (٢٩) مقطوعة ، تشتمل على (١٢٧) بيتاً^(١) لم ترد في « الديوان » . وعلاوة على هذا فإن مقطوعات من أشعار أسامة توجد في مؤلفات مؤلفين آخرين : في « الخريدة » لعبد الدين الأصفهاني ، و « الروضتين » لأبي شامة ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي ، و « شذرات الذهب » لابن عماد الحنبلي ، و « جهرة أنساب العرب » لأبي القنائم الشيزي ، و « مسالك الأبحار » لابن فضل الله

١ - أسامة ، المنازل ، ص ٢٦ - ٢٩ ، ٧٦ - ٧٨ ، ١٩٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٣٠٣ - ٣٠٦ ، ٤١٩ .

العمري ، « ومعجم الأدياء » لياقوت ، و « نيات الاعيان » لابن خلكان ، وحلو « الديوان من هذه الاشعار لا يدل على عدم جودتها . وكان أحمد بنوي وحامد عبد الحميد قد كتبوا في المقدمة لاصدار « الديوان » ص (٩) ، عن تصميمهما على جمع أشعار أسامة التي لم يوردها في « ديوانه » ، لكنها ، على ما يبدو ، لم تحققا هذه الفكرة . ولذا فإننا نقترح : إما إصدار « الديوان » ثانية ، بعد تضمينه جميع أشعار أسامة ، أو جمع كل الاشعار التي لم ترد في الديوان ، وإصدارها في ملحق خاص .

و « الديوان » مخطوطة واحدة^(١) مشهورة ، محفوظة في دار الكتب في القاهرة تحت رقم ١٦٨٧٧^(٢) ، تقع في [٣٩٠] ورقة ، قام

١ - لقد أشار عبد المالك السيد إلى وجود مخطوطة أخرى « للديوان » ، كانت محفوظة في بغداد عند عبد الرحمن صالح الراوي ، فأخذها المازني بقصد إصدارها بمحققها . لكن المازني لم يحقق هذا الهدف . وكتب عبد المالك السيد بأن المخطوطة تقع في (٤٠٠) صفحة - على ما يذكر - ، وكانت مكتوبة قبل أكثر من (٦٠٠) سنة ؛ أى في عام (١٣٤٧) . انظر . مجلة « الكتاب » ، كانون الثاني ، ١٩٤٧ ، مجلد . III ، ج . III ، ص ٥٠٦ .

٢ - هل المخطوطة التي ذكرها السيد هي نفسها تلك المخطوطة المحفوظة في دار الكتب ، أم أنها غيرها ؟ إن هذا السؤال يبقى قائماً . تنتظر الإجابة الصحيحة .

بشيخه عبدالعزيز بن أحمد العجمي عام ١٢٨٩/٦٨٨ ؛ وحقها ، وقدم لها
أ . بدري ، و ح . عبدالمجيد ، ووضحا ، وشرحا الكلمات الصعبة ،
ووضا فهارس الاعلام ، والقوافي (حسب الموضوعات الشعرية) .

٢ - كتاب البديع :

يعتبر هذا الكتاب من اوائل مؤلفات أسامة ، وربما كان أولها ؛
فقد كتبه عام ١١٢٨ ، عندما عاش في إحدى قرى شيزر (انظر أعلى ،
ص ، ٧٠) . وليس للكتاب أهمية كبيرة ، ذلك لأنه مشابه لكتاب
آخر في « البديع » بفصله ومحتواه . ولانجد فيه مادة أدبية ، كما
تقع على ذلك في مؤلفات أسامة الأخرى . وجاء في مقدمة الكتاب مايلي:
« وهذا كتاب جمعت فيه ماتفرق في كتب العلماء الاقدمين الصنف في نقد
الشعر ، وذكر محاسنه ، وعيوبه ، فلهم فضل الابتداع ، ولي فضيلة
الانباغ . والذي وقفت عليه من كتب : « كتاب البديع » لابن المعتز ،
« وكتاب الصنائع » للسكري ، « وكتاب نقد النحو » لقدامسة ،
« وكتاب العمدة » لابن رشيق فجمعت من ذلك أحسن أبوابه ،
وذكرت منه أحسن مقالاته ، ليكون كتابي مغنياً عن هذه الكتب ،
مضمنة أحسن ما فيها » (٢) .

- ١ - ديوان أسامة بن منقذ ، حققه ، وقدم له الدكتور أحمد أحمد
بدوي ، وحلمد عبدالمجيد ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٥٣ .
- ٢ - أسامة ، البديع ، ص ٨ .

هناك خمس مخطوطات مشهورة لهذا الكتاب :

أ - مخطوطة مكتبة بلدية الاسكندرية ، المحفوظة تحت رقم ١٣٤١
ب ، منسوخة في عام ١٣١١/٧١١ ، وتقع في ١٢٩ ورقة (١) .

ب - مخطوطة برلين (الآن تيوبينجن) ، تحت رقم «We 134» ،
وتقع في ١٢٩ ورقة ؛ وقسم منها منسوخ في ١٤٩٤/٩٠٠ ، أما القسم
الباقى ففي عام ١١٧٠/١٣٣٧ (٢) .

ج - المخطوطة الثالثة محفوظة في معهد الدراسات الشرقية ، فرع لينينغراد ، التابع ،
لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم [B 538] ، [No. 461] [مخطوطات قديمة]
وتقع في ٩٧ ورقة لكن الاوراق الاولى مفقودة والمخطوطة مكتوبة بخط
مصري جميل ، في ذي الحجة عام ١٠٣٩/تموز ١٦٣٠ ، وموصوفة
باختصار من قبل الاكاديميك السوفياتي ل . ي . كراتشكوفسكي (٣) .

د - الزاوية محفوظة في « دار الكتب » في القاهرة (٤) تحت رقم
(٥ م بديع) ، تقع في ١٢٩ ورقة ، بدون تاريخ النسخ ، وبدون

١ - حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

٢ - (2 Ahlwardt, VoL.VI, p. 412 (No.7277) -

٣ - كراتشكوفسكي ، ل . ي . مؤلفات مختارة . > II ، ص ٢٦٨ .

٤ - فهرس دار الكتب ، > IV ، ص ، ١٢٤ .

٥ - حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

مقدمة ، كما أن بعض الأوراق الأخيرة مفقودة .

هـ - الخامسة محفوظة في ، ومسماة « مختصر مقدمة الشعر » ، تحت رقم Cod 848Warn^(١) . ولقد قام أ . بدوي وح . عبدالمجيد ، بالاعتدال على مخطوطة دار الكتب ، بإصدار الكتاب لأول مرة في عام ١٩٦٠ ، في القاهرة^(٢) . والكتاب موزع على فصول حسب أنواع وأجناس البديع في الادب العربي ، التي بلغت عند أسامة (٩٥) نوعاً .

زكريا

٣ - « كتاب الغريبين » :

وله مخطوطة واحدة ، محفوظة في « قونية » ، جاء في صفحاتها الأخيرة حسب أخبار حتي الذي يقول : « وفي رسالة خاصة من الشيخ خليل الخالدي بالقدس أنه رأى وهو بقونية نسخة من « كتاب الغريبين » في آخره ماصورته : - « وكان الفراغ منه يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسة مائة حصص . كتبه لنفسه منقذ بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنساني

١ - كثالوك ليدن ، الطبعة الثانية ، ١٠٢-١٥٣ (No. 293) .

المخطوطات رقم (ب، د، هـ) مشار إلى البهاقي و كان : I ، ص ٣١٦-٣١٩ .

Brockelmann, C, AL Vol. I, p. 316 - 319

٢ - البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد بشوي وزميله ، طبعة الحلبي ، مصر ، (القاهرة) ، ١٩٦٠ .

المالكي ، (١) .

ولا غلاك معلومات أخرى عن هذا الكتاب ، لكننا نفترض أنه « كتاب عن الألفاظ الغريبة في القرآن والحديث » . ذلك لأن مثل هذه المؤلفات في هذه المواضيع كانت قد ظهرت في الادب العربي ، والثقافة الاسلامية منذ حوالي القرن التاسع الميلادي . وحول هذا الافتراض دار النقاش بيني وبين البروفيسور السوفياتي ، المسترب ييلابف ، الذي أكد صحة الافتراض بأدلة مقنعة لا مجال لسوقها الآن .

٤ - « كتاب المنازل والمبار » :

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من الاشعار بينا نقل فيه المقطوعات الثرية ، حيث ينتقل أسامة إلى النثر أحياناً في حالات خاصة ، ليفسر ترميزه الشعري ، أو ليحكي رواية أو قصة لتوضيح حادثة معينة ، أو حقيقة غامضة .

وكان الدافع لجمع هذه الاشعار ، وتأليف هذا الكتاب دافعاً خاصاً ذاتياً ، قام أسامة بذلك محاولاً إيجاد التعزية لنفسه ، ومواساتها في الألم والحزن اللذين ألما به وتركها طابع السوداوية والتشاؤم على جميع مؤلفاته اللاحقة .

١ - رسالة من خليل الخالدي من القدس ، انظر . ف . حتي ، في مقدمته « لكتاب الاعتبار » ، النص العربي ، ص . (ك) .

جمع أسامة في هذا المؤلف أشعار معاصريه ، وأشعار الشعراء السابقين منذ الجاهلية إلى عصره ، تلك الأشعار التي تعترف فيها انقسام الحزن لفقدان الأقرباء والأهل ، والحنين إلى الوطن المهجور ، وحزن الفراق والبعد عن المحبوبة ، وتذكر السعادة القديمة في أرض الوطن المهجور ، في يجتمع الاصدقاء والأقرباء - أبناء العشيرة والسلالة ، وتذكر اللقاءات السعيدة ... الخ .. وكأنه يريد بذلك أن يعيد الفاظ الشاعرة الخنساء ، التي وجدت عزاء نفسها في بكائها على أخيها ، وفي حزن وآلام الآخرين إذ قالت :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

« فكتاب المنازل والديار » صدى (لتراجيديا) أسامة ، وإنمكس ، وإظهار لمشاعره المؤلمة الحزينة . ومن الضروري أن نؤكد أن أسامة قد سعى في هذا المؤلف أحياناً وراء صفة عامة من صفات التأليف في ذلك العصر ، وهي البعد عن الموضوع الأساسي ، والاستعارة إلى موضوعات ثانوية ، ليس لها ارتباط بالهدف الأساسي ، مسبهاً في الحديث عن هذا الحدث الثانوي (١) ،

١ - انظر . المنازل ، ص ٣٥٠ - ٣٨٠ ، حديث أسامة عن بناء « الكعبة » ؛ وصفحة ٥٦ - ٦٢ حديثه عن مقتل الشاعر كعب بن الأشرف ، وصفحة ٩٤ - ٩٥ حديثه عن عروة بن الورد .. الخ ..

وذلك - حسب رأيه - كي لا يرهق القارئ ، (٢) ، ويبله ، وليحقق له فرس التنوع في القراءة .

« لكتاب المنازل والديار » أهمية واضحة ، وقيمة بينة ، وقيمته تكمن في كونه أثرًا أدبياً من آثار القرن الثاني عشر ، تنعكس فيه روح ذلك العصر ، وشخصية أسامة أيضاً . وعلاوة على هذه فإن قيمته تزداد إذا عرفنا أن الإصدارات النقدية لآثار القرن الثاني عشر قليلة ، فمؤلف كأسامة ، أدب وشاعر ، في اختياره لمادة كتابه هذا ، إنما يلعب - بهذا الاختيار - دوراً هاماً جداً في دراسة الأدب في ذلك العصر ؛ ذلك لأن أسامة يتلك الذوق الأدبي الفني في اختيار المقطوعات ، وهذا يعطينا صورة عن طبيعة تقيمه وتقده الشعر .

أما أهمية الكتاب الأساسية فتركز في كونه - بطريقة ترتيبه ، ومادته المجموعة فيه - يعطي مادة غزيرة ضخمة يمكن أن تكون أساساً حياً للدراسة الموضوعات الأدبية في الشعر العربي ، كما أنه ، في نفس الوقت ، يساعد مساعدة ملحوظة على تطور هذا الاتجاه في البحث والدراسة في علم الأدب وتاريخه .

وبشكل تقريبي ، فإن أكثر الأشعار المختارة في الكتاب عن الآثار ، وبقايا الديار ، والأطلال ، ما هي إلا أجزاء من القصائد ،

١ - أسامة ، المنازل ، ص ٥ ؛ المخطوطة ، الورقة ٦ (أ) .

وبخاصة من الجزء الاثامي في القصيدة العربية والذي سمي « باليكاء على على الاطلاق » ، وتحول مع الزمن إلى تقليد أدبي أثامي ، ودخل في صلب نهج القصيدة . ^{٢٨٣}

لقد أشار المستشرق السوفياتي الكبير الاكاديميك إ. ي . كراتشوفسكي إلى قيمة كتاب أسامة ، وأهميته في دراسة الموضوعات الأدبية قائلاً : « أسامة » ، وهو غير شك ، طبعاً ، في امكانية النظرة الجمالية لكتابه المغمم بالشاعر والمواطف ، جمع فيه مادة غنية من أجل مثل هذا العمل ، واضحاً بذلك الكثير من إشارات العلام [تمثل هذه الدراسة] . إن كل هذه المادة تقريباً ، يمكن أن تنتقل لتصبح تحت تصرف الباحث الأوروبي ، منقذة هذا الباحث من بحث وتفتيش طويلين [لجمع مثل هذه المادة] وفي هذا تكمن القيمة العظمى لكتاب أسامة ، ومن غير الممكن أن يفقد (هذا الكتاب) من تاريخ الادب العربي والحياة ^(١) .

ويملك « كتاب المنازل والدليل » قيمة أدبية كبيرة ، ويثير اهتمام الاختصاصيين ويستقطبها بقوة . وأهميته في عصرنا هذا قد فاقت بكثير تلك الاهداف الاساسية التي من أجلها وضع أسامة كتابه : إذ لقد جمع في هذا الكتاب حوالي ٥٠٠٠ بيت من الشعر العربي الرائع ، والتي لا يمكننا - أحياناً - أن نمثر عليها في دواوين شعرائها . إنسه

١ - كراتشكوفسكي ، إ. ي. ، مؤلفات مختارة ، II ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣

أحمد

اشبه بالمجموعات الشعرية المشهورة « كالحمامة » و « الإيمالي » . وأشعاره كلها مجموعة ومختارة من قبل شاعر ، يمتلك ذوقاً أدبياً رفيعاً ، وإحساساً نقدياً عجبياً .

إن المخطوطة الوحيدة للكتاب ، الفريدة في العالم ، محفوظة في معهد الدراسات الشرقية - فرع لينينغراد - التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم (C85) ، وتقع في ٢٥٠ ورقة . وحسب المعلومات المكتوبة في آخر المخطوطة فإن الذي كتبها إنما هو أسامة ذاته ، عندما كان في حصن كييف ، وكتابتها كانت في جمادى الأولى لعام ٥٦٨هـ / كانون أول عام ١١٧٢ . وبالاستناد إلى هذه المخطوطة فإن كلا المستشرقين « فرين » و « كراتشكوفسكي » قد وصلا إلى النتيجة التالية : « إن المخطوطة إنما كتبت بخط المؤلف نفسه (أفوجرانف) » . لكن يعقوب صروف في عام (١٩٠٧) قد ارتأى بأن الناسخ (الكاتب) لكتاب أسامة هذا إنما هو (غنائم) : ربما قد ييض مسودة أسامة التي لم نصلنا ، وبعد ذلك قد قرأ هذه البيضة على المؤلف أسامة ، كي يصحح بنفسه الاخطاء التي يمكن أن تكون قد وقعت نتيجة (التبييض) ، ولذا فإن المخطوطة التي وصلتنا - حسب رأي صروف - إنما هي بخط (غنائم) . وأسامة نفسه في « كتاب الاعتبار » يتحدث عن (غنائم) ، الذي كان خادماً لابييه ، وشاركه في رحلات الصيد ، وكان صاحب حرفة جيدة ، بليغاً في حديثه ، حسن التأدب ، وربما قد امتلك خطأ جليلاً ، وربما قد طلب أسامة المهرم منه المساعدة لينسخ له مؤلفاته .

إن ما يرجح اقتراضنا الأخير ، كون (غنائم) الناسخ الحقيقي - في حياة أسامة - مؤلف آخر من مؤلفاته (انظر رقم ٦) .
لكننا لا نقطع بصحة اقتراضنا هذا ، بل يبقى السؤال مفتوحاً ، يستدعي الجواب المدعم بالأدلة والبراهين ، إنما نفترض أحد فرضيتين لا ثالثة لهما : إما أن أسامة ذاته قد كتب الكتاب بخط يده ، أو أن غنائم كتبه له في حياته .

أما ما يتعلق بتاريخ المخطوطة ، فبالاعتماد على المعلومات التي توفرت لنا ، يمكننا أن تتبع هذا التاريخ حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً ، أي إلى وقت ظهورها في المتحف الآسيوي في لينينغراد ، ثم تتابع دراسة تاريخها حتى أيامنا هذه .

لقد بقي « كتاب المنازل والديار » في دمشق حتى القرن السادس عشر ، وكان مالكة محمد العللاوي . ورى بأن المخطوطة قد وصلت إلى دمشق عندما انتقل أسامة من حصن كيفا في شال سورية إلى دمشق . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت المخطوطة قد فقدت الورقة الأولى ، لكن الورقة الأخيرة كانت لا تزال محفوظة ، وكان قد كتب عليها بخط محمد الطلاوي تاريخ ومكان الكتابة .

وبعد وفاة الطلاوي ظهر تذييلان على المخطوطة الواحد تلو الآخر ، عام ١٦٥٩ و ١٨١٠ يشهدان أن المخطوطة كانت لا تزال في سورية أيضاً ؛ أولاً في دمشق ، وبمدها في حلب . وكان مالكة الشاعر الشهير فتح الله الطرابلسي - صديق ج. ل. روسو (Joseph Louis Rousseau)

القنصل الفرنسي . وفي عام ١٨٢٥ وصلت مخطوطة أسامة إلى روسيا ، ضمن مجموعة روسو التي كانت في عيادها ، على أرجح تقدير ، وذلك بفضل مساعي سلفترود ساسي المشهور . ونفترض أن روسو قد أخذها من الطرابلسي . وفي العشرينات من القرن التاسع عشر تقع في أعمال المستعرب خ . د . فرين^(١) على إشارة إلى (أفوجراف) - نسخة لكتاب مكتوبة بخط المؤلف (- أسامة بن منقذ : « كتاب المنازل والديار » ، وإلى أنه محفوظ في المتحف الآسيوي في لينينغراد - روسيا .

وبطريق الصدفة كان قد عثر المستشرق السوفياتي إي . كراتشكوفسكي على هذه الإشارة في أعمال ب . أ. دورن عن المتحف الآسيوي^(٢) ، لكن كراتشكوفسكي شك في وجود المخطوطة ، وفي صحة هذه الاشارات إليها ، ذلك لاعتقاده بأنه من غير الممكن أن تكون المخطوطة موجودة في العالم ، في الوقت الذي لم يعمر عنها أي شيء المستعرب الفرنسي هرتسوينغ دربورغ ، الذي درس جميع مؤلفات أسامة ردهاً طويلاً من الزمن ، دون أن يعثر في أبحاثه على أية إشارة إلى مخطوطة « كتاب المنازل والديار » هذه . لكن كراتشكوفسكي لم يبق عند حدود الشكوك ، بل أخذ بالبحث عن المخطوطة بين مخطوطات المتحف الآسيوي إلى أن وجدها فعلاً ، ثم قام بوصفها وصفاً دقيقاً

١ - فرين ، خ . د . ، وثائق روسية قديمة CHIF ، عام ١٨٣٦ ، رقم XIV ص ٥٠ - ٥٩ .

Dorn, B.A., p. 289 - 293

في عام ١٩٢٥^(١) . وبعد ، في عام ١٩٦١ قام المشرق السوفياتي الدكتور أ. ب. خالوف بتصوير المخطوطة ، وإصدار هذا المصور مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهارس عدة للاعلام ، والاماكن ، والقوافي ، الخ .. أما في البلاد العربية ، فبالاعتماد على هذا المصور قام « المكتب الاسلامي » بإصدار المخطوطة في كتاب حقق ، ثم بعد ذلك ، في عام ١٩٦٨ قام مصطفى -حجازي بإصدار الكتاب محققاً تحقيقاً نقدياً مع دراسة وملاحظات وشروح^(٢) .

سُمي هذا المؤلف « كتاب المنازل والديار » ، لكن لا توجد قفة كاملة بأنه سمي هكذا منذ البداية . ذلك لأن ورقة المخطوطة المكتوب

١ - كراتشكوفسكي ، إ. ي . ، مؤلفات مختارة . ص ١١٦ ، ص ٢٦٦ - ٢٨٣ ؛ I ص ٧١ - ٧٤ .

٢ - المنازل والديار ، تأليف أسامة بن منقذ ، تحقيق مصطفى حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

يشير مصطفى حجازي في مقدمته إلى أن إصدار «المكتب الاسلامي» لا يتمتع بالجودة العلمية ، وإلى أنه صورة عن المصور الروسي . لكننا في الواقع ، وقمنا على « إصدار المكتب الاسلامي » هذا ، وعلى إصدار حجازي وثبت لدينا أن المكتب الاسلامي قد قام بجهد علمي كبير مشكور عليه ، قد اعتمد عليه مصطفى حجازي ذاته . وفي حديث شخصي مع أحد الساهمين في إصدار «المكتب الاسلامي» ، لسنا المرارة لوقف الاستاذ حجازي هذا .

عليها العنوان إنما كتبت أخيراً بخط منابر لخط المخطوطة . لكن من المشهور عندنا أن أسامة غالباً كان يستعمل عناوين غير مسجوعة تقع في كلمة أو كلمتين عندما يسمي مؤلفاته كما هو الحال في هذه التسمية : « كتاب المنازل والديار » .. ولا بد من التأكيد على أن تسمية الكتاب هكذا أصلاً لا تمتلك أية علاقة - إطلاقاً - مع الجغرافيا ، خلافاً للافتراض الخطاطي ، الذي افترضه زكي . أ .^(١) .

ان التصور الجيد عن تركيب ودوافع كتابة هذا المؤلف يمكن أن تعطيه مقدمة أسامة له : « قال أسامة بن مرشد ... بن منقذ الكنتاني ... وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدع شملنا أيدي سباً ، وتشعبت بنا سبل المذاهب ، وأخذت الحوادث على معشري

١ - انظر . اعلام العرب ، رقم ٧٩ ، ص ١١٥ - ١١٦ . يقول زكي . أ. : « وانتهت أيامه الأولى [أيام أسامة] - وكان قد قابل فيها الخليفة مرتين - إلى الاقتناع بأن ما ينبغي عمله إنما هو وضع كتاب في (المنازل والديار) . لقد رأى كثيراً من المدن ، وشاهد كثيراً من الصحاري والوديان والبحار والانهار إلا أن ما يراهم فاطربه في هذه الأيام شيء مختلف ربما يميزه الاصرار والعزم والوقار والرسوخ وقد يتسم بالدوام ، وأن يرغب الجميع على التأمل فيه وطول التفكير ، لكنه ما مسك اللم حتى حاجت به الذكريات ورأى أن يكتب لهؤلاء الذين صانوه شيئاً » .

حتى أقامت حنايا الضلوع ، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار
دون هلاك السكان ، بل كان هلاكهم أجمع ، كل ترداد الطرف وأسرع .

ثم استمرت النكبات ترى من ذلك الحين وهلم جرا ، فاسترحت
إلى جميع هذا الكتاب فجعلته في بكاء الديار والاحباب ، وذلك لا يفيد
ولا يجدي ، ولكنه مبلغ جهدي ، والى الله عز وجل أشكو ما لقيت من
زمانني وانفرادي من أهلي وإخواني ، وإغترابي عن بلادي وأوطاني .

وإليه عز وجل أرغب في أن يمن علي وعليهم بغفرانه ، ويعوضنا
برحمته في دار رضوانه .

وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، فافتتحت كل فصل بما يوافق
حالي ثم أفضت فيما يوافق ذا القلب الخالي ، لكيلا يأتي الكتاب وهو كاله
عويل ونياحة ، ليس فيه لسوى ذي البت راحة .

على أن رزاي الدنيا كالأجل تمهل ولا تمهل ، وإن قلت اليوم
فقدأ تقبل فما أحد من ربهين سليم .

وتتبع هذا المعى سبب ، وحصره لا يمكن ، وقد أوردت منه
ما يبرد الالوعة ، ويسكن الزوعة ، والندر إلى من وقف عليه مبذول ،
وهو عند الكرام مقبول^(١) .

يقسم أسامة كتابه إلى ستة عشر فصلاً ، يمددها بالتفصيل في نهاية
المقدمة . ولكل فصل عنوان خاص : « فصل في ذكر الديار » ، « فصل
في ذكر البيت » ... الخ . وقد جمع في كل فصل أشعاراً وقطعاً أثرية حول

١ - أسامة : المنازل ، ص ٣٣ - [الحول والحيل : القوة] .

وآلي ، وأغنى الموت أسودي وأشبابي ، كل ذلك بقدر جرى به القلم في
القدم ، وقضاء سبق به المشيئة قبل الخروح إلى الوجود من الدم ،
ألقى ما سر من ذلك وساء بالتسليم والرضى ، وأفوض إليه سجل وعلا-
فيا قدر وقضى ، وأقر بأن ابتلاه بعدله ومعافاته بفضل ، وأرجو من
رحمته أن يكون ذلك كفارة لذنوبي سلفت ، وموعظة دعت عن المعاصي
وصرفت ، وإن ما نالنا من الدنيا وآفاتها بذنوب اقترفناها فرحنا بتعجيل
مكافأتها .

وبعد ، جعلك الله بنجوة من النوائب ، وإصفي لك الحياة
من كدر الشوائب ، ولأراذك بمحاذة تنسي ما قبلها ، وتضمر ما بعدها ،
وتفتح من النكبات أبواباً لا تستطيع سدها ، فإني دعائي إلى جمع هذا
الكتاب مانال بلادي وأوطاني من الخراب ، فإن الزمن جر عليها ذيله ،
وصرف إلى تعفينها حوله وحيله ، فأصبحت كأن لم تكن بالأمس ، موحشة
المرصات بعد الأنس ، قد دثر عمرائها ، وهلك سكانها ، فمادت منانيها
رسوماً ، والمسرات بها حشرات وهموماً .

ولقد وقتت عليها بعدما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول
أرض مس جلدي ترابها ، فسما عرفت دارى ، ولا دور والذي
وإخواني ولا دور اعمامي وبني عمي وأسرتي ، فبهت متحيراً مستعيذاً بالله
من عظيم بلائه ، وانتزع ما خوله من نعمائه .

ثم انصرفت فلا أثبك خبيتي رعش القيام أميس ميس الاصور

وقد عظمت الرزبه حتى غاضت بواذر الدموع ، وتابعت الزفرات

المنى الذي ينضوي عليه عنوان الفصل ، أي حول « الديار » ، أو « البيت » ، أو « الربع » .. الخ ... ويعطي أحياناً شرحاً وتفسيراً للمصطلح (اللفظة) التي هي عنوان الفصل ، وحولها تدور الأشعار . وتساق الأشعار ضمن كل فصل ، أحياناً ، حسب النظام التاريخي : حسب حياة الشعراء ؛ وأحياناً أخرى حسب القيمة الفنية للأشعار دون مراعاة حياة الشعراء . ثم يسوق أشعاره وأشعار أقرانه في آخر كل فصل مع توضيح وشرح للكلمات التي براها صعب الفهم . ولا بد من الإشارة إلى أنه أحياناً لا يراعي العنوان في الفصل ، بل يعتمد على الموضوع كثير^(١) .

(٢ ص)

٥- كتاب العصا (٢):

إن هذا الكتاب يشبه بدوره « كتاب المنازل والديار » ، ووجه الشبه يتجلى في كونه مثله يتألف من مجموعة أشعار تدور حول موضوع واحد هو « العصا » . والكتاب قد كتب للتبليغ - حسب كلام المؤلف ذاته - . لقد جمع أسامة في هذا الكتاب قصصاً ، وأساطير ، وكل الأخبار عن العصا ، ابتداء من عصا موسى ، وانتهاء بأشعاره عن عصاه ، التي اعتمد عليها في شيوخته . أما فضل أسامة في هذا الكتاب فيتركز في جمعه لكثير من الشعر ، الممزوج بالقصص والنكت والنوادر ، التي رافقتها أحياناً بعض الشروح والابحاث اللغوية . وتتخلل هذه القصص قصص عن عصر أسامة ، يعطينا فيها صوراً حية عن حياة ذلك العصر^(١) . إن أسامة - بمزجه الشعر مع القصص والنوادر والحكايات - قد أكد الصورة الواسعة الانتشار بالنسبة « للمجموعات » و « المختارات » عند العرب ، حيث أحبوا جمع المواد المتنوعة المختلفة عن مواضيع متباينة في هذه المجموعات . وربما قد ظهر لنا أسامة بكتاباته هنا ، بالنسبة للموضوع - أكثر أسالة ، ذلك لضافته أشعاره الخاصة في هذه المادة ، لكن لإيراد هذه المعلومات قد جاء عنده أيضاً بصورة جاهزة ، متشابهة مع الصور الماضية . وهنا - في « كتاب العصا » نلاحظ عملاً مراعياً مع مادة بحث أشبه ما تكون بمادة مكتب علم لا يسعى وراء روح الحياة ، ونقلها ، بقدر ما يسعى وراء جمع المادة الموزعة في الكتب . حتى إن أسامة بأشعاره

١ - زيادة التفصيل عن مضمون المخطوطة ، انظر :

كراتشكوفسكي ، إ . ي . ، مؤلفات مختارة - ح II ، ص . ٢٧٦ - ٢٨٣ ؛ ومصطفى حجازي ، المقدمة لكتاب « المنازل والديار » ، ص ٢١ .

٢ - يعطي ياقوت الجوي اسم هذا الكتاب حرفاً . ويسميه خطأ « كتاب القضاء » . وينقل عنه هذه التسمية في عصرنا أ . شاكر (انظر . ياقوت ، معجم الأدباء ، ح II ، ص ١٨١) . أما أحمد أمين فقد كتب مقالة بعنوان « العسا أم القضاء » ، حيث يوضح فيها خطأ التسمية « كتاب القضاء » . (انظر أ . أمين ، فيض الحامير ، ح ١٧ ، ص ١٤٣ - ١٤٧) .

١ - القصة عن المتصوفين والزهاد . انظر :

Derenbourg, Le vie d'Ousama, p. 528-529

التي أوردها في هذا الكتاب - والتي لم تكن فقط في مقطوعات صغيرة ، بل ، أحياناً ، في قصائد طويلة - لم يظهِر الاصلة الحقيقية ، والتجسيد الواضح ، ذلك لأن كل هذه الأشعار تنضوي تحت لواء الشعر الكلاسيكي. وينعكس في هذا الكتاب بشكل جلي واضح المعرفة والتمعن في اللغة والشعر ، تلك المعرفة ، وهذا التمعن اللذان لم يكونا ، إطلاقاً ، الصفة الضرورية الختمية لبريقد نال ثقافة المدرسة فقط كما هو الحال عند أسامة ، ذلك الشاعر المشهور بين معاصريه ، حتى وبين الذين تلوه . أسامة - هنا في هذه المعرفة ، وهذا التمعن - يعتبر واحداً من الطبقة المتوسطة ، التي تقول الشعر . وفي الواقع ، يمكن اعتبار القسم القليل من مؤلفاته يمتلك هذه الصفة : صفة الأدب المكتبي، صفة التجميع ، لكن هذا لا ينفي إطلاقاً وجود مؤلفات أخرى لأسامة كان فيها مبدعاً ، منطلقاً من واقع الحياة .

في التقديم « لكتاب العسا » أشار أسامة ، الى انه كان قد فقد « كتاب عن العسا » ، لذا أراد أن يؤلف كتاباً حول هذا الموضوع ، ويضمنه جميع ما جمعه عن « العسا » : « وولي نحواً من ستين سنة أنطلب « كتاب العسا » بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر ولا أجد من يعرفه، وكما تعذر وجوده ازددت حرصاً على طلبه ، إلى ان جداني اليأس منه على ان جمع هذا الكتاب وترجمته بكتاب العسا ، ولا أندري أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ، غير أنني قد بلغت النفس منها ، ولا ارتقب في ان مؤلف ذلك الكتاب وقع له

معنى فأجاد في تأليفه وتنميقه ، وكتابي هذا وان كان خالياً من المعلوم التي يتجمل التصنيف بها ، ويرغب اولو الفضل في طلبها ، فما يخلو من اخبار واشعار تقيّل النفوس اليها ، ويحسن موقعها بمن وقف عليها ، وقد افتتحته بذكر عصاموس ، عليه السلام ، ثم عصا سليمان بن داود ، عليها السلام ، ثم أفضت في ذكر الاخبار والاشعار التي يأتي فيها ذكر العسا ، ولا أدعي أنني أتيت على ذكر العسا فيها جمته وإنما أوردت منه ما حفظته وسميته (١) وأورد أسامة في هذا الكتاب لشعاره أيضاً كما دته .

في عام ٥٧١ / ١١٧٥ كان أسامة قد كتب القاضي الفاضل حول هذا هذا الكتاب وأورد هذه المكاتبة عماد الدين الاسفهاني في كتابه « خريدة القصر » ، ويفهم منها أن أسامة الذي كان وقتها في ديار بكر، أرسل مؤلفه إلى وزير مصر ، والفاضل أوصل له رأي الوزير عن المؤلف .

تدرف في أيامنا ثلاث مخطوطات لكتاب العسا :

آ - الاولى محفوظة في مكتبة الامبروزيان في ميلانو تحت رقم [Ambr H 125] ، وتاريخ نسخها ١٠٦٧ / ١٦٥٧ (٢) .

ب - الثانية محفوظة في ليدن تحت رقم Cod 2093 = Amin 370 ؛ تقع في ٩٤ ورقة ، وعليها تاريخ ١٠٩٤ / ١٦٨٣ ، الذي ، كما نعتقد ، ربما كان تاريخ نسخها (٣) .

١ - H. Deredqourg' Le vie d'Ousama, C. 505

٢ - حسين ، م . أسامة ، ص ٩٧ .

٣ - ك . ليدن . I . ص ٢٨٠ ؛ عن هذه المخطوطة كتبت مقالة . انظر : ZDMG 69,73

ج - الثالثة تقع في ١٢٢ ورقة ، منسوخة عام ١١٢١/١٧٠٩ ،
وعلى هذه المخطوطة كان هروبنغ درنبورغ قد اعتمد في إصدار مقدمة
المخطوطة عام ١٨٨٨ ، وترجمها لغة الفرنسية (١) .

٦- باب الآداب :

إن هذا المؤلف أيضاً مجموعة شعرية ؛ تركيبه وترتيب المادة فيه
متشابهان مع تركيب وترتيب مادة « كتاب المنازل والديار » الذي إنشا
هو نموذج عن مؤلفات ذلك العصر ، الذي يعتبر جمع المواد حسب موضوع
معين من أهم صفاتها .

قسم أسامة كتابه « باب الآداب » إلى سبعة أبواب : (١) في
الوصايا ؛ (٢) في الساسة ؛ (٣) في الكرم ؛ (٤) في الشجاعة ؛ (٥)
في الأدب بمعنى مكارم الاخلاق ، وقد قسم هذا الباب إلى خمسة عشر
فصلاً ؛ (٦) في البلاغة ؛ (٧) في الحكمة . ويورد في هذه الابواب
ما يتعلق بها ، مما جاء في القرآن ، ثم ماورد في حديث الرسول ، ثم
لماأورد من اقوال الحكماء ، وأشعار الشعراء .

إن التشابه بين « باب المرآة » (ص ٤٠٥ - ٤١٠) ، في
« باب الآداب » و « فصل بكاء الاهل والاخوان » في « كتاب المنازل
والديار » [ص ٢٧٢ وما بعد] يلقى مباشرة في عين القارئ ، ذلك

لأن أسامة يورد ، هنا وهناك ، نفس المقطوعات الشعرية ، مع نفس
التقديم لها ، في حين تورد هذه المقطوعات في المصادر الاخرى بروايات
مختلفة عن رواية أسامة ، وأحياناً باختلاف في الالفاظ ، لكن مع هذا
التشابه بين مؤلفي أسامة يوجد أيضاً اختلاف بين : فني « باب الآداب »
يورد أسامة أشعاراً في الكرم والحكمة ، وفي الفضائل الاخرى التي
يفتخر بها العرب . « فلباب الآداب » بالمقارنة مع « المنازل » : يتميز
بأهدافه التربوية والوعظية ؛ يتكلم في الكتاب على الثقة والاخلاص ، وعلى
حفظ السر وكتمانها ، وعلى التحفظ والاقتصاد في الرغبات وكبح جماحها ،
وعلى عدم السماح بالكذب أو الغضب ، وعلى الاعمال الحسنة واللطافة .
ولم يفصل أسامة البلاغة في هذا الكتاب أيضاً ، إذ يخصص فصلاً للبديع
لكن هنا ، في تمييز عن « كتاب البديع » ، يتوقف أسامة على الجوانب
التطبيقية العملية . ولعائده على ذوقه الادبي النقدي يورد أشعاراً جيدة ،
مقتبسة من أشعار الشعراء الآخرين . ويبدو لنا أسامة في هذا وكأنه
ناقد أدبي . وليس هذا بجيب ، ذلك لأن رجلاً كأسامة ، ينقد أشعاره
الخاصة ويغزلبها بعد إعادة النظر فيها ، ويجذب تلك التي أصابت نجاحاً
قليلاً ، لا يمكن أن يكون متساهلاً مع أشعار الشعراء الآخرين ، بل
سينقدها حتماً ، ويمطي المجال الواسع للذوق الادبي النقدي في حسن
الاختيار والانتقاء والاعتباس .

إن « كتاب باب الآداب » ، بصورة عامة ، ثمرة عقل أسامة
الناضج قد كتب من قبل أدب ذي خبرة كبيرة ، وتجربة ، ومعرفة
واسعة . والمواد المجموعة في الكتاب إنما تدل على اطلاع أسامة الواسع ،

وعلى حسه السليم ، وذوقه الرفيع في الاختيار .

والكتاب مخطوطتان :

أ - الاولى ضمن مجموعة كتب يعقوب صروف الخاصة ، وتقع في ٢٤٩ ورقة (٢١ دفترًا) ؛ فقدت من القسم الثاني (٦) أوراق ، كما أن الورقة الأخيرة من هذا القسم قد فقدت جزئياً بعض التعليقات والترويح . وهناك تعليق وملاحظة على المخطوطة يعود تاريخها إلى عام ١١٨٣-١١٨٤ . والمخطوطة منسوخة في حياة أسامة ، عندما كان له من العمر ٩١ عاماً ، حيث قد أهدى أسامة هذا الكتاب إلى ولده مرهف . ومكان النسخ دمشق ، والناسخ هو « غنائم المعري » (١) . لقد قام يعقوب صروف بوصف المخطوطة ، وكتب عنها عدة مقالات (٢) . وصورة المخطوطة محفوظة بدار الكتب تحت رقم (٤٧٠٠ أدب) .

ب - المخطوطة الثانية - « في دار الكتب » ، في القاهرة ، منسوخة عام ١٠٦٦ / ١٠٦٩ . والناسخ هو رجب الحريري . وبالإعتماد على هاتين المخطوطتين قام الاستاذ أحمد شاكر بإصدار الكتاب في القاهرة ، عام ١٩٣٥ (٣) .

١ - ك . دار الكتب ، الإصدار الثاني ، > 1 . ، رقم ٣٥٠ .

٢ - باب الآداب ، المقدمة ، ص ٧ - ٩ ؛ وبجولة للقطائف ، مجلد ٣٢ ، ص ٩٥٣ - ٩٦٠ ، كانون أول ، ١٩٠٧ ؛ انظر أيضاً :

مجلد ٣٣ ، نيسان ، ١٩٠٨ ، ص ٣٠٨ - ٣١٣ .

٣ - باب آداب ، لأسامة بن منقذ ، حققه أحمد شاكر ، مطبوعة الرحمانية بمصر ، ١٩٣٥ .

٧ - التأسّي والتسلي :

إن هذا الكتاب متشابه أيضاً بضمونه ومحتواه مع « كتاب المنازل والديار » ، ومع « باب المراني » في « كتاب لباب الآداب » . وللأسف فإن هذا الكتاب مفقود ، ومشار إليه عند أسامة في مؤلفه رقم (٦) (١) . ولهذا ، كنتيجة منطقية ، قد كتب قبل عام ٥٧٩ / ١١٨٣ - ١١٨٤ . هذا ما كتبه أسامة في « لباب الآداب » (ص ٤١٠) :

« قد أوردت في كتابي المترجم بكتاب (التأسّي والتسلي) من ذكر الصبر ما ورد فيه في الكتاب العزيز ، والاحاديث المرفوعة ، وشيئاً من أقوال الحكماء ، ومن الاشعار والاخبار ، ففנית عن الاطالة فيه في كتابي هذا ، فأوردت في هذا الفصل مختصراً ، ... » ؛ « مارأيت أن أخلي هذا الباب من ذكر شيء من المراني ، فذكرت هذه النبذة منها ، وقد أوردت في كتابي المترجم بكتاب « التأسّي والتسلي » من المراني والتمازي (ما غنيت به عن الاطالة ها هنا !!

٨ - نزل بتيمة الدهر :

المؤلف مفقود ، ومذكور عند ياقوت الحموي ، وابن خلكان ، وحاجي خليفة (٢) .

١ - أسامة ، لباب الآداب ، ص ٢٩٤ و ٤١٠ .

٢ - ياقوت ، معجم الأديباء ، > II ، ص ١٨٨ ؛ ابن خلكان ،

> II ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ؛ حش ، > III ، ص ٢٣٨ ،

رقم ٥١٣٦ .

٩ - السبب والسبب :

وكذلك فإن هذا الكتاب مفقود، ومشار إليه من قبل أسامة في مؤلفه رقم (٦) (١)،
وتغير ياقوت الجوزي أن أسامة كان قد أهدى الكتاب لأبيه (٢).

إن مؤلفات هذه المجموعة - (المؤلفات ذات الطابع الأدبي) -
غير متساوية القيمة لا بحجمها ، ولا بأهميتها . ثلاثة منها (النزال ،
والعصا ، ولباب الآداب) ما هي في المجموعات شعرية . ونفترض
أيضاً أن المؤلفات الأخرى المفقودة من هذه المجموعة هي مجموعات شعرية
أيضاً .

(ثانياً) - مؤلفات تحمل طابع السيرة ، والطابع
التاريخي .

١٠ - الاعتبار :

(١) لقد كان لأسامة من العمر (٩٠) عاماً عندما كتب هذا الكتاب ،
وجمع فيه مذكراته وملاحظاته عن العلاقات الحربية والسياسية التي كانت
في مصر ، والعراق ، وسورية في القرن الثاني عشر ميلادي . وبصف
بصدق وعقل وإخلاص المتبارك مع الأفرنج ، ويتناول بموضوعية الأخبار
عن معظم موضوعات كتابه (يصف مثلاً كيف أُرغم هو وزميل له على
الفرار من قبل فارس أفرنجي) . لكنه ، أحياناً ، في بعض الحوادث ،

نصف

١ - أسامة سلباب الآداب ، ص ٣٧٧ .

٢ - ياقوت ، معجم الأندلس ، ج ١١ ، ص ١٨٢ .

- وخاصة في الأخبار عن حوادث مصر ، التي يمكن أن تعطي لشخصيته
صفات سلبية - نحاول التلصص ، والبعد عن الحقائق التاريخية ، وتبرير
مواقفه الخاطئة بأسلوب غير علمي ، وغير واقعي ، مظهراً بذلك موقفاً
ذاتياً شخصياً من الأحداث (إذ إن الكثير المؤلم من هذه الأحداث كان
قد نفذ - هكذا بصيغة المجهول - حسب كلامه) . لكنه رغم هذه
المواقف السلبية ، يقول الحقيقة غالباً ، فهو يعجب بالبطولة ، مثلاً ، كما
عند العرب ، كذلك عند الأفرنج ، ويورد الكثير من الحوادث
الكنوعة في العلاقات المتبادلة بين المسلمين والأفرنج في أيام الحروب الصليبية ؛
في أوقات المعارك والقتال والحرب ، كما أنه يورد العلاقات أيام الحياة
السلبية ، ويصف بتفصيل زائد عادات وطباع وتقاليد الأفرنج ، ويتحدث
بشاعر صادقة عميقة لطيفة عندما يذكر أسرته : يقدس الأب الذي نظر
إليه أسامة « بعبون المحبة » ، لكنه واقعي في حديثه عنه - رغم ذلك -
وهو لا يتكلم بمحبة عن عمه الذي حرمه وطنه ، بل - على العكس -
يتحدث بالكبار واعتزاز عن بطولاته واتصالاته الحربية ، ولم يذكر اسمه
مرة إلا وترحم عليه .

(٢) لقد كان أسامة ، في أكثر الحالات ، شاهداً بأب العين لما يصف ،
ولذا فإن « كتاب الاعتبار » يعتبر أحد المصادر الهامة جداً عن تاريخ
الحروب الصليبية ، وعلاوة على ذلك ، فإنه أهم المصادر عن سيرة حياة
أسامة الذاتية . إن كل مصائب الحياة والأيام إنما يسبها على أسامة كون
« مدة الحياة القدرة للفر لا تتغير » ، لكن هذا الاعتقاد الكامل

بالقضاء والقدر ، الذي ربما لم يظهر في كل قصة ، لا يأخذ عند أسامة الجانب الديني ، إذ إن الناس عندما يقررون بشدة على شيء فانهم لا يبدون بحقيقة « حسب رأي أسامة . ويورد في ذكره للأفرنج دائما عبارات « لعنهم الله ... الشياطين الأفرنج ... الخ ... » . لكنه رغم هذا ، وبشكل زائد ، يقدر فيهم البطولة والشجاعة والاقدام ، ويذكر « باعجاب الصفات الحسنة التي يراها فيهم . إن رأيه في الأفرنج لم يتولد فقط نتيجة معرفته بهم في الحرب ، بل وأيام السلم أيضاً . ولهذا فان العبارات السابقة « لعنهم الله ، لعنهم الله .. ما هي إلا عبارات تقليدية ، ولا تعبر عن معتقد فكري حقيقي ، وليست موجبة إلى المسيحيين عامة . ويجب أن نفر لا ننسى أن بين عمال وموظفي السلطنة والامارة والخلافة الكثير من المسيحيين ، حتى إن أطباء ذلك العصر ، تقريباً ، كلهم مسيحيون ، وجميعهم كانوا يمشون برفاه ونعيم وسلام في بلاطات الامراء (المسلمين) ، وبصورة خاصة في فترة الصراع العنيف مع الصليبيين . وهذا تأكيد آخر لما ذهبنا إليه في « المقدمة » من أن المسيحيين عاشوا بأمان في ظل الحكم الاسلامي ، وما ادعاء الصليبيين بترحيل المسيحيين إلا ادعاء باطل كنا قد دحضناه فيما سبق .

٥٠ إن إقامة أسامة الأولى في دمشق - كما يظهر من كتاب الاعتبار - أعطته إمكانية أكبر للتعرف بشكل أقرب على الأفرنج . حتى إن أسامة أحياناً يدعو بعضهم « أصدقاء » وكأنه قد تناسى دعوته السابقة لهم « بالشياطين » . ومع هذا فانه يتحدث باستفاضة عن طابع الأفرنج ،

ويصفهم بالوحشية والقسوة ويستهكم على طيهم ، ويرى بأن إمكانية الرقي والتقدم إنما متوفرة للأفرنج الذين يمشون في الشرق فقط ، ذلك لما يكسبونه من العرب والمسلمين .

٥١ في « كتاب الاعتبار » تظهر المفارقة الواضحة بين الشرق والغرب ، وبأخذ الشرق قصب السبق في هذا المجال ، حتى لو طبقنا هذا على مستوى الافراد : أبو أسامة ، مثلاً ، محارب وصياد ، يخصص الليل لنسخ القرآن ، والكتب عامة ، وأسامة أيضاً أدب ، ومؤرخ ، ورجل دين . وأعظم فقدان عنده في حياته كان ، بالنسبة له ، فقدته مكتبته . ولم يكونا (أسامة وابوه) الوحيدين في هذا ، بل على منوالهما كانت معظم رجالات المحيط الاجتماعي الذي يمشون فيه . هذا هو « بيت المعرفة » في طرابلس يسقط في يد الصليبيين ، وها نحن نرى اميرين من امراء العرب المجاورين لطرابلس - (أبنا أسامة وعمه) يذهبان إلى طرابلس لا لشراء الخلى والمجوهرات والنساء ، بل ليفتدوا عالين شيوخين : الطليطي وابن منير . فهل يا ترى شعر الأفرنج بقيمة وخطورة المفتدين ؟ وإن شعروا بذلك فهل فهموه ؟ والجواب على هذه التساؤلات برأينا ورأي الكثير من العرب والمستشرقين هو النفي .

وبفضل « كتاب الاعتبار » نتعرف بشكل ادق وأقرب على غنوج الفارس المسلم . اننا نعرفه الآن اكثر مما كان يعرفه الماصرون له في المصور الوسطى ، واكثر مما عرفته جماهير الصليبيين . ويعتبر ف . حتي « كتاب الاعتبار » اول مسيرة ذاتية في الادب العربي . اما كراشكوفسكي

فيكتب عن هذا ما يلي : « لا يمكن اعتبار الكتاب سيرة ذاتية بالمعنى
العادي للسيرة ، بل إنه (موزايكي) جداً من أجل هذا . لكن
لا يمكن إلحاقه بأي فن آخر من فنون الأدب ، رغم أن المحور الذي
تدور حوله جميع القصص هو - حياة أسامة » (١) .

إننا ، في الآداب الأوروبية حتى القرن السادس عشر ، لا نجد
قط الأساس النظري لسيرة الذاتية بل نمثر أيضاً على أشكالها المتطورة
المتقدمة .

أما بالنسبة للأدب العربي فإن فكرة السيرة الذاتية كانت على الدوام
غريبة ، لكن يمكننا أن نمثر على ظواهر جزئية مفاجئة - طمأ - مثلاً ،
اعترافات الغزالي (مات عام ١١١١م) ، لكنها وبسرعة تدخل في مجال
علم النفس (بيسيكولوجيا) . وعمر البني ، الذي قتل أبان المؤامرة
ضد صلاح الدين في عام ١١٧٥م ، في مقدمته لكتابه عن وزراء
مصر ، يتحدث عن طفولته الخاصة . وإذا كان في الجزء الأساسي من
القصة لا يتحدث إلا عن الوزير المقصود ، فهو في المقدمات أيضاً
يكتب الحديث عن أهله وأقربائه أكثر مما يتحدث عن نفسه .

أما عند أسامة فمن المحتمل أنه قد وجد نظام معين أو فكرة
محددة لطريقة كتابة الكتاب ، هذه الطريقة التي لا تتمسك بخط معين ،

١ - كراتشوفسكي ، إ. ي . ، مقدمة كتاب الاعتبار ، الترجمة
الروسية ، ص ٣٦ .

المسألة هي أن أسامة

إنما تستطرد من مجال إلى آخر على غرار معظم المؤلفات العربية . لكنه
يبقى من الصعوبة بمكان أن يحكم فيها إذا كانت عنده فكرة معينة أم لا ،
ذلك لأن الأوراق العشرين الأولى من « كتاب الاعتبار » مقبوضة ،
والقصة الأولى تبدأ من نصف الكلمة . وربما زالت هذه الصموصة في
الحكم على طريقة وفكرة أسامة فيما لو عثرنا على الصفحات المفقودة ، ذلك
لأن من عادة أسامة - كما شاهدنا في معظم مؤلفاته المطبوعة في - مقدمته
مؤلفاته أن يشير إلى هدفه وغايته وطريقته . في الجزء الأول من « كتاب
الاعتبار » ، يلاحظ بعض التنظيم الذي يحافظ عليه أسامة ، كما يرى هذا
التنظيم في الجزء المخصص للحديث عن الصيد . أما في باقي الكتاب
فطريقة إيراد المواد تكون أحياناً منظمة ، وأحياناً كثيرة دون تنظيم .
وأشار أسامة إلى أن القصص تابع وتتوارد بارتباط فيما بينها . وهو في
انتقاله من قصة إلى أخرى يستعمل عبارات متنوعة [وذكرنا بفعلته
[سرهناك] ما فعله مالك بن الحارث الأشتر .] ، (وحدث لي مثل
هذا لما كنت ...) ، (هذه القصة تذكرني بأخرى ..) ، (وشاهدت
ما يشبه هذا) ... الخ .. [. وأحياناً يفقد خيط الاتصال . لكن
هذا الاستطراد ، بشكل عام ، وقي ، آني يعود بمدى أسامة ليصف
أيام حياته ، وحوادث عصره ، مخبراً بذلك أحفاده - (الخيط العام
للكتاب) .

إذا كانت بعض التواريخ الدقيقة ، التي يوردها أسامة ، وبعض
التفاصيل الجزئية تدل على أنه سجلها في وقت مبكر - ربما منذ أن
كان بمصر - : فإن الجزء الأساسي كان قد كتبه وهو في حصن كيفا ،

في هدوء سياسي نسي ، إذ أن التاريخ الأخير في الكتاب هو عام ١١٨٢ أي قبل وفاته بست سنوات .

إن الكتاب بأكمله قصة واحدة متكاملة متداخلة ، تكون في بعض الاماكن أكثر حيوية ، وفي بعضها الآخر أكثر هدوءاً ، لكن في كل هذا كانت القصة من الواقع ، وليست تجميعاً مكتيباً من الكتب . ولابد من الإشارة إلى أن أسامة يظهر - في قسمه الذي يندرج فيه صلاح الدين - وكأنه من ادباء ذلك العصر ، حيث يكتب محافظاً على المقابل والسجع والازدواج . أو فنياً تبقى من الكتاب فحده حديث الشاعر ، العالم ، المؤرخ . وبشكل غير عادي عند المؤلف العربي ، وعند أسامة بالذات ، يورد أسامة هنا بقلة أعلامه الخاصة ، ومقتبسات من أشعار غيره .

إذا كان « كتاب الاعتبار » بتركيبه ومادته ، تقريباً ، قريباً في الادب العربي حتى عصر أسامة على الأقل ، فإنه في صفة أخرى أيضاً لا يمكن أن يثر له على مولدٍ ومجاري : إن هذه الصفة هي الاكثار من إبراز النكتة والنوادر ؛ إن روح الفكاهة تظهر عنده في الفاظ مفصولة ، وأحياناً أخرى في جمل وتراكيب طويلة ، ومرة ثالثة في لوحات كاملة . وأحياناً تدب الإشارة المضحكة الرقيقة للحياة في كل القصص : أي دور الحديث عن الناس أم الحيوانات ؟! « فالفهد متناضل من أجل المقيدة » ، « والصقر يصطاد بواجب الخدمة » ، « والأسديان أحياناً » ، ومن ناحية أخرى : - الأمير الذي كان ، بشكل مدهش غريب ، ثقيل الفهم - « أكل أيضاً أكثر (من ثقل فهمه) » ، والبديوي « يخاف الطاعون ،

رغم أن حياته مع اهله اشبع من الطاعون » ، والجيش نهب الحصن تماماً ، كما ينهب البيزنطيون » . إن كل هذه التراكيب غاذج ساطعة عن فكاهته ونكتته . وأحياناً يورد لوحة كاملة لحادثة واقعية ، لكن يوردها بلولوب إنما يدل على حضور روح النكتة عنده : الحصار الذي أراد أن ينتهي على خراج الدرام لا يثير الفكاهة والابتسامات بدرجة أقل من الأسد الذي انقذ نفسه بالهرب من حشرة حول المسيح في أرض الدار . وتظهر أيضاً اللوحة الحية في تصويره للعالم الذي ذهب مع الأمير للصيد : فموضاً عن الصيد جلس العالم الشيخ على التلة ، واخذ يصلي لله لكي ينجي الحجلة من الصقر . إلى ما هنالك من أمثلة عديدة مثبوتة في الكتاب .

إن « كتاب الاعتبار » بأكمله يتألف من لوحات منفصلة ، تارة مضحكة ، وأخرى حزينة ، وثالثة رهيبة مرعبة . وربما يترك الكتاب في نفس القارئ لأول قراءة صورة عامة ، مفتقرة للأفكار والمجور ، لكنه بالتدريج يعطي الانطباع عن حقيقته : إنه كتاب حول فكرة موحدة تصور حياة الكاتب وعصره ، تلك الصورة المزوجة - إلى جانب كل ما قدمناه - بالدم الذي يروي ، من الواقع ، قصة عصر عصيب عاشه الكاتب .

ويمكننا أن نتحدث كثيراً أيضاً عن أبطال الكتاب ، وعن كتاب البطل لكننا نكتفي بهذا القدر من تحليلنا وكتاب الاعتبار ، « الممثل لبعض الجوانب الفنية للنثر في اواخر العصر العباسي الثاني .

إن « كتاب الاعتبار » قصة حية لمشاهد عيان ، تنعكس فيها بسطوح ظروف الحياة ، وعادات ، وطباع ذلك العصر ، ومن هذه الزاوية بالذات يمكن اعتبار الكتاب أيضاً أهم وثيقة تاريخية .

والقيمة العلمية « الاعتبار » يعطيها الباحث العربي شوقي هصف إذ يقول عنه بأنه : « مذكرات يديّة تصور لنا الفروسة العربية زمن الصليبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره ، وحياة الصليبيين أنفسهم ... إنه طريقة بما يحوي من مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره ، وهي مذكرات نفيسة وزيد من نفاسها أن أكرم ما دونها مما عما خيره بنفسه وشاهده بسنه » (١) .

إن « كتاب الاعتبار » مكتوب بلغة عربية أدبية لا تخلو من الخلل والعامية ، ويعتبر فيها على انحرافات عن اللغة العربية الكلاسيكية ، وعن القواعد ، مع وجود الالفاظ الباغية ، التي تعبر عن لهجة شامي سورية في ذلك الحين . ولا بدّ لفنّارىء من أن يستغرب امكانية العثور على مثل هذه الاخطاء اللغوية في كتاب هذا الاديب الشاعر . لكن أسامة قد قسم - من حيث لا يدري - خدمة جلّ للباحث الذي يؤرخ اللغة العربية ولهجاتها ، ويدرس تطور هذه اللهجات ، ومجالات القرب والبعد بين العامية والفصحى ، فكان أسامة بإزلاقه في كتابه الى العامية قد أعطى صورة عن لهجة العامة وقتها مما يفيد في متابعة دراسة تطور العامية .

١ - شوقي ضيف ، الترجمة الشخصية ، ص ٩٤ و ١٠٠ .

١٢٣
إن المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظة في الأوسكريال (لكنها غير موصوفة في كتالوك كلير ، ودرنبورخ) . ويتألف أصل المخطوطة من ٨٨ ورقة ، لكن (٢١) الورقة الأولى مفقودة ، وحفظ فقط ٦٧ ورقة ؛ والمخطوطة منسوخة في القرن XII / VII بخط مسوري (انظر تصوير صفحتين موجودتين في إصدار حتي) . وحسب التزييلات التي على الورقة الأخيرة من المخطوطة (توجد صورتها في إصدار حتي أيضاً) ، فإن حفيد مرهف بن أسامة قد قرأ المخطوطة على جده مرهف في عام ١٢١٣/٩١٠ ، الذي أجاز نشرها . وهذا ما يؤكد توقيع مرهف الشخصي برشته ذاتها . لكن حتى يبدى رأياً مخالفاً إذ يرى ان هذه المعلومات تتعلق بالنسخة التي نسخت عنها هذه المخطوطة المحفوظة .

إن فضل البحث واكتشاف وإصدار هذا المؤلف يعود الى هرونسغ درنبورخ ، الذي أرسلته وزارة التعليم الفرنسية في عام ١٨٨٠ الى اسبانيا للبحث عن المخطوطات العربية في مكتبة الأوسكريال ودراستها . فوجد في نفس العام المخطوطة المذكورة ، لكنه أصدرها فيما بعد ، في عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ ، وفي عام ١٨٩٤ قام بترجمتها الى اللغة الفرنسية . ثم ترجم « كتاب الاعتبار » فيها بعد الى الألمانية من قبل ج . شومان في ١٩٠٥ وأصدر مع مقدمة لدرنبورخ (٢) . وبعد ، في عام ١٩٢٢ ظهرت

1) G. Schuman, Usama ibn Munkidh memorian, Innsbruck, 1905

لكن حتي يؤكد أن هذه الترجمة قد اعتمدت كلياً على الترجمة الفرنسية ، ذلك لأن الاخطاء في الترتيبين متشابهة . انظر . حتي ، المقدمة « لكتاب الاعتبار » ، ص (ك) .

الترجمة الروسية التي قام بها م. أساليبي مع مقدمة إ. ي. كراتشكوفسكي (إن الترجمة الروسية مقسمة إلى فصول تحت عناوين خاصة^(١) . وفي عام ١٩٢٩ ظهرت الترجمة الانكليزية لحي^(٢)) ؛ وفي نفس العام (١٩٢٩) ظهرت الترجمة الانكليزية الثانية ل. ج. بوز^(٣) . وبعد عام قام . حتي ، بالاعتماد على مخطوطة الأوسكريل ، بإصدار النص العربي « كتاب الاعتبار^(٤) » .

وعدا « كتاب الاعتبار » يمكننا أن نضيف إلى هذه المجموعة ما يلي من مؤلفات أسامة :

١١ - « كتاب أخبار أهله » . ١٢ - « كتاب تاريخ أسامه » ،
فيما لو كان وجودها أو تميزها عن « كتاب الاعتبار » مؤكداً . والكتابان معروفان عندنا فقط

١ - أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، « موسكو ، ١٩٢٢ .
في عام ١٩٥٧ أصدرت الترجمة الروسية ثانية مع مقدمة ييلانيف .

2) H. Philip, An arab-Syrian... New york, 1929
3) G. Potter, Authobiography Ousama ibn Mounkidh, London, 1929

أسعد رستم في الكلية - مجلة الجامعة الأميركية ، جزء 1 ، مجلد
١٦ ، عام ١٩٢٩ ، ص ١٥١ - ١٥٢ يعطي قيمة إيجابية لترجمة حتي .
وقد سببها ترجمة بوز^(٥) التي بشكل أعني تعتمد على الإصدار الفرنسي « .
٤ - الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء (حروب وأسفار ، نكت ونوادر ،
أخبار الصيد) .

بذكرها عند ياقوت^(٦) . لكننا نفترض أنها تسميتان وصفيتان « لكتاب
الاعتبار » .

وكذلك يمكن العثور على المعلومات التاريخية لعصر أسامة في كتبه:
١٣ - « تاريخ القلاع والحصون » ، ١٤ - « أخبار النساء » ،
١٥ - « أخبار البلدان في مدة عمره » ، فيما إذا كان المؤلف هو نفس
يوجد ككتاب منفصل . ويمكن الافتراض بأن هذا المؤلف هو نفسه
« كتاب تاريخ القلاع والحصون » . وتجدر الإشارة إلى أن كل هذه
المؤلفات مفزوعة . أما فيما يتعلق بمادة « تاريخ القلاع والحصون » فلها
غير موزعة وفق النظام الجغرافي بل حسب التسلسل التاريخي ، والأخبار
مغطاة فيه (كما هو مشار في المصادر) حتى عام ١١٧٠ . ويشار إليه
عند حاجي خليفة ، وبالأعتماد عليه - عند مصطفى حجازي^(٧) كما توجد
إشارة إلى « أخبار البلدان » عند الذهبي^(٨) . ويتحدث أسامة في « أخبار
النساء » عن نساء عائلته وعصره . ونعتقد بأنه هنا إنما يوسع للمادة عن
النساء ، التي وجدت في « الاعتبار » ...

ومن الواضح ، أن أسامة أراد إيقاظ المشاعر ليس عند رجال
عصره فقط ، بل وعند نساء ذلك عصره ، ويسمو بها . فقد لعبت نساء
أسرته (: جدته ، وأخته ، وأمه ، ومريته) ، دوراً كبيراً في تربيته

١ ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ١٨٢ .

٢ - أسامة ، المنازل ، المقدمة ، ص ٥١ .

٣ - الذهبي ، سير ، ص ٦٠٢ .

أعلام النبلاء : عن يحيى بن أبي طي أنه ذكر في تاريخ الشيعة :
حدثني أبي قال :

اجتمعت به (بأسامة وط) دفعتا وكان إمامياً حسن العقيدة
الا انه كان يداري عن منصبه ويظهر التقية . وكان فيه خير وافر وكان
يرقد الشيعة ، ويوصل قراءهم ، ويطي الأشراف . وصنف كتباً منها
(التاريخ البدي) جمع فيه أسماء من شهد بدرأ من الفريقين ،
وكتاب أخبار البلدان في مدة عمره ، ، وذيل على خريدة القصر للباخري
وله ديوان كبير ومصنفات (١) .

لقد أعطى ف . حتي تسمية هذا المؤلف معرفة فقال عنه « التاريخ
البلدي » .

يكتب أسامة في المقدمة لهذا الكتاب : « انني وقت في شوال
سنة سبع وستين وخمسة على كتاب مناقب أمير المؤمنين أبي حفص عمر
تأليف الامام الزاهد ، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي فأريت - والله
التوفيق - أن أجريها من الأسانيد ، وقد كنت أوردت في كتابي
الترجم « بالتاريخ البدي » المشتمل على ذكر فضائل أهل بدر من
مناقبه وفضائله وفتوحاته وأحكامه ما فيه مقنع وكفاية ، ولكن الزيادة من

١ - الذهبي ، سير ، ص ٦٠٢ . ان مؤلف الباخري يسمى « دمية
القصر » ، إذ فقد التبس الامر على الذهبي مع « خريدة القصر »
لهامد الدين الاصفهاني (توفي في ٥٩٦ هـ ، بعد ١٢ عاماً من
وفاة أسامة » .

مظهرتاء أكثر من مرة ، الشجاعة ، والكبرياء والصمود ، ولقد اقتصر
أسامة بهذه الصفات عند « أمهات الرجال » .

ان هذا المؤلف « أخبار النساء » مذكور في المؤلفين رقم (٤) ،
و (١٠) ، وهذا يعني أنه مكتوب قبل ٥٨٦ / ١١٧٢ (١) .

ثالثاً : المؤلفات ذات الطابع التاريخي - الجيوغرافي
(التعريف بالاعلام) .

ان مؤلفات هذه المجموعة لا تمتلك قيمة كبيرة ، إذ في اثنين منها
قد قام أسامة ، بشكل موجز، بكتابة معلومات مشهورة في مؤلفات مؤلف
آخر . وتكرر في البقية معلومات وحقائق كانت قديماً معطاة من قبل
مؤلفين آخرين . كما أن أسامة يتوجه في هذه المؤلفات الى الماضي ،
مختاراً الشخصيات التي أظهرت في عصرها الحكمة والعدالة واصفاً الانتصار
في بدر ... الخ ... وفي اعتقادنا أن المؤلف قد قام بكل هذا كي
يوقظ أبناء عصره ، وبسموهم ، ويربهم على أمثال أبطال العرب
القديما .

(١٦) . (التاريخ البدي) . ان هذا المؤلف مفقود ، لكن
ذكره أسامة في كتابه رقم (١٧) ، وكنتيجة منطقية لهذا كان قد كتب
قبل عام ١١٧٢/٥٦٧ (انظر فلما بعد) . ويذكره الذهبي أيضاً في سير

١ - بكتب أسامة في « كتاب المنازل والديار » المخطوطة ، ورقة
٩٤ (T) وفي إصدار حجازي ، ص ١٦٦ عن العلاقة بين بهس
بن صهيب بن عمرو وبين صفراء .

الخير خير ، (١) .

ومخطوطة هذا الكتاب محفوظة في القاهرة في دار الكتب برقم
٢٣٣٤ تاريخ .

ويكتب النعساني بأنه وجد مخطوطة أخرى لكتاب أسامة هذا ،
فقام بنسخها ، وأرسلها إلى أحمد تيمور (٢) .

(١٨) . مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .
ومن الممكن ، أن هذا الكتاب يعود لذلك الزمن ، الذي يعود
إليه الكتاب السابق رقم (١٧) .

ويوجد في تلك المخطوطة المحفوظة في دار الكتب (٣) . وهو
اختصار لكتاب ابن الجوزي . ويكتب أسامة في مقدمة الكتاب ما يلي :

١ - م - حجازي ، مقدمة كتاب «المنازل» ، ص ٥١ .

٢ - ط . النعساني ، أسامة ، ص ٣٦-٣٥ ؛ مجلة الجمع العلمي العربي
بدمشق RAAD ، ٢٠ ، ص ٣١٣ . من المحتمل أن
مصطفى حجازي يكتب عن هذه المخطوطة التي انتقلت مع كتب
المكتبة التيمورية إلى دار الكتب منذ عام ١٩٣٢ (انظر . ك .
التيمورية ، ٢٠ ، ص ١٠٥) . وتحفظ في استنبول في مسجد
آيا صوفيا نسخة أخرى لمؤلفي أسامة (مختصر ابن الخطيب ،
ومختصر ابن عبد العزيز) ، انظر . ابن الجوزي ، ص ٣٩٤ . و

GAL , SB , I , P. 916

٣ - أ . بدوي ، الحياة الأدبية ، ص ١٧١ .

«جردته من الأسانيد ، وحذفت ما فيه من التكرار ، وكتبته بخطي ،
وكنت قد أوردت من مناقبه وورعه وحسن سيرته وزهده في كتابي
المترجم (نصيحة الرعاة) ما جاء مفرقاً في اثناء أبواب الكتاب» (١) .

١٩ . فضائل الطفلاء الراشدين .

ان هذا المؤلف مفقود ، لكن ذكره أسامة في مؤلفه رقم (٦) .

رابعاً : المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي

لقد كتب أسامة في هذا الاتجاه كتابه « نصيحة الرعاة » ، الذي نعطي
رقم (٢٠) ، ومن المتجهل أن أسامة كان قد كتبه لواحد من الوزراء
أو الأمراء في ذلك العصر كما هي عادة معظم معاصريه . ومن الممكن أن
« نصيحة الرعاة » يشابه بالمتوى والمضمون مع باب الآداب (تقصد باب
السياسة) ، لكنه يفوقه بعدد الصفحات .

ان هذا العمل الأدبي مفقود ويسذكر من قبل أسامة في كتابه
رقم (١٨) ، ولذا نتأكد أنه كتب قبل عام ٥٦٧ / ١١٧٢ .

وينسب مختلفة يمكن أن تلحق إلى هذه المجموعة الوعظية الارشادية
التربوية بعض المواد المبثوثة في مؤلفات أسامة المختلفة ، وبصورة خاصة في
مؤلفات المجموعة الثالثة وفي « الاعتبار » .

ان المؤلفات المذكورة فيما يلي أيضاً منسوبة إلى أسامة . لكننا لا

١ - م . حجازي ، المقدمة « لكتاب المنازل » ، ص ٥١ .

٢ - أسامة لباب الآداب ، ص ١٧٣ .

جداً بالفئة اللاتجاه الأدبي لأسامة . إذ كان قد كتب في هذه المرحلة معظم مؤلفاته : « مختصر مناقب ابن الخطاب » ، و« مختصر مناقب ابن عبد العزيز » ، « المنازل » ، « والعصا » ، « والقلاع والحصون » ، « والديوان » ، « والاعتبار » ، « ولباب الآداب » .

ومن المحتمل أنه يمكن أن نلحق كتاب « الشيب والشباب » بهذه الحقة ، وكذلك « كتاب التأسي والتعلي » ، وتفترض هذا ذلك لأنه قد ضمن « ديوانه » مجموعة أشعار ، حيث يكي فيها فتوته وشبابه ، وكذلك يصف حنينه إلى وطنه ومواطنيه في مراحل حياته في الغربة .

إن بعض مؤلفات أسامة يتجه إلى الماضي^(١) ، وبعضها الآخر يعكس أحداث عصره وحياته الخاصة ، والقسم الثالث يظهر وكأنه اختصار لأعمال مؤلفين آخرين سابقين . أما الشهرة الأدبية الكبيرة لأسامة فتكمن في مؤلفاته : « الاعتبار » حيث يعكس بوضوح عصره وحياته الخاصة ، « والديوان » بأشعاره ، و« لباب الآداب » ، بمادته الأدبية المختصرة ، و« كتاب المنازل » الصادر الأول والأهم لدراسة تطور موضوع الوطن في الشعر العربي .

تتمكن من نسبتها إلى أية مجموعة من المجموعات المشار إليها فها سبق ، ذلك لأنها مفقودة ، ونحن لا نعرف عنها إلا الإشارات إليها في بعض المصادر .

(٢١) . « النوم والاحلام » يشار إليه في مؤلف أسامة رقم (١٠) (١) .

(٢٢) . « أزهار الانهار » . مذكور عند حاجي خليفة (٢) وبالأعتد عليه عند حتي (٣) .

(٢٣) . « التجانس الرميحة والماسعي النجمة » . يذكر عند حاجي خليفة (٤) ، وبالأستناد إليه عند دربنورغ (٥) وحتى .

في نهاية بحثنا ودراستنا للأثر الأدبية لأسامة يمكن أن ننسب كتاب البديع إلى مراحل حياته الأولى ، لكن لا يمكننا أن ننسب أي مؤلف لأسامة إلى مرحلة إقامته الأولى بدمشق ، وكذلك مصر ، ذلك لأن حياته في هذين القطرين كانت مكرسة للحياة السياسية ، ومن الممكن أنه كتب في هذه الحقة بعض المؤلفات الشخصية ، أو مسودات المؤلفات ، لكنها ، ربما ، قد فقدت مع مكتبته .

إن الخمس عشرة سنة الأخيرة (١١٧٠ - ١١٨٤) تظهر خصبة

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٨٦ .

٢ - ح . خ ، ج ١ ، ص ٢٦١ ، رقم ٥٤٤ .

٣ - - أسامة الاعتبار ، إصدار حتي ، ص (د) .

٤ - ح . خ . ج ١١ ، ص ١٩١ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الجزء الثاني

موضوع الوطن في الشعر العربي

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الدراسة العلمية لكتاب أسامة « المنازل والديار » تعتبر أساساً للدراسة ظهور وتطور مفهوم الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، ذلك لكونه مجموعة أشعار للشعراء القدماء ، ولعاصري أسامة ، مع أشعاره الخاصة ، حيث تشيع في هذه الأشعار كلها ألحان فقدان الوطن والمواطنين [الأهل] .

إن المادة الشعرية المجموعة من قبل أسامة في هذا الكتاب موزعة في الفصول حسب الألفاظ التي اتخذها أسامة عناوين هذه الفصول في التسمية التالية : التبعة اللفظية لا المعنوية ، التبعة اللفظية التي تحدد الشكل الظاهري لمكان الإقامة والوطن والربع والمغنى .. السخ ، وتجميع الأشعار في فصول إنما يخضع فقط للفظلة ، أي ، بتعبير آخر : إن ورود لفظة « ربع » ، مثلاً ، في أي نص شعري يحدد إيرادها من قبل أسامة تحت عنوان [فصل في ذكر الربع] ، وورود كلمة « مغنى » يحدد جمع الشعر في « فصل في ذكر المغنى » ، بغض النظر عن الدلالة المعنوية لهذه اللفظة ، وتطورها ، وبأي معنى استعملت في هذه المرحلة أو تلك ، وبكلمة أخرى ، تجمع الأشعار في فصول معينة حسب التبعة اللفظية ، دون الاهتمام بالدلول التاريخي لهذه اللفظة ، وتطور هذا المدلول .

أما في بحثنا العلمي فكان لا بد لنا من إعادة تجميع المادة الشعرية في « كتاب المنازل والديار » حسب محتوى الأشعار ، ودلالاتها اللغوية تاريخياً (الشيء الذي لم يتبعه أسامة إطلاقاً) ، مع تحليل أوجه الدلالات

المعنوية للصورة الشعرية ، واللفظية واستمالاتها حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية (الزمنية) . وفي تحليلنا ودراستنا لهذه الأشعار إننا ندرسها وتحللها حسب تنابها التاريخي الزمني ، حسب ظهورها . وتنبأ لنا ذلك بترتيبها تاريخياً حسب حياة قائلها من الشعراء ، مما أعطانا الفرصة الثمينة لدراستنا التطورية هذه ، كما أننا بنسب محددة ، أخذنا بعين الاعتبار أيضاً مكان حياة هؤلاء الشعراء ، بقدر ما كان هذا ممكناً لنا .

لقد ظهر عالم الارتباطات الانسانية في الشعر العربي ، قبل كل شيء ، عبر التعبير عن أماكن سكن محددة [خيمة ، بيت] ، ثم بالتعبير عن مناطق عيش أوسع نسبياً [معنى ، ربيع] [أطلال وآثار البيوت ، ومواقف القبيلة ، تلك المواقف المهدمة ، الدراسة] ، وأحياناً فقط في صورة أعم وأشمل (البلد ، والوطن ، والأرض) .

كل هذه الاشاعات المكانية تظهر في علاقة وثيقة مع المجموعات البشرية والانسانية (أسرة ، وعائلة [آل] ، وفخذ . و قبيلة ، وتجمع بشري ، ومحيط الاصدقاء ، والاقرباء ، أو الجيران] . وسندرس ما أثرنا اليه من العلاقات المكانية ، والارتباطات الانسانية بنفس هذا الترتيب الذي أشرنا اليه فيما سبق ، لنوضح صور تعبير الشعر العربي عنها ، مع دراسة مشاعر الألم والحزن المرتبطة بها جميعها ، معتمدين في دراستنا على مجموعة كبيرة من المصادر الشعرية الأخرى ، إلى جانب « كتاب المنازل والديار » .

الفصل الأول

الوطن في الشعر العربي

لقد عبر عن « الوطن » في الشعر العربي بالفاظ ومصطلحات عدة ، تختلف حسب مساحة دلالاتها المكانية ، وسنبحثها حسب الترتيب التالي مراعين التوسع المكاني لدولاتها :

- ١ - أماكن السكن : [المنزل والدار والبيت] .
- ٢ - المعنى الأوسع لمكان السكن : [الغنم والربوع] .
- ٣ - بقايا أماكن السكن : [الأطلال والدمع والآثار والرسوم .. الخ] .
- ٤ - معنى الوطن الواسع : [المدينة والوطن والبلد والأرض] .

١ - أماكن السكن .

لتعبير عن أماكن السكن في الشعر العربي كانت قد استعملت مصطلحات (الفاظ) ترجع بمعناها الأصلي إلى المجتمع البدوي ، ومشتقة ، كقاعدة عامة ، من أفعال الحركة والانتقال . وهذه الألفاظ هي :

آ - « المنزل » : مفرد جمعه « منازل » ، ومعناه موضع النزول ، ومثله « المنزلة » . قال اللحياني : (منزلنا بموضع كذا) : يعني (موضع نزولنا) . وهو اسم مكان مأخوذ من الفعل الثلاثي الصحيح السالم (نَزَلَ) ، على وزن فعل - يَفْعِل .

ولهذا سمي (البيت) « منزلاً » لأنه موضع نزول العائلة ، ومنه الفعل ذو الاشتقاق الثنائي (نَزَلَ القوم) أي أنزلهم المنازل ، (ونَزَلَ فلان غيره) : أي قدّم لها المنازل . ونزلهم ، ونزل عليهم ، ونزل بهم ، أي (حل) .

(والشُرُؤول والمنزَل) : الحلول : (والنزِيل) : الضيف ، على وزن (فَعِيل) بمعنى (فاعِل) . كما هو الحال في (كريم) : القائم بفعل الكرم . (والمنزول) : البيت الذي يستضيف فيه المضيف ضيوفه . وهذه تسمية مستعملة حتى الآن في القرى التي تحافظ على العادات البدوية . ومنه (النَزَال) في الحرب : أن يتنازل الفريقان ، أو أن ينزلا عن لُبها إلى خيلها للبارزة ، وقد تنازلا : أي تداعوا لتنازل . ومنه (النَزَل) القوم التنازلون بعضهم على بعض . يقال : ما وجدتُ عندكم نَزْلاً . ومكان

(نَزَلَ) أي ينزل فيه كثيراً على وزن (فَعِيل) بمعنى مفعول - منزل^(١) .

ب - (الدار) ، مفرد جمعه (ديار) ، وتدلُّ على قلة العدد خلافاً لادئور وأدور التي تدلُّ على كثرة العدد^(٢) . (والدار) ، مكان النزول ؛ منزل ، أو خيمة ، أو (كل موضع حل به القوم وإن لم يكن فيه أبنية^(٣) . وسميت الدار ، (داراً) لدورها على سكانها ، كما سمي الحائط حائطاً لاحتاطه على ما يحويه . وهي لهذا من فعل (دار - يدور) لكثرة حركة الناس فيها^(٤) . ومجازاً فإن (الدار) تعني (القبيلة) ، ومنه فسر قول الرسول : (ما بقيت (دار) إلا بني فيها مسجد) ، أي ما بقيت (قبيلة) .

و (الدور) هي المساكن المكونة والمحال . وتأتي أحياناً (الدارة) ، بمعنى (الدار) ، وقال بعضهم بأنها أخص من (الدار) ، كما أنها أيضاً أرض سهلة تنبت فيها بعض النباتات ، ومنها (دارات العرب)

١ - لسان العرب ، ج ٨ ، XIII ، ص ١٧٩ ؛ تاج المروس ، ج ٨ .

VIII ، ص ١٣٣ .

٢ - لسان العرب ، ج ٨ ، VII ، ص ٣٨١ .

٣ - المنازل ، ص ٥٥ ، يقتبس أسامة هذه الجملة من الخليل .

٤ - لسان العرب ، ج ٨ ، VII ، ص ٣٨١ وفيها بعد ، وحسب كلام

سيويه فإن « الدار » تعني أحياناً « البلد » ، وفي حالات أخرى

بمعنى « الصنم » وبه سمي عبد الدار بن قصي بن كلاب ،

تاج المروس ، ج ٨ ، III ، ٢١٣ .

وزيد عددها عن ١١٠ ، وربما سميت هذه المواضع (دارات) لأنها قابلة للنزول والسكن .

ج - (البيت) اسم مفرد جمعه (بيوت) وتعني خيمة أو دار أو قصر . وقيل (الخباء) : بيت صغير يعمل من وبر أو صوف أو شعره ويكون على عمودين أو ثلاثة فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت يكون على ستة أعمدة . (والبيت) تعني (الشرف) ، أو (الشريف) أو (القبر) . مثلاً : (بيت القبيلة) شرفها ، أي تلك الأسرة التي تحسب رمز شرف القبيلة (يقال : (بيت) - (شرف) قبيلة تمسيم في بني حنظلة ، يعني شرفها في آل حنظلة) . و (بيوتات) جمع الجمع من (بيت) ^(١) . (والبيت) من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلة . ومن المجاز (بيت) تعني (التزويج) ^(٢) ويقال (بات فلان أي تزوج)

(١) لسان العرب ، ج . ١١ ، ص ٣١٧ ؛ تاج العروس ، ج . ١ ، ص ٥٢٩ .

(٢) (البيت) : السطر من الشعر سمي (بيتاً) ذلك لانه يضم الكلمات كما يضم البيت سكنانه ، ولانه كلام جمع منظوماً فصار (كبيت) جمع من شق ورواق وعهد . ولذا سموا مقطعاته اسباباً وأوتاداً على التشبيه لها بأسباب البيت وأتاده .

ويجب ان نشير الى ان (فصل البيت) في (كتاب المنازل والديار) من صفحة (٣٥٥ - ٤٠٩) ، منها ٢٦ صفحة اي من (٣٥٥ - ٣٨١) استطراد لا علاقة له بهدف الفصل اذ يتحدث عن قصة بناء الكعبة والروايات في ذلك والآيات القرآنية التي تحتوي لفظة (البيت) على الاختلاف في تفسيرها .. الخ ..

وبني فلان على امرأته (بيتاً) اذا عرس بها وأدخلها بيتاً مضروباً ونقل اليه ما يحتاجونه من آلة وفرش وغيره .

إن معظم الايات والمفردات الواردة في فصول (المنازل والديار والبيوت) - كما ألقينا سابقاً - مطالع قصائد منتشرة على عصور الأدب العربي حتى عصر أسامة . وهي مطالع ترجع في اصلها واستعملها الى الجاهلية . ودراسة متفحصه لهذه المطالع نجعلنا نؤكد - خلافاً للآراء المتباينة التي ستعرض لها فيما بعد - ان الوقوف على الاطلال عامة ، وذكر المنازل والديار خاصة إنما املتت حياة البدوي ، فهو ثمرة البيئة المتنقلة التي يجيهاها العرب البدون ، او ثمرة التقب بين الاعطاف الخصبة في الربيع (الارتباع) ، والعودة بعد ذلك إلى منازل القبيلة الأصلية في القرى او اشباه القرى ، والتي لم تكن قصوراً منيفة ، او منازل واسعة غناء ، بل كان معظمها خياماً بأوتادها ودعاماتها ولثافها . من هذه الظاهرة الاجتماعية في التجاور والائتلاف أيام الربيع والصيف ، والابتعاد والافتراق أيام الفصول الاخرى ، كانت هذه الظاهرة في الوقوف على الاطلال ، والبكاء عليها والحنين اليها واستثارة الذكريات والتوسيم في بحالات التعبير الشمسوري ، وهي ظاهرة اتخذت حيزاً من الشعر الجاهلي وبصورة خاصة من شعر الغزل .

إذ وقف الشاعر حيث كان يقف سابقاً ، وشهد بقايا منازل حبيته ومنازله وأثرها ورسومها وتعرف اليها من وراء هذه الاثر الشئيلة ، وبكى عندها حيث لم يقو إلا على البكاء ، وتزمر حيث كانت وسيلته الاخيرة هي الغناء . إن ندماي هذه الافكار بين واضح لأن المعاني يعود بعضها إلى بعض ، فلاستغراق

في تأمل الاطلال والمنازل يقود الى ذكر ماضيها ومقارنته بالحاضر الذي آلت اليه .

إثر مدلولات ومعاني المصطلحات (الالفاظ) التي تعني اماكن السكن واطلالها وآثارها ، واستخدام هذه المصطلحات ، ان هذا كله بشكل رئيسي واحد عند الشعراء الجاهليين . فالشاعر يذكر ويكيي هذه المنازل ، منازلها ومنازل احبته ، التي كان قد غادرها في بعض فصول السنة طلباً للسكك والمرعى ، محدثاً عن صعوبة تعرفه عليها ، بصفتها ويقف عند بعض معالها ، ثم يتسلى ، ويتعزى ؛ او يبأس ، ويكيي . هذا هو الشعر الوجداني ، شعر التغزل والالم والبكاء والحزن . وبض النظر عن انه تفصلنا عن هؤلاء الشعراء - شعراء الجاهلية - قرون عدة (حوالي ١٥ قرناً) ، وما راقها من تطورات ثقافية وحضارية ، فاننا عندما نتعرف على بعض الفاظهم الجاهلية الصعبة الفهم علينا نعيش معهم في جو مشاعرهم التي توظف فيها المشاعر وتنبه الاحساسات ، وتنقلنا الى ذلك الجو النفسي الانساني اللاتقي في آن واحد ، الذي عاش فيه اولئك الشعراء وإن كل هذا التأثير إنما يصبح ممكنًا بفضل الشحنات العاطفية ، والمشاعر المشتركة بين الناس لفظة بها هذه الاشعار . إن هذه الاشعار إنما تعبر عن مشاعر انسانية ، وتنعكس لا عواطف مجموعة معينة من البشر بل جميع المشاعر المشتركة بين جميع الناس : حب وحنين وألم للفراق ، وتأس ، وحسرة الخ .. ورغم أن الشاعر في شعره إنما يعبر عن حنينه هو ، وحزنه هو ، ومعاناته هو ، تلك التي ترتبط بأرض معينة ، أو بأماكن سكن معروفة ، رغم هذا فإن هذه المشاعر تلقى عندنا صدى وتأثرًا ،

عواطفًا وتأثيرًا ؛ إنما نحس مع الشاعر تأثره ، ونألم معه لحزنه ومعاناته ، تنتقل هاتئين معه ، وتلمس حنينه الى المنازل المهجورة التي درست وعفت ولم تبق منها إلا الاناثي والاثار ، (هذا هو وطن الشاعر الجاهلي) .

في المرحلة الاولى بعد ظهور الاسلام ، في عهد الرسول والخلفاء ضف الشعر لاسباب عدة : موقف الشعراء المعادي للاسلام ، وموقف الاسلام من الشعراء انفسهم ، والفتوحات الاسلامية التي شغلت على المسلمين جميع حياتهم الداخلية النفسية والخارجية ، فكان شعر صدر الاسلام هو (النهاية الضعيفة الدالة والمتحرفة للشعر الجاهلي) (١) . فقلصت بعض أقسام القصيدة ، وبصورة خاصة هذه المطالع المشتملة على تذكر المنازل ومواقف القبيلة والبكاء على بقاياها . كل هذا أثر على نهج القصيدة المقدس الثابت المشهور في الشعر الجاهلي وبخاصة بصوره مثلي في (المعلقات) مما ادى الى خلخلة بناء القصيدة المعروفة في الجاهلية .

ان دراسة تطورية لشعر حسبان بن ثابت الذي قال الشعر في الجاهلية وفي صدر الاسلام تؤكد هذه الحقيقة . ومن الملاحظ أن أسامة (فصل المنازل) مثلاً لم يورد شعراً لاي شاعر عاش في صدر الاسلام أو مخضرم .

ثم ان الشعر بشكل عام يضوي ويضمز في عهد الخلفاء الراشدين . وأثر الاسلام على الشعر بمجذوءه وصورته (الأفكار والضيافة) في هذه الحقبة لم يكن قوياً ، اللهم الا التأثير في مادة وصياغة شعراء الرسول

بالذات ، ذلك لأثر الرسول عليهم لكونهم المتكلمين باسم الدعوة الجديدة^(١) .

وفي عصر بني أمية آلت حركة الفتح إلى شيء من الركود ، وآل أمر الجيوش المتدفقة إلى شيء من الهدوء ، وبدأت الجماعات المهاجرة في انعقاد الجيش تأخذ مكانها في هذه الأرض ، وتأخذ في حياة الاستقرار في الأماكن المفتوحة الجديدة . ولقد شغل الانتقال من تدفق الهجرة والتنقل والاختلاط إلى الهدوء والاستيطان والتمركز والحياة المستقرة شغل هذا الانتقال دوراً هاماً في ظهور علاقة جديدة لهؤلاء المهاجرين (المستوطنين) مع الأرض وأدى إلى اخلاصهم لها بولوتعلقيهم بها ودفاعهم عنها ، وإلى خصومتهم أحياناً عليها وحولها . وتغيرت طبيعة الحياة خارج حدود الجزيرة العربية . فاقبلت المعسكرات إلى أن تكون مدناً ، واقلب الفاتحون البداة إلى سكان مدن بتملكوت الأرض ، ومحدونها فيما بينهم ، ففقدوا سكان مدن وزراعاً ، يعمرون المنازل ويعيشون عيشة استقرار نسبية في هذه الاوطان الجديدة. التطور العاصف في حياة الجماعة العربية يرافقه تطور أقرب إلى التنظيم ، وتقصية حياة الخلافة الجديدة . فبعضهم شغل بالاستقرار والتمركز وترك أمر الحرب على عاتق جماعة خاصة محددة ، فوجد السكان الهاربون ، وأخذ الجميع الاسلامي طريقه إلى حياة السلم والاستقرار .

في هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والحياتية الجديدة بدأ

العرب يتجهون لماضيهم لحياتهم ، وخاصة إلى شعرهم في الماضي ، فبدأوا يذكرونه ويتذكرونه ويروونه لحياتهم الجديدة حتى وبدؤوا يقلدون ، في استعمال المطالع الغزالية والبكاء على الاطلال .

واستجابة للقانون الفني للقصاص أخذ الشعراء العرب في هذه الفترة يبدؤ قصائدهم بذكر المنازل والبكاء عليها وعلى أطلالها. ولقد بلغ فيهم الأمر في تقليد هذا الماضي إلى درجة أنهم استعملوا بعض تلك المطالع حرفياً. فجزر والأخطل مثلاً قد اختارا مطعماً لقصيدتهما ، ذلك المطالع الذي استخدمه الشاعر الجاهلي ابن الأبرص^(١) . وهناك شعراء آخرون كانوا قد زادوا في عدد أبيات

١ - نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٨ ، ديوان جرير ، ص ٥٩٦ .

قال جرير :

لمن الديار بركة الروحان

قال الأخطل :

لمن الديار بركة الروحان

وقال عبيد بن الأبرص :

لمن الديار بحايل فوعل

درسـت وغيرها ستون خوال

(1) Binggren, H., Studies in Arabian Fatalism, 1955, p.127.

التقليد الى عدة أبيات ، كما فعل الكمي ، مقلداً امرأ القيس (١) .
 وأنه لمن الخطأ اعتبار هذا التقليد فقط ضرباً من عبادة القديم ، ذلك
 لأن الشاعر في اقتباسه مطلع القصيدة يقتبس أيضاً جزءاً يسيراً من شهرة
 الشاعر الجاهلي . وهو بهذا في ذات الوقت يستجلب انتباه القارىء
 والسامع . هذا يشبه تماماً انتباهنا الراوند وتركيزنا في وقتنا الحالي حتي
 ورغبة رائده عندما نستمع الى خطيب أو فنان يقلد ويتقمص بطلا
 معروفاً أو خطيباً بارعاً أو مغنياً مشهوراً للناس .

من المشهور أنه في عصر الخلافة العباسية حدثت تغيرات أساسية
 في الحياة الثقافية . ففسي حالات الحرة ينشأ لعبت الحرة في رؤوس

١ - الوساطة ، ص ١٩١ . قال امرؤ القيس :

قف بالديار وقوف حابس وتأن إنك غير آيس
 ماذا عليك من الوقوف بهامد الطللين دارس
 لعبت بهن العاصفا ت الرائحات من الروامس
 وقال الكمي :

قف بالديار وقوف زائر وتأن إنك غير صاغر
 ماذا عليك من الوقوف ف بهامد الطللين دائر
 درجت عليها النادر ت الرائحات من الأعاصر

طائفة من التحررين الشعراء الذين ، في جو من الحرية ، أخذوا يناقشون
 الحياة الادبية ، وبصورة خاصة موضوع المطلاع ، واتخذ رأيهم ، صورة
 شعرية في قول أحد أفراد هذه المجموعة التحررة :

لأحسن من يد تحاربها القطا ومن جبلي طي ووصفكم اسلما
 تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مثقلة في وجه صاحبه ترعى

لقد وقف الشعراء المحدثون ضد الأوصاف التقليدية ، والمطلع
 النزلية ، معلنين أنها غير واجبة ، بل واتباعها خطأ . لكن رغم هذا
 فانهم هم أحياناً قد استخدموا مثل هذه المطلاع والأوصاف (ربما ليبرهنوا
 على امكانيتهم الشعرية في هذا المجال) ، لكنهم لم يكونوا في هذا مقلدين
 تقليداً أعمى ، فقد صيغوا هذه المطلاع بخيوط جديدة وبظلال الحضارة
 الحديثة . ولقد تلقف أبو نواس هذه الأساليب الجديدة ، وترأس الاتجاه
 المحدث والمذهب الفني الذي أخذ بناسل من أجله ، حتى نسب اليه .
 وتلخص هذا المذهب في استهجان المقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليه
 من وقوف على ديار الاحة أو تعرض للصعراء أو تشييب بالمرأة . ان
 أسباب ظهور هذا الاتجاه الشعري الفني الجديد يجب البحث عنها في ظروف
 الحياة التنيرة بفضل الحضارة الجديدة عند العرب . ففي المدينة يعيش
 الشاعر على بعد بعض الخطوات من تمدوحه ، ولذا كان من المضحك ان
 يعود الشاعر الى الصعراء ، والى منازلها وخيمها لوصفها كمقدمة لمدح
 تمدوح يعيش حياة الاستقرار في قصور منيعة ، تجتمع فيها كل المظاهر التي

١ - الأغاني ، ج ١٢ ، ص ٩٨ (التقديم) .

ظهرت بفضل الحضارة وتمازج الثقافات .

مالي بدار خلت من أهلها شغل ولاشجاني لها شخص ولا طلل
ولارسوم ولا أبكي لمنزلة للأهل عنها وللجيران منتقل (١)

ولم يركب للدوح ناقة ولا جملا فلا حاجة له لوصفها ، بل يازم الواقع فيتحدث عما امتطاه حقيقة إلى ممدوحه ، إن هذا ما فعله حين مدح الفضل البرمكي ، فهو لا يتعلق بالعناصر التقليدية في الوصف ، لكنه يشير إلى عنصر مثير جديد - إلى الاحذية الرقيقة الناعمة :

إليك أبا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الحضري الملسنا

وبغض النظر عن كل المواقف الادبية المعارضة لابي نواس ضد المطالع النزلية ، فانه نفسه يستعمل هذه المطالع في بعض قصائده ، كما تتطلب ذلك المناسبات والظروف . فاذا ما مدح رجلا بخافه وبهايه ويحترمه كهارون الرشيد مثلاً ، سار على خطا الشعراء القدماء ، مستعملاً هذه المطالع النزلية التي وقف ضدها ، ذلك لمعرفة بأن هارون الرشيد لا يروقه الانحراف عن الماديات المادية ، وللهجوم عليها ، وربما قد يعاقب على هذا الهجوم والانحراف .

ويعلن أبو نواس بصراحة أنه يذكر الاطلاع والمزلة القفر نخوفه من الخليفة :

أعبر شعرك الأطلال والمنزل الفقرا فقد طالما أزرى بها نعتك الجرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتي مركبا وعرا

١ - ديوان أبي نواس ، ص ٣٢٢ .

ان الاسباب التي جعلت أبا نواس يقف ضد النعج التقليدي في مطلع القصيدة وما ينطوي عليه ، ويستمر رئاسة الدعوة لتأكيد هذا الاتجاه الفني الجديد ، ان هذه الاسباب يعزوها الكفراوي الى ظروف حياة أبي نواس الشخصية ، وإلى عداوته للعرب بشكل عام ، وإلى عرب الشمال بصورة خاصة (اذ رأى أبو نواس في التفتي تمجيدها وذكرها لعرب الشمال وبأديتهم وآثارهم وتقاليدهم فأعلنها ثورة على الامرين معا) (٢) . لكن هذا السبب برأينا ليس السبب الوحيد ، اذ لم يكن من الواقعية ومن الطبيعي التحدث عن الصحاري والظلم ، كأنها بيوت الشاعر ، من قبل انسان لم يعيش فيها ، انما يعيش في قصور الامراء والخلفاء . ان أبا نواس يبدأ إحدى قصائده بكاء مزاح على نوار (أسم امرأة) ودلارها مشيرا الى أنها قد ابقت فينا (هذه الديار) مشاعر الشجو والحزن ، في الوقت الذي هن خاليات منه . :

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجواهن منه عوار (٣)

أبو نواس لا يعرف البادية ، ولا صلة بينه وبينها فلماذا اذن يبكي لها أو عليها ؟ ! .

١ - الكفراوي ، ص ٧٣ - ٧٤ .

٢ - ديوان أبي نواس ، ص ٧٢ .

لقد سلب أبو نواس الانوار على الطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة ، وشكك في قداستها ، فاتحاً بهذا الطريق لكل ما أصابها من تطور وتغير ، مؤثراً بالشعراء في هذا من قريب أو بعيد . ومن المحتمل أن ظهور مذهب أبي نواس وتوطده إنما ساعد عليه الجو الأدبي العام في عصره . هذا ما يؤكدّه الخبـير الذي يورد ابن خـلكان^(١) عن أبي الغضائرية في مدحه لعمرو بن العلاء حيث قال :

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالاً
فاذا وردن بنا وردن مخففة وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

فمنذما أعطاه عمرو [٧٠٠٠] درهم على هذه القصيدة ، حسد الشعراء الآخرون أبا الغضائرية ، وبخاصة مروان بن حفص فجعمهم ابن الغلاء وقال : يا معشر الشعراء ! عجباً لكم ، ما أشد حسد بعضكم بعضاً ، إن أحدكم بأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبها بصدقته بخمسين بيتاً فما يلغنا حتى تذهب لذادة مدحه وروث شعره أما أبو الغضائرية فقد شبها بآيات قليلة ثم قال : « إن المطايا ... » [البيتين السابقين] .

إن المراحل اللاحقة تشترك أيضاً باختلافها وتغيرها . فالشعراء في معظم الحالات - لم يذكروا دياراً موهومة ، لا أساس لها ، ولا ارتباط بينها وبين الشاعر ، بل وصفوا بذكوراً قريبة من نفوسهم ومشاعرهم ،

١ - ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

تملاً عليهم ذواتهم لما حل بها وأصابها ، وأصاب أهلها من المصائب وهول الزمان . إنها أشعار مملوءة بالحزن والالام والحسرة والشوق والحنين ، والشاعر الحقيقية الصادقة . وهذا ما زاء من صدق عاطفة ، وتعبير واقعي في شعر آل منقذ ، وبخاصة في شعر أسامة ، ذلك لأن الديار شيئاً في أنفسهم ، لوغتهم ، ونفست حياتهم .

الخيمة :

في مطالع القصائد ، وبشكل مفصل ، توصف أماكن سكن العرب أي : البيت البدوي - الخيمة الطليعة البسيطة القاسية ، بصحرائها الواسعة الترابية ، الخرومة من الغابات والجبال والبحار ، بمجاث رملها التي تحتضن أسرار أبنائها ، الذين يعيشون فيها ؛ بسائها الصافية العميقة المفتوحة ؛ الشمس نهاراً ، والقمر ليلاً ؛ هذه الطليعة ساهمت بشكل فعال في تشكيل أخلاق البدوي وطباعه وفي طبيعة حياته . في هذه الطليعة ماكان بيت البدوي أكثر من خيمة تقرب في عرض الصحراء ، وتتألف هذه الخيمة - كما وصفت في أشعار الجاهليين^(١) - من عدد من الأعمدة غير

١ - انظر : المنازل ، أشعار المرقش الأكبر ، ص ٣٣٧ ؛ الديباني ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ ، ديوان الديباني ، ص ١٠٩ ، ٣٣ [القاهرة] ؛ الريح ابن أبي الحقيق ، ص ٢٩٣ ؛ عنترة ، ص ٣٥١ ، ديوان عنترة ، ص ١٤٢ ؛ ابن الدميني ، ص ٣١٨ ؛ أبو داود الأديبي ، ص ٢٨٢ ؛ الجعدي ، ص ٢٩٣ ، ديوان الجعدي ، ص ١٠٦ ؛ زهير ، ص ٩١ ، وشرح ديوان زهير ، ٢١٩ .

العالية ، المنشورة عليها قطعة من قاش ، أو مجبوكة عليها قطعة من القش والأغصان اليابسة ، المأخوذة من التأم [بنت صيف تتخذ منه الحصر ، وكأقوا يلقونه على أعواد الخيمة ليستظلوا به] . وبالقرب من هذا المنزل - الخيمة تقع الساقية التي تحيط بالخيمة من جميع جهاتها ، وبالقرب من الخيمة أيضاً توضع أثافي القدر لطبخ وتيمنة الطعام ، وتوجد الأواني التي تربط إليها الخيول والحيوانات . والبدي بلتحاله من مكان إلى آخر يأخذ معه « بيته » - خيمة ، تاركا مكانها فقط « الآل : [العود ذا الشقين الموضوع عليه عود آخر والمنشور عليها التأم - والأوتاد [الأواني] ، التي كان يربط إليها حيواناته ، ويشد إليها جبال الخيمة ، والعمود مع قطعة القش المنشورة عليه . وإلى جانب كل هذا يترك الأثافي بحجارتها الثلاثة ، السوداء الضاربة إلى البنية ، التي تشبه حمامات جائية : والزباد الخامد المفبر ، الذي تلب ، واسود من أثر المطر والزمان ، وأحياناً يترك وراءه فقط آثار هذا كله (١) .

القصور :

« الدار » و « المنزل » - هذه (خيمة) من أجند البدي ، و (قصر) للحاكم في الشعر الجاهلي ، وعندما يدور الحديث عن الأمراء ، سكان المدن ، لن يقصد الشعراء بتسميات « منزل » ، « دار » ، « بيت » (الخيم) المضروبة في الصحراء ، لكن (قصوراً) تحتوي على جميع مرهجات ومرفحات الحياة . لقد وصلت إلينا أشعار تذكر بقصور

١ - انظر . المنازل ، ما أشرنا إليه سابقاً .

أمراء بني محرق ، حكام الحيرة ، - قصور الخورنق والسدير ، وبارق والقصر ، وكذلك أشعار عن قصور الساسنة المنتشرة في دمشق ، وبصرى ، والجلولان . ورغم أن هذه القصور قد عفت ودرست في أشعار الشعراء ، ذلك لأنه [جرت الرياح على محل ديلرم] ، كما تجري على منارل البدو في الصحراء ، لكن الشاعر هنا لا يتوقف لتفحص النزي ، والأوتاد ، وليسكي الرسوم والأطلال ، بل نسمع ألفاظاً مغارة جديدة ، إنها [قصور ، ونعيم] : [فليت عيشتهم الرعيعة الهنيئة وانتهت] (١) .

هنا نعلم على صورة جديدة المنازل ، وعلى طريقة جديدة في وصفها ، والبكاء عليها تتناسب مع الجو الاجتماعي والثقافي والحضاري ، ونعلم عن حياة هذه الطبقة المترفة ، وهذا ما أشار إليه النابغة في مدحه لآل جفنة الساسنة :

رقاتل النعال طيبٌ حجراتهم يحيون بالريحان يوم السبابس (٢)
ففي رقة النعل كناية عن الرفاهية والنعيم

١ - المنازل ، أشعار : أسود بن يعفر [أعشى نهشل] ، ص ٢١ ؛
حسان بن ثابت ، ص ٢٨٨ ؛ أبو أحمد ، ص ٣٣٤ ؛ الأغانى ؛
XIII ، ص ١٦ - ١٧ ؛ ديوان حسان ، ص ٤١٥
(البرقوقي) .

٢ - انظر : ديوان النابغة ، القصيدة البائية . (يوم السبابس : عيد كان لهم) .

ومع غو حياة الاستقرار قام الخلفاء والأمرء ببناء الحصون ، والدور النفسية ، والقصور ، ولذا فإن ألفاظ « منازل » ، « ديار » مع الزمن أخذت تعني أيضاً ، أكثر وأكثر ، و « أماكن السكن » التي يتفق على بنائها كميات ضخمة جداً من المال (١) . أماكن السكن هذه (القصور) ظهرت في الشعر العربي بكثرة خصبة لوصف جمالها وروعها . هكذا يتكلم الشعراء عن هذه « الدور » : « دار أطرابه (الشاعر) وأشجانها » .

دار تفيض بكل خير وفيها كل شهوات المريض (٢)

لقد غدت هذه « المنازل » مادة شيقة لا وصف لما فيها من زينة وزخرفة ، وصور مذهشة من ذهب وفضة . فالسري السرفاء بصصف (قصر البرج) للتوكل بأنه (منزل كالريص) (يتبع العين في طراف حسن) (٣) . لروعته تطرق العين عن النظر إليه ، وهو (مجلس يرتاح إليه الخليلع والمستور) ،

١ - نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠٦ ؛ هناك قصة مفادها أن الخليفة التوكل قد امتلك خمسة عشر داراً ، أنفق على بنائها (١٥٠٠٠) ، و (٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠) درهم .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٢ ، ٢٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ؛ أشعار ابن موسى ، ابن المعتز ، وابن القاسمي .

٣ - النوري ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، ٣٠٦ .

ولإذا غارت الكواكب صبيحاً فهو كالكوكب الذي لا يبور

في أيام العتصم - كما يظهر من شعر زتام الزامر (١) - وعندما يدور الحديث حول منازل الخلفاء ، (القصور) ، التي تجمع بالنعيم والعيش الرفه ، وتزخر بمختلف أنواع الزخارف ، تبدو أطلال هذه « المنازل » ثابتة ، دائمة ، غير بالية :

يا منزلاً لم تبل أطلاله حاشا لأطلاك أن تبلى

ولم تعد الأطلال مدعاة للبكاء : (لم أبك أطلاك) ، لكن العيش في تلك المنازل ، حياة النعيم فيه (أولى ما بكاه الفتى) . غداً المكان الذي يؤمن الراحة والعيش هو المكان للأسوف عليه ، المستدر للدموع ، وكأن التعلق « بالمنزل » قد غداً تعلقاً بالعيش في ذلك المنزل . ويتذكر الشريف الرضي (٢) منازل النعمان بالخير ، فيصفها بأنها (تقابلت شم النعاد عريضة الأعطان) ، تدل على فضل بناتها ، إذ (بين بالبنين فضل الباني) .

لقد وصف شعراء هذه المرحلة « المنازل الخالية » أيضاً التي عفتها ودرستها حوادث القدر والزمان ، ونكبات العصر ، فجعلتها خالية بعد أنس . وتعتبر قصائد البحري - في هذا المجال - أكثر القصائد حيوية ،

١ - المنازل ، ص ١٢ .

٢ - النوري ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

وتأثيراً ، وروعة حس وتصوير « إذ يقول في قصر (الكرمان) الخليلي ،
الذي بناه أبو شروان :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وإذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأبو شروا نيزجي الصفوف تحت الدرفس (١)

يصف البحري بروعة تلك التماثيل التي كانت على جدران القصر ،
رمزاً لا تتصارع كسرى على الروم ، مستملاً هذه القافية الخافقة (السين
المكسورة) ، وكأنها توحى للقارىء بالحزن والأسى . ولا تقل قصيدته
في رثاء التوكل (٢) وقصر الجعفري روعة في البراعة والتصوير عن سابقتها .
أما ابن الداني فيخصص قصيدته لا لوصف قصر منفصل ، مستقل ، بل
لرثاء مدينة بكاملها (اشيلية) عندما أخذها « تاشفين » المثلث من « ابن
عباد » ، وقضى على ملكه . إن هذه القصيدة من أجود ما قيل في رثاء
اشيلية ويوتها ، فالسوء تبكي بدمع رائج غاد « على البهاليل من أبناء
عباد » . كانت مدينة حصينة ، فيها الأسود الأشاوس والأبطال ،
« وكعبة » يقصدها المحتاجون ، فندت لا عاكف فيها ولا بادي . فما
على الضيف إلا أن يشد الرحل ، ويجمع فضيلة ازاد ، ويرحل ،

١ - النوري ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

٢ - النوري ، ج ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٣ .

فقد « أقفر بيت المكرمات » ، وخلع بنو عباد ، وزال عزم ، ولا بأس
في هذا فقد خلق بنو العباس من قبلهم ، وخلت ، قبل ، حصى أرض
بغداد :

تبكي الساء بدمع رائج غادي على البهاليل من أبناء عباد
عبريسة دخلتها الحاديات على أسود منهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تفرعها فاليوم لا عاكف فيها ولا بادي
يا ضيف أقفريت المكرمات فخذ في ضم رجلك واجمع فضلة الزاد
ويامؤمل وادهم ليسكنه خف القطين وجف الزرع بالوادي
ضللت سبل الندى بابن السميل فسر بغير قصد فيما يهديك من هادي
إن يخلعوا فبنو العباس قدخلعوا وقدخلت قبل حصص أرض بغداد
سارت سفانهم والنوح يتبعها كأنها إبل يحودبها الحادي (١)

لا بد من الإشارة إلى أننا في أشعار المعري ، وأشعار شعراء
آخرين غير معروفين نجد لسات طبقية اجتماعية ، تصف فقر البيوت ،
وقفر سكانها . فالعري يصف بيته الذي كان حبيسه ، ذلك البيت الذي

١ - المنازل ، ص ٣٨٤ : [الرئيسة : مأوى الأسد بـ حصص : مدينة
بالاندلس] .

يوكف شتاء ولا يطاق من الحر صيفاً ، وهو فيه شيخ فان اعمى
سعيه في تحمل هذا قناعته :

لُزمتُ بيتاً بناء الجُدُّ من كَأَنَّهُ بيت شعري ليس يترنُّ
إِذَا شتوتُ ممن توكأه عني وبالحرور إِذَا ماصِفْتُ يقرنُ
عدمُ فحصى وعينٌ غيرُ مبصرة وشقوةٌ وحليف الشقوة اليقنُ
لولا القناعة جَاءَتْنِي بِمَلَكَةٍ لَهتكت دوني الأستار والجنُّ (١)

البيت الواهي الذي يوكف مطراً ، قد انجى ، وغدا كقارعة
الطريق . إنه كالنهام ، حتى إنه لأغزر منه دمةً ووكوناً حين يذرف ،
ذلك لوهته وضيقه . إن سائرته متأثر العنكبوت ، فإذا هطل المطر
أصبح في داخله مظلم ضيق حتى يشبه السجن . والعنكبوت رغم صفها -
قد بنت لنفسها بيتاً ، أما الشاعر فليس عنده وطن مثلاً بالخنفساء سكن ،
وليس للشاعر مثلاً ألف ولا مسكن . إن هؤلاء الشعراء - كما بصورون
أنفسهم - فقراء ، ليس لهم نوق ، ولا ضأن وماعز وور وتمر ، حتى
ولا نبات يرعونه كالابل [مبالغة] ، ليس لهم إلا البيت الخالي الفقير
المعدم ، فعلى الزوجة - زوجة الشاعر - الاستئثار بهذا البيت - إن
رضيت - وأستر منه القبر .

١ - المنازل ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ . (اليقن : الشيخ القاضي) .

ويدت تساوى والغمامُ وآنه لأغزرُ منه دمةً حين تذرفُ
إِذَا السحبُ عنه أَقْلَعَتْ فلو كفه فتوبى من توكف أسود سقفه
فدعه ونم تحت السحاب فإنه وقال آخر :

يتي شعور العنكبوت ستوره ومطارحُ الغبراء فيه مطارحي
وإذا أصابته السماء بطلها فسأوه تبغي بوكفٍ سافحي
وكأنني من ضيقه وظلامه ميتٌ دفينٌ في ثرى وصفائح
وقال آخر :

العنكبوتُ بُنِتْ يَتَأَعَلَى وَهَنٍ تأوي إليه ومالي مثلاً وطنُ
والخنفساء لها من جنسها سكنٌ وليس لي مثلاً ألفٌ ولا سكنُ (١)
الوقوف على الاطلال :

إن الطامع الغزلية للقائد ، الحاملة الأساسية لبذور (مفهوم

١ - المنازل ، الشعراء المجهولون (قال آخر) ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٥ ،

٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

الوطن) في الشعر العربي ، عادة ما تبدأ بدعوة للوقوف على آثار الديار المهجورة ، التي يتعرف عليها الشاعر . ويعتبر امرؤ القيس أول من دعا إلى هذا الوقوف . إنه في معلقته الشهيرة ، يستعمله الفعل (قف) بصيغة الامر - [قفًا] ، يدعو ، باختصار وتكثيف ، صاحبيه^(١) للوقوف والبكاء :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٢)

وفي مكان آخر^(٣) يدعو صاحبيه إلى التحول عن طريقها ، والتوجه إلى « الطلل المحيل » لعلها يبيكان الدار كما بكاهما « ابن خدام » . إن

١ - الزوزني في « شرح المعلقات » ص [٧٩] وفي معرض تعليقه لأسباب توجيه الدعوة إلى الوقوف بصيغة المثنى يكتب ما يلي : « قيل » خاطب صاحبيه ، وقيل : بل خاطب واحداً وأخرج الكلام مخرج الخطاب مع اثنين ، لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع . خاطب الواحد خطاب الاثنين ، وإنما فلت العرب ذلك لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين : راعي إبله وراعي غنمه ... الخ .. » .

٢ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان امرؤ القيس ، ٨ ، ٩ ؛ شرح المعلقات ، ص ٧٩ - ٨١ .

٣ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان امرؤ القيس ، ص ١١٤ .

هذه الدعوة للوقوف والبكاء ، تستعمل أيضاً بهذه الصورة عند الشعراء اللاحقين لمصر امرؤ القيس^(١) . ويدعو الشاعر ، أحياناً ، خليبيه إلى اختيار أحد موقفين : إما الوقوف عند الديار الخالية^(٢) ، أو البكاء على بقايا الديار :

خليبي هيجاً عبدة أوقفا بنا على منزلٍ بين النقيعة والجبل^(٣)

لكن نغتر عند بعض الشعراء على موقف معاكس ، واتجاه آخر ، إنه دعوة الامتناع عن الوقوف على الاطلال ، وأثر الديار الخالية ، ذلك لأن الوقوف عندها لا يجدي شيئاً ، إذ لا يشفي الحزن من الشوق والام ، فاللقاء مع المنازل « لا يشفي حاجة المتذكر »^(٤) .

وصف الحالة الراهنة للمنازل :

يقف الشعراء عند الاطلال وبقايا الديار ، فيصفون الحالة التي عليها ديار الاحبة ، أو موطنهم : كيف غدت هذه الديار بعد هجر سكانها لها ؟؟ ووصف الشعراء هذا يشتمل على عناصر ضرورية ترد غالباً عند معظم الشعراء :

- ١ - انظر : مثلاً ، المنازل ، ص ٨٥ ؛ شعر زهير ؛ وشرح ديوان زهير ، ص ١٤٥ (دار الكتب) .
- ٢ - المنازل ، ص ٧٣ ؛ شعر أبي كبير .
- ٣ - المنازل ، ص ٣٧ ؛ ديوان جرير ، ص ٤٦٠ .
- ٤ - المنازل ، ص ٦٨ ؛ شعر الجعدي .

آ - تحديد أماكن السكن :

لقد كان الشعراء عادة يشيرون إلى موقع هذه الأماكن: المنزل الواقع « بين الدخول ، فحومل ، فتوضح ، فالقراءة » (وكلها أسماء أماكن)^(١) . وأحياناً أخرى يكتبون بذكر موقعها شمالاً أو جنوباً .. الخ .. بالنسبة إلى موضع واحد . مثلاً : « ديار جنوب أسنمة »^(٢) ؛ « بطن الجو » ، و « في الركن ، والقبيع ، وثيمده »^(٣) . وفي حالات أخرى يشير الشعراء إلى ملكية وتبعية هذه المنازل: « منازل آل أساء »^(٤) . وبلسلوب سؤال المعارف يسألون « عن المنازل قد عفون سنينا ؟ » . إنه سؤال الشاعر البكاء عن المنازل المحددة ، منازل قومه المشتتين ، فغفت منازلهم ، وبقيت دمن بحماها الباكي المبكي . ولم يوضح البكاء بصورة مباشرة أنها منازل قومه ، ذلك لشدة الدهشة والاستغراب ، ولن يفهم هذا إلا من البيت الرابع حيث يعزي نفسه قائلاً : « ما كنت أول من تفرق شمله »^(٥) .

١ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ٨ ، ٩ ؛ وانظر: المنازل ، ص ٤٠ ؛ وديوان النابغة ، ص ٨٥ .

٢ - المنازل ، ص ٩٨ ؛ شعر ابن مقروم ؛ معجم البلدان ، مادة « أسنمة » .

٣ - المنازل ، ص ٣٩ ، ٩١ ؛ ديوان زهير ، ص ١١٦ ، ٢١٩ .

٤ - المنازل ، ص ٣٩ ؛ شعر زهير .

٥ - المنازل ، ص ٢٠ ، شعر البكاء .

ب - جبل الديار ، وعدم معرفتها :

إن المنازل والديار المهجورة ، القفر ، والتي تعرضت لمصائب الدهر ، وعوامل الطبيعة ، غالباً ما تثير لدى عدم التمكن من معرفتها وغيابها ، والشاعر برؤيته هذا المنظر انغمس الحزين لآثار وبقياء الديار ، لم يتمكن من التعرف عليها : « استجملتك »^(١) . أو يسأل الشاعر من يعرف الديار : « إن المنازل قد عفون سنينا ؟ »^(٢) . لقد تفتتت المنازل ذلك التغير الذي لشدة كان الشاعر مضطراً أن يستعمل أسلوب الاستفهام ، وكان ما يراه الآن مدهش عجب ، لا يعرف تبعيته . وفي حالات أخرى يسأل الشاعر سؤال المعارف ، ويتوجه بسؤاله للمخاطب قائلاً :

« هل عرفت ديار أم عمرو ؟ »^(٣) ، ليدل على التغيرات الجذرية التي آلت بها . ولكن أية فائدة يمكن أن تقدمها هذه الاستشارة ، أو الوقوف الطويل على آثار الديار المنغاة ، التي يصعب التعرف عليها ؟ إذ يستطيع الشاعر وقوفه على [رسوم ديار قفر]^(٤) مسائلها ، وهل ينفع السؤال ؟

لكن بعض الشعراء يتعرف على هذه الديار ، إنما بعد جهد وكد ،

١ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٠ .

٢ - المنازل ، ص ٢٠ ؛ شعر البكاء .

٣ - المنازل ، ص ٣٨ ، شعر عروة بن الورد .

٤ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان النابغة ، ص ٤١ ، ٤٢ .

ذلك لأنه لم يبق منها إلا قطع الجبال والأوتاد^(١) . وظاهر الديار لا يبنى عنها ، وعن تبعتها ، إنما من له تجربته العاطفية معها يعلم علم اليقين أنها هي . إنها [دار لسمدى] الحبيبة الجميلة ، التي رحلت ولم تبق إلا ذكرياتها . فالحب عند الشاعر هو واسطته لمعرفة الديار وتبعتها^(٢) .

ح - المنازل معفاة

إن أماكن السكن المهجورة التي يسكنها الشعراء تكون في أغلب حالاتها ، معفاة ، دارسة ، خالية ، خاوية ، قد أزيلت من على سطح الأرض ، ولم يبق إلا أثرها ودلالات عليها^(٣) . « هل تؤنسان يطن الجو من ظن ؟ »^(٤) « فالديار عفت » من أهلها ، عفا منها « السهل والقليل »^(٥) . والرياح هي التي عفت معالم هذه الديار ، لقد غطتها بالرمال حتى تنكر منها « كل معرفة » « إلا الرمال » الباقي من آثارها « وإلا دمعي الجاري » الذي ذرف شوقاً وجأ ولوعة . أقفرت هذه الديار ،

١ - المنازل ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛ شعر حارث بن بدر النداني .

٢ - المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ربيعة بن مقروم .

٣ - المنازل ، ص ٣٣٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٢٩٣ ، ٣٥١ ، ٣١٨ ، وغيرها .

٤ - المنازل ، ص ٣٩ ، ديوان زهير ، ص ١١٦ .

٥ - المنازل ، ص ٩٩ شعر الحارث بن خالد ؛ الأغاني ، ج ٣ ، III ، ص ٣١٣ (دار الكتب) .

فليس فيها « نار تضيء » (سورة جاهلية) ، ولا « أصوات سهار »^(١) .

وبنض النظر عن أن « المنازل » قد تغيرت للدرجة الجبل بها ، فإن هذا التغير لم يمسح ذكرها في نفس الشاعر ، فيقف « بالديار التي لم يعفها القدم »^(٢) في نفسه ، رغم أنها ذاتها قد عفتها الرياح والأمطار ، وبقيت آثارها في نفسه .

د - الديار بلا سكان ، فقراء خالية :

يتكلم الشعراء عن ديار خلوية ، خالية من السكان : « المنازل أقفرت » ليس فيها « نار تضيء » ولا « أصوات سهار » ، ويسأل الشاعر سؤالاً مؤثماً في بداية شعره يعرف مسبقاً جوابه « هل بالديار من أحد ؟ » ، ويملل ذاته بعد أن يتذكر ماضيه في هذه الديار ، ويقارنه بحاضره حيث أصبح اليوم « لا أهل ذوو لطف » عنده ، يلبو معهم ، « ولاصفراء بالدار »^(٣) . إن هذه الصيغ الاستفهامية التي يسكب فيها الشاعر عواطفه وحزنه توحى بشدة الاووعة والألم « أي المنازل بعد الحول تعترف ؟ » ، ويظهر عدم جدوى البكاء على أطلال تلك المنازل « أم ما بكأوك ؟ » ، التي بعد أن كانت آهلة ، غدت مرتعاً لبقر الوحش

١ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر يبيس ؛ الأغاني ، ج ٣ ، XIX ، ص ١٠٨ (يولات) .

٢ - المنازل ، ص ٨٥ ، شعر زهير .

٣ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر يبيس .

والنّام ، وغدا أصحابها في شقاء بعد أن كانوا في نعيم ، مما يستوجب
البكاء على مصيرهم (١) « الدار قفر » (٢) والرسوم لم يبق منها إلا
آثارها .

هـ - مكان عيش الحيوانات :

لقد غدت الديار المهجورة مكان سكن الحيوانات والطيور : المنازل
غيرت الناس الكرماء الراغبين بقر الوحش ، وقطمان الطيور (٣) . لقد
غبت المنازل ، وبقيت دمن بجمامها الباكي المبكي ، تلك الدمن التي أيقظت
عند الناس شعور الحزن والألم (٤) .

و - المنازل صماء بكاء :

لها - رغم ذلك - توقف في الشاعر الحب والشوق ، والحنين
والرغبة في تلقي الجواب على تنمية الشاعر ، وعلى أسئلته الكثيرة . لكن
هذه المنازل تصمت ، وفيها لو تكلمت - تكلمت الكثير ، ذلك لأنها تعلم
العلم الكثير عن الماضي ، وكذلك عن أسرار الشاعر السائل . ويسأل
الشاعر أحياناً ، « هل بالديار من صمم ؟ » « هل بالديار صمم » ، ودعوت

١ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بشر .

٢ - المنازل ، ص ٨٨ ، شعر المرقش الأكبر .

٣ - المنازل ، ص ٤٠ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٥ ؛ وانظر : المنازل ،

ص ٦ - ٧ ، شعر بشر .

٤ - المنازل ، ص ٢٠ شعر البكاء .

أخرس لا يجيب دعائي » ، « لو كان رسم الدار ناطقاً » (١) . أو
أنه يعني : « ولا بالدار صمم » (٢) ، عندما يكلمها الإنسان المعشّي صاحب
الحاجة ، الذي يبحث عن أحبه . إن (الديار) التي يقف بها الشاعر
تيسج أشواقه ، ويتوخى أن تحببه لكنها «استجمعت» عن الجواب .

ز - تشبيه آثار الديار :

لن يبقى بعد خروج السكان من الديار وهجرانها إلا آثارها التي
هي أشبه بآثار خط قلم أسود :

أرسم دار أم سطور كتاب درست بشاششتها مع الأحقاب
- لمن الدار كأنفضاء الكتاب حاجت الشوق وعيت بالجواب (٣) .

في أشعار شعراء العصر الأموي : [ابن الرقاع ، حفص الأموي ،
الأحوص وغيرهم] (٤) يثر على عناصر وصف الديار ، وبقاياها ، وتقبلهم
لها بتشبيهات متنوعة : إن الدار الدارسة ، الصامتة أشبه بكتاب خلق
عتيق ، قد أهاجت الشوق ، وزادته في نفس الحب [الشوق إلى سكانها

١ - المنازل ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٣١٣ ، ٣٥١ ، أشعار عبيد

ابن الطيب ، الجدي ، المرقش ، النابغة ، عنترة وغيرهم .

٢ - المنازل ، ص ٨٥ ، شعر زهير .

٣ - المنازل ، ص ٣٢٧ ، ٨٨ .

٤ - المنازل ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٢٠ .

السابقين الذين عاشوا في رخاء ونعيم] : « أهل أنعام » ؛ آثار هذه الديار - مرابط ائبل فقط - عملت فيها الرياح فعلها ؛ وأسقتها بالتراب ، فغطتها بأكسية رملية . إن هذه الآثار تبيج الذكرى ، والأسى ، والام في النفس . وابن قيس الرقيات^(١) بعد سلسلة من الاستفهامات التمجيدية « هل للديار بأهلها علم ؟ ! » أم « هل بين فينطق الرسم ؟ ! » وبعد سؤاله صاحبه :

يا صاح هل أبكك موقفنا أم هل علينا في البكا إثم ؟ !

بعد هذه السلسلة من الاستفهامات يسأل صاحبه مستغرباً عن سبب بكائه المنزل البالي الذي غدا أشبه بالوشم في ظاهر اليد :

أم ما بكؤك منزلاً خلقاً قفراً يلوح كأنه الوشم ؟

وتقرآن آثار الديار عند شاعر آخر بآثار القلم ، حيث أوضحت الديار بعد رحيل أهلها وكأنها « آثار أقلام »^(٢) ، وهذا دلالة واضحة على البيوت البدوية ، التي يرحل أهلها لن تدوم آثارها ، ذلك لأنها خيم وأعواد .

وإذا كان الشعراء الاقدمون يصفون الديار (بالمي) ؛ بأنها صماء بكماء ، لا تقوى على إعطائهم الجواب الشافي على أسئلتهم ، فإن ذا الرمة ،

١ - المنازل ، ص ٦٨ ؛ ديوان ابن قيس الرقيات ، ص ٥٥ .

٢ - المنازل ، ص ٦٣ ، شعر ابن المضر .

وهو بطور طريقة التعامل مع المنازل والديار ، يصفها بالبخل في الكلام :

ألا حيّ المنازل بالسلام على بُخل المنازل بالكلام^(١)

والديار عنده [عند ذي الرمة] مقفلة خالية ، دارسة عافية . إنها « خيمات » ، بلبت ، فعدت مكان عيش بقر الوحش والغريان « وحائم ورق في الديار وقوع » . أهاجت لعين دمة ، لقد وقف فسلم ، فكادت دمه الدار تنطق « لعرفها صوته »^(٢) .

ويحتوي شعر شعراء العباسي ، فيما يتعلق بوصف حالة الديار والمنازل ، على تلك العناصر التي قد أشرنا إليها في شعر الشعراء السابقين لهم : فالديار قد حرمت من سكانها الطيبين الصالحين ، وأصبحت « مراداً للنماج التضائلة » ، والربوع لا تقوى على الكلام « فلما سألت الربع ... لم ينطق »^(٣) . لقد لبست الديار ثوب الفناء ، لا تعرفها من منظرها الخارجي ، لكن بواسطة الشموخ والحب ، لأنها ديار قد تغيرت للدرجة عدم المعرفة^(٤) :

١ - المنازل ، ص ٤١ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٥٩٤ .

٢ - المنازل ، ص ١٤٨ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

٣ - المنازل ، ص ٣٢ ؛ شعر أبي الحية النميري .

٤ - المنازل ، ص ٦٥ ، ١٥٠ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٤٩٦ ؛ ديوان

اللتني ، ص ٤٠ .

سل ديار الحي من غيرها وعفاها ومحا منظرها؟ (١)

والمنزل كالناس تعطي الوعود ، وتفي بهذه الوعود ، فالنزل قد وعدت الحوادث بأن تدرس ، وتستوحش ، فلم تقدر على مطالها ، وإخلاف وعدها (٢) .

لقد لعبت به [الدار] أيدي البلى لعب الشكوك بنفس إنسان (٣)

والبون شاسع بين ماضي الديار الزاهر ، وحاضرها الكثيب ؛ لقد كانت نجومًا لكنها الآن دمن ورسوم ، كانت مصدرًا للسرور ، وغدت مبعثًا للجزن والاسى ؛ غدت بعد الفراق (نالحة) وكأنها إنسان يضمر ، ويضمف ؛ وغدا الاشراف فياظلامًا ، والضحي أسيلًا ، « لقد نادى بهن الموت أهلاً فأسعما » ، ويتمنى الشاعر أن لا يراها على حالها الحاضرة بعد أن كان عيشه فيها نعيمًا :

يا ديار الأحباب لا أبصرتك العين من بعد أن حلت رسمو (٤)

١ - المنزل ، ص ٧٢ شعر أبي العتاهية .

٢ - المنزل ، ص ٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ص ١ ، ص ٤٠٦ ، ٣٧٦ .

٣ - المنزل ، ص ٢٤ ، ٣٦ ، ديوان مبيار ، ص IV ، ص ٣٦ و ص ١١ ، ص ٢٥٩ .

٤ - المنزل ، ص ٧٣ ، شعر الرنقى .

« لدار .. لطول بلاها والتقدم صحيفة ييضاء » (٥)

والديار يحض اختيارها ترفض الكلام ، ذلك لان السكوت شعارها ، ترفضه عن مقدرة ، حيث بإمكانها النطق ، ولو نطقت لشفت مرض السائل وحزنه :

« أبت لا تكلمك الديار... »

فلو نطقت شفت في شعاعًا ولكن السكات لها شعار (٦)

ح - عوامل تهديم المنازل [الرياح والزمن والأمطار] :

كل هذه التغيرات التي حدثت على الديار وآثارها إنما كانت بتأثير الرياح (الجنوبية ، والشمالية ، وبخاصة الشرقية التي هي من أكثر رياح الصحراء شيوعاً) . إن هذه الرياح ، بتتابعها الواحدة تلو الأخرى ، تمحو ذلك الذي تركه الناس وراءهم ، وتدمر الديار ، وتعفوها ، غير تاركة حتى الآثار التي تدل عليها : إذ إن (رياح الجنوب تزيل ما أثبتته رياح الشمال) . و « المنازل أصبحت للرياح منازلًا » (٧) .

١ - المنزل ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، شعر ابن المولى .

٢ - المنزل ، ص ٧٤ ، شعر النطافاني .

٣ - المنزل ، ص ٣١ ، ٤٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٨ ، ٤٨ ، شعر امرئ

القيس ، النابغة ، ابن الرقاق ، البحري .

إن حوادث الدهر ، والامطار الغزيرة ، والزمان قد قضت على الديار ، ودمرتها ، وعفت حتى آثار ورسوم أماكن نزول القبيلة والشعراء يصورون الحياة البدوية بتقلها وترحالها الأبدية ، مشيرين إلى هذه الظاهرة الاجتماعية - التجاور المنتظم ، والتعايش في أماكن عيش محددة معروفة (أماكن النزول) صيفاً وريماً ، على امتداد سنوات عدة ، (عام بعد عام) :

عفا عام حَلَّتْ صيفه وريعه وعامٌ وعامٌ يتبع العام قابلُ
«أي المنازل بعد الحول نعرف؟!» (١) «أخني عليها الذي أخني على أيدٍ» (٢)

لكن قوى الطبيعة لم تمد - فيما بعد - العوامل الوحيدة التي تدمر « المنازل » ؛ في هذا يشارك الناس أيضاً ، بقيامهم باعتداءات عدوانية ، وهجمات منظمة . فندت حجارة المنزل تحارب وتقاوم ضربات المساوِل المهدمة ، وكان « بينهم حرب وائل » ، وكان المتدي قد أراد عن فيه وقصد - نحو آثار القوم ، فلن يتركها :

« مستخبر أو واقف أو مسائل » ، ولن يسمح لها بأن تكون
رسول حضارة ذلك القوم :

١ - المنازل ، ص ٣٠ ، ٦ ، ٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٣٢٧ ، ٣١٣ ،
٣١٥ ، ٣٣٤ ، شعر زهير ، الثامنة ، بشر ، ابن الرقاق ، نصيب ،
قيس بن ذريح .

٢ - الاسطورة عن النسر العمر الأبدى [لبد] .

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أحلى من حديث المنازل (١)

ط وصف الماضي :

إن الشعراء يوقفهم على المنازل والديار ، ووصفهم لحالتها الراهنة ، ولاثر عوامل الطبيعة عليها ، يذكرون الماضي ، ماضياً ، بصفونه ، ويقارنونه مع الحاضر . فهاضي الديار طويل وغني وعامر :

« كم للنزال من عام ومن زمن ؟! » (٢)

والديار المهجورة قد أبقت في الشاعر تذكراً الأوقات الماضية ، تذكر الحياة الماضية السعيدة الرائعة . ويقارن الشعراء تلك الحياة بالحالية القاسية الصعبة المخرقة :

إذ « لا أهل ذوو لطف » يستطيعون مواساتهم (٣) والديار المقفلات « بلين وهجن للقلب اذكراك » (٤) . « وهمل الأيام الخوالي رواجع » .

أراجعةً ياليلُ أيامنا الألى بذني الرمث أم لاملهن رجوعُ؟! (٥)

١ - المنازل ، ص ١٣ .

٢ - المنازل ، ص ٣٩ : ديوان زهير . ص ١١٦ .

٣ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بيس .

٤ - المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ابن مفرغ .

٥ - المنازل ، ص ٨٢ : ديوان ذي الرمة ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لقد كانت الديار فيما مضى (نجوماً) ، لكنها الآن دمن ورسوم ،
كانت مبيتاً للسرور والحب ، وغدت مصدراً للحزن والألم^(١) .

ي - شعور الشاعر وسلوكه :

إن بقايا « الديار » توظف في قلب الشاعر الشوق والحنين ، اللذين يشبهان القشعريرة الحادة الخطيرة عند المريض . والشاعر ، بوقوفه بين هذه الاطلال ، وبقايا الديار ، من الحزن والألم ، يشعر وكأنه سكران قد أعطي الخمرة منذ الصباح الباكر^(٢) . لم يبق للشاعر بعد رحيل الأهل والأقرباء سوى أن « يتحسر ويتذكر » . وفي تذكره هذا يندو نشوئاً ، وكأنه أعطي خمرة فلسطين . لقد منعت عليه طارقات الهموم النوم « بأسى وإذكار خطب قديم »^(٣) . ويبحث الشاعر عن ملجأ عند « المنازل » ، ملجأ من التحسر على الحبوبة ، لكنه عبثاً يبحث ، إذ إن النجاح لن يحالفه في سماعه . ذلك لأن « المنازل » توظف في قلبه التذكر والشوق ، فكان كمن يريد « مداواة حر النار بالنار »^(٤) . و « الديار » « عقت إلا أثافيها » « فاندفعت فيها مغانيها » ، وجرت الرياح الماصفات أدبيلها عليها؛ فندت وكأنها ثوب بال تخلى ، قد وقف الشاعر بسائلها نائم

١ - المنازل ، ص ٧٣ ، ٧٤ ؛ ديوان المرتضى ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

٢ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ١١٤ .

٣ - المنازل ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، شعر العدي بن الرقاع .

٤ - المنازل ، ص ٨٩ ، شعر مهيبار .

كأنه « ساورته حية رقطاء »^(١) ولشدته تنفير وتبدل الديار يسكنها « وقتت عليها ، ففاض الدمع ... »^(٢) . وهو يائس يطلب منه أصدقاؤه التجلبوا الصبر ، لكنه يرى مواساته في بكائه ، ثم يسأل السؤال الاستنكاري اليائس :

وإن شفائي عبثاً مُمِرَّةٌ مُهْرَاقَةٌ

فهل عند رسم دارس من مُمِعُولٍ؟^(٣)

ولا يجوز لاحد أن يلومه في بكائه أحله ومنازلهم :

إن قومي تتابعوا بعدما كا نواهم القوم ، فابك غير ملوم^(٤)

والشعراء يدعون إلى البكاء على أماكن نزول القدماء ، الذين كانوا أفضل من حل محلهم ، إذ كان القادمون خير من سكن الديار :

فابكي إذا بككت المنازل أهلها ... معذورة^(٥)

وأحياناً لا يدري الشاعر أيها أجمل بحاله : البكاء أم الصبر ، إذ

١ - المنازل ، ص ٣١٤ ؛ ديوان الخطيئة ، ص ١١١ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨ ، شعر عروة بن الورد .

٣ - المنازل ؛ ص ٣١ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ٨ ، ٩ .

٤ - المنازل ، ص ٧٠ ، شعر ابن الرقاع .

٥ - المنازل ، ص ١٧ ، شعر ابن الرقاع .

بالبكاء شفاء من غصة الشوق ، وبالصبر الرجولة والجلادة^(١) . وأحياناً أخرى يؤمن بعدم جدوى البكاء ، ويدعو للامتناع عنه :

« أم ما بكأؤك ؟! »^(٢) .

ويتبنى الشعراء عادة لاماكن السكن الابدية والخير ، ويدعون لها - على الدوام - بالسقيا ، ويتبنون بلخافة لمواساة أنفسهم بأنفسهم ؛ بعضهم يجد المواساة والسلوان فقط في السكاء والبأس . والبأس ، من جهة ، عامل من عوامل قطع الحنين إلى الديار^(٣) ، ومن جهة أخرى - دواء للعين إما : كي تذرف الدموع^(٤) ، وإما بهجر الديار وتركها ، والتسليم بالمصائب ، والامتثال للعزاء :

فلما بدا لي اليأس عديتُ نائتي عن الدار «(٥)

حتى إن الشاعر ، أحياناً ، يشير إلى إطلائه في بكاء الديار وزيارتها ، ويبلغ في الاطالة معنى الملل :

طال في رسم الديار بكائي وطال تردادي بها وعنائتي^(٦)

المواساة والعزاء يكمنان ، أحياناً ، في المبررة والعظيمة بما مضى : فالفراق يحتم لا مفر منه ، إنه قدر جميع الناس بلا استثناء . والفراق واللقاء قاتونا الحياة ، وليس الشاعر أول من تفرق شمله وتهدمت دياره^(٧) ، لكن هذا عمل القضاء والقدر الذي يصيب الجميع :

كذلك الدهر إن الدهر ذو غيرٍ على الأنام وذو تقص وإمرار^(٨)
- وهي الدنيا إذا ما دبرتْ جماتٌ معروفتها مُنكرها
إنما الدنيا كظلٍ زائلٍ أحمَدُ الله كذا قدرها^(٩)

أما كن السكن عند العذرين والعمرين :

إن الدور الخاص في تطوير موضوع « المنازل » و « الديار » في الشعر العربي قد شنته مجموعتان من الشعراء ظهرتا أيام بني أمية ، وهما : مجموعة الشعراء العذرين ، ومجموعة الشعراء العمرين . إن الشعراء العذرين (شعراء الجزيرة العربية من قبيلة عذرة) ، ومن يتألمهم بطرق هذا الغرض كقيس بن الملاح وغيره ، قد قالوا شعراً في الغزل المفيف ، وتحدثنا الروايات أن الشعراء البدو - العذريين ومحبولتهم قد تعرضوا

١ - المنازل ، ص ٣٣٩ ، شعر ذي الرمة .
٢ - المنازل ، ص ٦٣ ، ٦ - ٧ ، شعر ابن المفسر ، وشعر .
٣ - المنازل ، ص ٨٣ ، شعر ابن الطيب .
٤ - المنازل ، ص ٨٢ ، شعر ذي الرمة .
٥ - المنازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نواس .
٦ - المنازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نواس .

١ - المنازل ، ص ٩٠ ، ١٨٥ ، ٢٠ ؛ شعر بشر ، ابن مقروم ، البسكاء .
٢ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بهس .
٣ - المنازل ، ص ٧٢ ، شعر أبي التاهية .

للكثير من الصنوبرات والمراقل التي وقفت أمام جهم ، حيث حيل بينهم وبين محبوباتهم . لقد منعوهم من اللقاء والميش بقرب بعضهم ، فكان شعرهم عاطفة ملتبية ، وعفة محضه ، ولألا وحسرة . وكانت « المنازل » و « الديار » و « البيوت » معطاة في أشعارهم بقوة خاصة . وبأنهم خلس معين ، حيث إن (المنازل والديار والبيوت) ، بالنسبة لهم ، مثيرة للشوق ، وعركة للذكرى . هذا الشوق ، وهذه الذكرى يأخذان على الشاعر مجامعه . ولذا فإن مصطلحات « منازل وديار وبيوت » مقرونة بالتهيج والذكرى ، وبأساء محبوبات معينات . « إن المنازل هيجت إطرابي » :

وذكرتُ عصرًا بائنة شفتني إذفانتي، وذكرتُ شرخ شباي (١)

ويقول جميل في مكان آخر أيضاً :

« أهاجتك المنازل والظلول »

نعمَ وذكرتُ ديساً قد تقصّتْ وأي نعيم دنيا لا يزول؟!

ولا يخرج عن هذا كثير بن عبد الرحمن الخزاعي إذ يقول :
« أألاشوق لما هيجتك المنازل ؟! » ، « تذكرت فأنهلت لسني دمعاً » ،
« ليالي عيش نعمة بوجهه زماً » (٢) .

١ - المنازل ، ص ٣٥ ؛ ديوان جميل ، ص ، ٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٧ ؛ ديوان كثير ، ص ١٠ ، ص ٢٤٤ .

إن مرور كثير على منازل أحبته يثير فيه الشوق ويدعوه للبكاء :
« أشتاكت الديار » (٣) . ويسأل الجنون أيضاً سؤال العارف « أهاجتك ديار ليلى ؟ » . إنه يمر على ديارها ليقلب جدرانها :

أمرّ على الديار ديّار ليلى أقبل ذا الجدار وذو الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حبن من سكن الديارا

وتبلغ عاطفته ذروتها عندما يلتقي بجبل اتوباد في أرض حبيته التي يبحث عنها وعن أهلها بعد أن اختل عقله - كما يروى - فبدب فيه الحياة (٤) ، ويندو الجبل وكأنه إنسان تطلق مجاور مبتسماً ويحييه على كل تساؤلاته ؛ فالجبل ينادي « نادى بأعلى صوته قدعاني » ، وعندما سأله عن أحبابه قال : « مضوا واستودعوني ديارهم ... » ، ثم يعلن نفسه على لسان الجبل بقوله « وما الذي بقي على الحدّثان ؟! .. »

ويقابل الاتجاه السابق اتجاه آخر ، يسمى في علم الأدب العربي الحديث « بالعمري » ، نسبة إلى المثل الاسامي لهذا الاتجاه ، الشاعر المكي عمر بن أبي ربيعة . لقد نشأ هذا الاتجاه ونما في الحجاز ، منذ تسلم عثمان الحكم ، حيث انعكس ليته السياسي على مظاهر الحياة الأخرى ، ووضح بانتقال الحكم لبي أمية ، وانتقال عاصمة الخلافة .

١ - المنازل ، ص ٨٠ ، ديوان كثير ، ص ١٠ ، ص ١٢٢ .

٢ - المنازل ، ص ٦٦ ؛ ديوان قيس بن الملوّح ، ص ٢٧٥ .

من المدينة الى دمشق . هذا الحدث الذي يعتبر هاماً في تاريخ الخلافة ان اثر امتداد الفتوح ، واتساع الملك قاد لاعتبار العرب الطبقة الممتازة في الأمصار الاسلامية ، لأنهم يتلون الدولة والدعوة معاً . ولهذا كانت لهم امتيازات ، وأصاب بعضهم ثراء وغنى ، وعاشوا نتيجة ذلك ذلك حياة ترف ونعيم ، كما ان حروب بني أمية مع معارضيتهم في الحجاز دفعت بعض الناس الى ترك السياسة والانخراط في حياة النعيم . في هذا الصراع قد شاركت أيضاً القوى الشعرية ، لكن بعض الشعراء اهتموا عنها وانخرطوا بحياة انترف والنعيم والابو التي أشرنا الى أسباب ظهورها ؛ ففي نفس الوقت الذي عبر فيه جرير والفرزدق والاختل في اشعارهم عن الصورة الاجتماعية للحياة السياسية في دمشق والشام ، كان عمر بن أبي ربيعة وغيره قد اهتموا عن الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، متفرلين بشعرهم بحياة الابو والنعيم واللذة ، مشيين بالنساء . وكان الفارق الرئيسي بين غزلهم وغزل المذريين أن المذريين أهدروا الحياة الخارجية ، وأنغصوا الحياة الداخلية ، أما ابن أبي ربيعة وجماعة اتجهوا فقد اجتمع لهم المال والشباب والفراغ والجلدة ، فأولوا الحياة الخارجية عناية فائقة . إننا نجد عند المذريين فتنة حادة واضحة في اتجاه آخر فها يتعلق « بالنازل والديار » ، انتقال من التذكر وبكاء الديار الى حبها والارتحال اليها . لأنهم لا يكون الديار وآقارها ، إنما يسمون جاهدين لقيائها ، ذلك لأن الديار عند هؤلاء الشعراء غير مهدهم دارسة بفعل الرياح والامطار والزمن ، بل على العكس لها مصدر الراحة والهناء والابو والنعيم ، ومكان عيش المحبوبة حيث ترتاح عواطف الشاعر ، وترى كل شيء جميلاً لجمال الحياة بقرب الحبيبة والمشوقة .

النازل والديار عندهم - هي مكان الراحة ، والسرور والتسلذذ مع المشوقة « قد أرتانا بقطعة فيه فلهو ونجذل » (١) . ان هذا النموذج من الاتجاه الشعري والانتقال الحاد في التوجه الى الديار إنما فرضته ظروف حياة هؤلاء الشعراء .

لقد ضاق عمر بن أبي ربيعة ذرعاً بالبقاء طويلاً في « المصلى » ، وشئى البقيع » ، وسمى جاهداً لزيارة « ديار » مشوقته « هندوسمدي » (٢) . وكذلك عند العرجي (٣) « أما الديار فقلما لبثوا بها » ذلك لجهم الرحلة والتنقل . وشبا شوقهم بسياط وضعت في أعناق العيس لتحتبها على العودة الى ديار الاحباب (الى الاوطان) .

عناصر جديدة في التوجه الى موضوع

« المنازل والديار » ومعاملتها

وعلاوة على العناصر والاتجاهات التقليدية التي انطلقت تعبيراً عن حياة العربي - البدوي الواقعية في الجاهلية ، وكانت مادة أساسية للتقليد في المصور الزمنية اللاحقة ، علاوة على كل هذا فقد ظهرت في الشعر عناصر

- ١ - المنازل ، ص ١٤ ؛ ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص ٢٠٧ (بيروت) ، ص ١٢٥ (لبيزنج) .
- ٢ - المنازل ، ص ٩٧ ؛ ديوان ابن أبي ربيعة ، ص ١٧٤ (بيروت) ، ص ٢٣٨ (لبيزنج) .
- ٣ - المنازل ، ص ٩٢ .

جديدة في معالجة موضوع « المنازل والديار » . فالجاهلي مثله وقيمه التي تمسك بها وقايل من أجل الحفاظ عليها . فالكرامة وحفظ الشرف من أم ما تمسك به الجاهلي ، وضحي في سبيله بكل شيء . ورغم أن الاتجاه الغالب حتى الآن عند الجاهليين هو الوقوف على الديار ، والبيضاء عليها ، وتذكر الأجرة من خلالها ، أو تذكرها من خلال الأجرة ، والدعوة لها بالقبلى ، والتأسف على ماضيها ، وماضي الحياة مع الجيرة ، فاننا في شعر قيس بن الخطيم (شاعر قروي مات عام ٦١٢ م) نلمح عناصر تجديد واضحة ؛ إنها دعوة ، إن لم تكن مباشرة صريحة لكنها تلمح بوضوح من خلال الأسطر ، إنها الدعوة إلى الرحيل وترك الديار التي لا تؤمن فيها للفر كرامته :

وما بعض الاقامة في ديار بيان بها الفتى إلا عناء (١)

ولقد كان ذكر المنازل عند بعض الشعراء الآخرين في المراحل اللاحقة تقليداً للجاهلية حتى ان الشاعر يعش بين المراك ، في القصور الفخمة ، واذ به يذكر المنازل القديمة في الصحراء والحجاز وليس بينه وبينها أية صلة . تقليد الشعراء هنا جاء مفتقراً للعاطفة التي كانت تشيع في شعر الجاهلية ، معوزاً لصدقها . ثم لم يعد ذكر المنازل أحياناً مثيراً للأحزان والأسى بل شعر بأثر الحضارة في التوجه الى

١ - المنازل ، ص ٩٣ ؛ ديوان ابن الخطيم ، ص ٩٥ (القاهرة) ، ص ٥٣ (بغداد) .

المنازل وذلك بتجيتها عند جرير «حي المنازل بالبردين قد بليت » ، «حي المنازل اذ لايتغي بدلا » ، «قل للمنازل ... حبيب» (١) (بصيغة المجهول) . تلك التحية التي تظهر عليها بوادر التكلف . ان جريرا هنا ، في اختلاف عن الشعراء الآخرين ، غالباً ما يستعمل الفعل (حي - أبلغ التحية) ... الخ ... حتى إن شعر الهجاء بدوره قد أثر على الشعراء في توجيههم الى أماكن وقوف القبيلة . انهم يتوجهون الى هذه المواقف والمنازل بدم بعضها لظهار مكانة الأخرى :

دُمَّ المنازل بعد منزلة الماوى والعيش بعد اولئك الأقوام (٢)

وتظهر آثار الحياة الجديدة بوضوح في شعر أبي الجية النميري [من محضري الدولتين] ، (القرن الثامن الميلادي) . إذ يصف في مقطوعته طمان حبيته التي أعولته احوالاً لا يجدي ، لكنه يدها بأن لا ينساها (ما دعت مطوقة ورقاء شجوا على غصن) (٣) . فالذي يذكره بحبيته هنا هي الحمامة على غصن الشجر المجاور ، وهذا ما يشبه قول أبي فراس الحمداني الأسير :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي

١ - المنازل . ص ١٦ ، ٣٢ ، ٣٧ ؛ ديوان جرير ، ص ١٥٣ ، ٥٩٣ .

٢ - المنازل ، ص ١٤ .

٣ - المنازل ، ص ٤٤ .

وكعادة القدماء فإن ذكرى الأيام الخوالي في المنازل والديار تهبج الشاعر ، لكن هذه الذكرى ان لم تهبجها قوافي الطاعنين فإن شيئاً جديداً يهبجها، إنها « حاتم ورق في الديار وقوع » (١) . هذه الحاتم التي تنوح فتبكي الإحبة المعذنين الذين يتذكرون أيامهم الخوالي .

أما عمر بن أبي ربيعة الذي اعتاد التنزل بالبيجع ، والتنقل من عشقة الى أخرى - خلافاً لثيرة - فإنه ينال بلاوم على العاشق الذي يطير له (إن دار الزباب تباعدت أو ابت جبل الوصل) ، ويدعو للصهوة من السكره (أفق) ، إذ إن العاشقين قد أفاقوا وتركوا الهوى ، واستحسكوا عزيمتهم ، (وكف النفس) ، واستغن الحياء (التزم) ، فإن المقادير المحتومة هي التي تباعد وتقارب ؛ (أمت حبها) (واجمل مكان وصلها) أمثالها ، للذين تجاورهم فإن كنت قد تعلقت بها ، فلا تكن مادة حديث ولوم البدو والحضر . ثم يدعو دعوة صريحة الى نسيانها والتخلي عنها :

وهبها كشيء لم يكن، أو كنازح به الدار ، أو غيبته المقابر (٢)

التجديد في شعر أبي تمام من هذه الناحية إنما يتمثل بدعوته بالسقيا ، ليس فقط لبقايا آثار الديار ، كما هي العادة ، ولكن أيضاً لتلك

١ - المنازل ، ص ٨٢ ، ٨٧ ، شعر ذي الرمة .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ديوان عمر بن ربيعة ، ص ٩٨ (بيروت) و ص ٧ - ٨ .

الامكنة التي يصل اليها الاهل والاحية .

إذ إن الصابي قد حسن لديه (دار البؤس) فصارت (جنات النعيم) . إنها في الوقت الذي أصبحت فيه ميدان السواقي ، صارت أيضاً ميداناً لهوموم ، لقد شكى الى مشتاك إليه غير رحيم ، ودموعه في بكائه على الرسوم ستترك في خده آثاراً ورسوماً (١) .

والبحثري الذي كان في معظم الحالات مقلداً في هذه المطالع (بمانيا) وباستخدام (المنازل) فتارة (البلى لم يبق من عراسها سوى أرسم) ، (المنازل أضحت الرياح منازل) ، (منازل ما تحيب من خرس ومن صمم ، تظهر آثار الحياة الجديدة في مطلعه الطللي ، كوتظهر عنده بعض الاستخدامات الجديدة ، فلم تعد المنازل في صحراء مقفرة ، بل ترى « بين ملتف الأراك منازل » ، والصابية تقسم قسمين : « فشوقه للطاعنين ، ودعمه الفنزول » ، والمنازل شامخ ثابت رغم تعاقب نكبات الزمان عليه - لم تعد معالم المنازل بالية قديمة لا تقوى على الجواب ، لكنه يحیی « منزلاً جديداً معاله » ، « حتى يكاد يرد رجس جوالي » . والبحثري لا يقل ثورة عن بشار عندما يعلن بصراحة :

ومن السفاهة أن تظل مكفكفكاً دمعاً على طللٍ تأبّد مَقْفِرٍ (٢)

١ - المنازل ، ص ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ؛

ديوان أبي تمام ح ١١ ص ، ٣٥١ ، ٤٥٦ ؛ ح ١٠ ص ،

٣٤٦ ، ٢٦٩ ، ح III ، ص ، ٢٢٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٨ ، ٤٥ ، ٤٣ ؛ ديوان البحثري ، ح ١١ ،

ص ٢١٢ ، ٢١٧ .

أما في شعر المعري فأننا نعثر على فصل كامل من عناصر التجديد.
فمتدما يخاطب خاله محمداً الذي هاجر من الشام إلى المغرب يدعوهُ (لحب الوطن،
والحنين ، والعودة إليه) :

« علام هجرت شرق الأرض ؟ (حتى) أتيت المغرب » ؛ [يقصد
بشرق الأرض - سورية الشام ؛ أي قسم من الأرض الواقع شرقاً بالنسبة
لقسم آخر (المغرب) الواقع غرباً] ؛ إنك لن تجد « الديار » - البلاد
الجديدة - المهاجر إليها كما يتوخاها لك الصديق ، فأنت فيها غريب وحيد.
ثم يدعوهُ للعودة إلى الشام وأهلها إن لم يعجبه المقام قائلاً : وعلى كل حال،
حتى ولو طاب لك العيش في غير الشام فأنما بطيب لك ظاهره ، ذلك
لأنك فيه غريب لا يستقيم أمرك كما يستقيم في بلادك ، بين عشيرتك .
لماذا رحيلك إذا ؟ أنرحل لتجد في الغرب أخاً يفي بحن الاخوة ؟
لكنك بذلك تضيع أخاك القديم الذي كان قد حصل لك من عيشك في
في أرضك ووطنك :

علام هجرت شرق الأرض حتى أتيت العربَ تختبرُ العبادا
فان تجد الديار كما أرادَ الـ غريبُ فما الصديق كما أرادا
إذا الشّعريّ اليانبةُ استقلت فجددت للشامية الودادا
فللشام الوفاء وإن سواه توافي منطوقاً غدر اعتقادا
ظننت تستفيد أخاً وفيها وضعت القديم المستفاد(١)

١ - المنازل ، ص ٦٥ ؛ سقط الزند ، > ١٠ ، ص ٢٢٣ .

وبنض النظر عن ذكر المعري لعناصر الحياة البدوية (الجبل ،
الناقة ، الأطلال ، الأعالم . الخ) ، فإنه يسوقها في صورة جديدة ؛
فالناقة من ضعفها أشبه بحرف « نون » ، والآثار ، وبقايا الأطلال ومعلم
الديار أشبه بسطور إيهام وألغاز ، ويدعو لدار الحبيسة أن تسقى ،
ويتغافل لها بالسادة ، وبفران ذوب أهلها ، فحبيسته وأهلها رحلة في كل
شتاء هي سبب التناهي والفرقة ، ويدعو على الشتاء الذي هو سبب الفرقة ،
ويتمنى أن يعاقب بجمع الانف ، ويكي في ديار الحبيسة التي لم تورق
أوتادها إلا بعد أن سقاها مطراً من الدمع . إن حنينه الحقيقي لوطنه
الأم [المرة] ، إذ وهو في الكرخ حيث الناس فرحون ، يشتاق
للمرة ؛ فلا شأن له بالكرخ وبناداه :

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليال

ويتمنى وهو بالكرخ أن يحصل ولو على قطرة ماء من ماء المرة
تروي ظمأه ، وهو الانسان الذي يحن الى الوطن :

وماء بلادي كان أنجع مشرباً ولو أن ماء الكوخ صهباءُ جربالُ
فيا وطني إن فاني بك سابق من الدهر فلينعم لساكينك البالُ
وإن أستطع في الحشر أتبك زائراً وهيبات لي يوم القيامة أشغال

وقال أيضاً في مناجاة البرق :

فهل فيك من ماء المعرفة قطرة^١ تروني بها ظمآن ليس بسال

فليت سنيراً بان منه لصحبي بروقي غزال مثل قرن غزال

(سنير : جبل بالشام على طريق العراق ، روقي غزال : موضع على شط العرب^(١) .)

إن طبيعة الحياة المستهرة ، في بعض المجالات ، بما فيها من مجالس شراب وهو كانت صفة لحياة مجموعة من الشعراء الشبان ، ولأقت انعكساً واسماً في مجالات شعرهم . « فلأديار » التي يبرقة قد :

أصبحن بعد نعيم عيش منوق فقراً ، وبعد نواعم أدغانا^(٢)

وإنه لمن الثير أن نلاحظ أن آثار الديار البالية لم تمد وحدها الباعث على بكاء الاطلال والديار ، بل على العكس فإن حياة النعيم والترف والبهو وحياة اللذة الشخصية هي التي تثير اليك ، وتحرك الشاعر . ففي أيام المعتصم ، وعندما يكون الحديث حول منازل الخلفاء [القصور] ، التي

١ - المنازل ، ص ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ؛ الازوميات ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ؛ سقط الزند ، ج ١ ، ص ١٩٨ ، ج ١١ ، ص ٤١ ، ٩٩ ، ٥٩ .

٢ - المنازل ، ص ٩١ ؛ ديوان جرير ، ص ٢٨٠ (أو المنازل ، ص ١١٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣) ، شعر جرير .

تعج بالنعم والعيش المرفه ، وترخرف بمختلف أنواع الخراف ، تبدو أطلال هذه المنازل ثابتة دائمة غير بالية :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى

ولم تمد الأطلال مدعاة للسكاء « لم أبك أطلالك » ، لكن العيش في تلك المنازل ، حياة النعم فيها هي « أولى ما بكاه الفتى » . وغداً المسكن الذي يؤمن الراحة والعيش هو المسكن المأسوف عليه الذي يستدر المدموع ، وكأن التعلق « بالمنزل » قد غدا تعلقاً بالعيش في ذلك المنزل :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى

لم أبك أطلالك لكنني بكيتُ عيشي فيك إذ ولّيتُ

والعيش أولى ما بكاه الفتى لا بُدَّ للمحزون أن يسأل

قد كن لي فيك هوى مرةً غيرَه الدهرُ وما ملأ^(١)

فأين زريق الكاتب عندما يتحدث عن فراقه لمحبيته في الكرخ ، وآثار ذلك في نفسه لا يبكي الاطلال والمنايا ، ولا يصور عيا ، وعدم جوابها ، إنما يستلحف « منزل الالهو الذي درست آياته » بالله ، وبسأله :

١ - المنازل ، ص ١٢ ؛ قصة باسم زغام الزامر .

« هل الزمان معيد فيك [في المنزل . و . ط] لذتنا ؟! » (١) .

إن البكاء على مواقف القبيلة ، والاطلال ، وآثار الديار قد تحول عند الشريف الرضي إلى التغي ، ووصف الازهار الرائحة ، التي تفوح منها أجمال المطور ، وأروع الروائح ، والتي تنمو على آثار المنازل القديمة ، المملوءة بزهر الأقحوان الخلاب :

يقرُّ بعيني أن أرى لك منزلاً
بنعان يزكو تربُّه وبطيب
وأرضاً بنوَّارٍ الأفاحي صقيلةً
ترددُ فيها شألك وجنوبُ (٢)

والخطوة الجريئة في تناول الشعري « للمنازل والديار » وآثارها يمكن العثور عليها في شعر الكميت بن زيد [توفي ١٢٦ / ٧٤٣ - ٧٤٤] ، إذ إنه يقف ضد المطالع الطليعة ، وبكاء آثار الديار ، ويقاها أطلالها رغم أنها تذكره بسكانها السابقين :

مالي في الدار بعد ساكنها
وإن تذكرتُ أهلها أربُ
لا الدار ردت جواب سائلها
ولا بكت أهلها إذ اغتربوا (٣)

١ - المنازل ، ص ٣٣ - ٣٤ ؛ طبقات الشافعية د . ح . ١ ، ص ١٦٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨ ؛ ديوان الرضي ، ص ٨٠ - ٨١ . [نعمان : وادي كثير الراك] .

٣ - المنازل ، ٢٨١ ؛ هاشميات الكميت ، ص ٧٤ .

إن الدعوة الواضحة الصريحة للامتناع عن بكاء الاطلال ، وعن المطالع الغزلية - كما أثرتنا سابقاً - إنما ظهرت بشكل جلي في شعر بشار [توفي عام ١٦٨ / ٧٨٤ - ٧٨٥] وفي شعر أبي نواس [توفي عام ١٩٨ / ٨١٣ - ٨١٤] . لكن الطليعي الاول لهذا الاتجاه في الشعر - كما نرى الآن - إنما هو الكميت الذي عاش قبل بشار وأبي نواس بموالي نصف قرن . إنه يمتنع عن بكاء لا الرسوم وحدها ، بل الديار بأكملها وهذا تأكيد لما ذهبنا إليه من وجود البذور الجينية للتجديد منذ القديم ، حتى في قول عنتره : هل غادر الشعراء من متردم .. [وهذا تأكيد يبين على أن الوقوف ضد المطالع وبكاء الديار كان اتجاهاً فرضته ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية بعد أن استقر العرب في المدن ، وبعثوا من الصحراء ، وليس بدافع الشموعية فقط عند أبي نواس وبشار كما يرى بعض الباحثين العرب (١) . وقريبة من دعوة الكميت دعوة أبي عبدالله بن الحجاج الذي يحن إلى خلانه كما تحن « النيب العطاش إلى الورد » :

«فلا مرجحاً بالدار لاتسكنونها
ولو أمها الفردوس أو جنة الخلد» (٢)

إلى جانب مناحي التجديد هذه - انشار إليها سابقاً - في تناول موضوع « المنازل والديار » شعراً ، والتي ظهرت تحت تأثير الحضارة ، وتغير الشروط المادية للحياة في العهد الاسلامي ظهرت معاني جديدة أيضاً

١ - الكفراوي ، ص ٧٣ - ٧٧ .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٣ .

لألفاظ « دار » ، « بيت » واستعملت هذه الألفاظ بمعانيها الجديدة في الشعر العربي .

إن لفظة « دار » ، مثلاً ، قد امتلكت - بعد ظهور الإسلام - معاني إضافية أوسع مما كانت عليه في العصر الجاهلي . المدينة [مدينة الرسول] سميت « دار » سكن المؤمنين ، و « دار الهجرة » (١) . وبعد ، فإن كل الأرض التي امتلكها المسلمون ، وشاع فيها الإسلام سميت « دار الإسلام » ، ودار الأيمان » ، أما أرض غير المسلمين - ودار الحرب ، أو دار الكفر » (٢) . ولقد دعوا الجنة « دار الله » ، و « دار المؤمنين » ، أو « دار السلام » (٣) . أما « بيت الله » أو « البيت الحرام » فقد قصد بهما « الكعبة » ، و « آل البيت » - « أهل الرسول » (٤) . وكذلك فإن لفظة « دار » قد استعملت بمعنى « القبر » ، وهذا ما يؤكد الحديث النبوي عن زيارة القبور ، وبمعنى « الدنيا » (٥) وأطلق على الحياة الآخرة « دار الفناء » أو « دار الهلاك » كما يرد في شعر أبي المتاهية .

١ - المنازل ، ص ١٦ .

٢ - H. Krus, Studies in Islam, Vol. VI, No 1, 1965, p.8

٣ - لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٨١ وما بعد .

٤ - لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣١٧ ؛ تاج الدروس ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

٥ - هكذا استعملها سعيد بن حميد الكاتب . انظر : المنازل ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ؛ والمرضى ، انظر : المنازل ، ص ٧٤ .

السعادة في الدار [الحياة الدنيا] - قصيرة ، والناس يعيشون في « دار الفناء » ، دار الهلاك ، (الدنيا) حيث سيتقلون بعدها إلى « دار الأزل » ، الدار الآبدية » - (الحياة الآخرة) .

إن أبا المتاهية يدعو الإنسان لأخذ عبرة وعظة من الماضي ، كي يفعل الخير والأعمال الصالحة ، ذلك لأن الحياة قصيرة ، وما هي إلا « دار الفناء » ، ودار الهلاك ، ودار الضداع ، ودار العذاب » (١) . و « المنازل » المهجورة عند أبي فراس ليست فقط أماكن سكن، ودوراً ، بل إنها أحياناً « جوامع » « ومراكز العبادة والصلاة » (« فانسجد الجامع المروعة والمجد عفا ») (٢) . وهذا أثر من آثار الإسلام حتى ولو جاء على لسان أبي نواس الذي لم يكن كثيراً متقيداً بشرائع الدين الجديد. وإذا كان أبو نواس قد قصد بلفظة المنزل « المسجد » ، فإن أبا العلاء ، بنظرته التشاؤمية الفلسفية ، قد قصد بالمنزل « القبر » ، لاليكته ، بل ليجمعه مكاناً لراحة المرء : « أغفى المنازل قبر يستراح به » .

« داري ، من يقول ، وأعبدني مئة فاعبيد لربنا والدار » (٣)

كما استعمل اصطلاح آخر هو « دار النربة » ؛ الصوت - إنه

١ - المنازل ، ص ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ؛ ديوان أبي

المتاهية ، ص ١٠٦ ، ٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

٢ - المنازل ، ص ١١ .

٣ - المنازل ، ص ٢٣ ، ٢٩٤ .

الباب إلى « الدار - الجنة » ، فـ « إذا كان الإنسان قتيلاً ورعاً ،
أما إذا كان عكس ذلك فإلى « النار » ؛ وحياة المرء في دار الهلاك والخسارة
ضعف » ، والدار - ما هي ، أحياناً ، إلا الحياة الدنيا بكاملها ،
المتغيرة المتبدلة .

أما في أشعار الشعراء الذين لم يتمكن نسبتهم إلى عصر أدبي
معين ، والشعراء المجهولين (قال آخر ...)^(١) فانتا نعتز على ذات الاطر
العامة المطروحة سابقاً : « فالدار » استعملت في هذه الاشعار بمعنى
(الدنيا) ؛ الزمان بذهب بالناس ، وتبقى ديارهم كالرسوم . ويعتبر أيضاً
على ألحان ونغمات الجنين إلى « الدار » التي خلق فيها الانسان ، وعلى النغمات
الزهدية ، إذ عبثاً يطلب الانسان الخلود في دار الفناء (الدنيا) ، وما
(الدنيا) للناس بدار إقامة ، وليس أهل الدنيا للناس بأهل ، ولادار
الحياة لهم بدار ، والدنيا دار فرقة ومصائب ..

ولا بد من الإشارة إلى ظهور التلاعب بالالفاظ ، واستعمال المعاني
المجازية عند مبيار :

« ديار الحَيِّ من خَبَتِ السَّوْى عُدْتُ ظَنّاً بعدما كنت حقيقة »

(إذ يقصد أن الناظر إلى هذه الدار يشك الآن في معرفتها ،
بعد أن كان يعرفها فوراً) .

١ - انظر : المنازل « الفصل عن الدار » . (انظرت : ما اطعمان من
الارض واتسع) .

(لقد أخذ الدهر قشياً رائئاً من منانها وأعطاهها سحوقه) .
ولقد ظن أن الدمن ستطيق حمل النوى ، في الوقت الذي لم يطق هو
ذاته تحمله ، لكنه عندما رآها ناحلة كنجوله أيقن أنها مشتاقه
كشوقه :

خَلَّتْ لِمَا لَمْ أَطِيقْ حَمْلَ النَّوَى أَنْ تَلَى الدِّمْنَ الصَّمَّ مُطِيقَهُ
لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ حَتَّى نَحَلْتُ كَنُجُولِي إِيَّاهَا مِثْلِي مَشُوقَهُ
أَيَّنَ جِرَانِي بِهَا لَهْفِي لَهُمْ لَهْفَةُ سَكْرٍ تُبَاغِيهِ مُفِيقَهُ^(١)

وكذلك فإن لفظه «يت» تستعمل أيضاً بمعنى مجازي ، وإسلامي .
كما أن الشعر دل وجبر يستعملان اللفظة بمساعدة المرافقات اللفظية الاخرى
الموضحة بمعنى « قبر » - « دار الهجرة » ، « بيت الهجرة »^(٢) . أما عند
ابن المغربي فتستعمل بمعنى « الكعبة »^(٣) . وفي المرحلة التي امتدازت
بقوة العصبية القلبية ونغمها (العصر الاموي) ، فإن لفظه « بيت »
تصادف في أشعار الفرزدق وجبرر بمعنى « شرف القبيلة » :

١ - المنازل ، ص ٧١ ، ٨٣ ؛ ديوان مبيار ، ج ١ ، ص ٣١٧ ؛
و ج ١٧ ، ص ٥٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨٥ ، ٢٨٢ .

٣ - المنازل ، ص ٣٨١ .

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعاؤه أعزّ وأطول
بيتاً بناه لنا المليك وما بنى حكم السماء فانه لا ينزل (١)

العناصر الفلسفية والوعظية :

في الشعر الجاهلي - كما هو الحال أيضاً في الشعر الإسلامي - يمكن العثور على عناصر تحمل الصفات الفلسفية والوعظية . ففي توجه الشاعر الجاهلي « ليبد » إلى « الديار والنازل ، مناجاة للديار من وجهة نظر أخرى مغايرة جديدة - إذ لم يكن « الديار » كما بكاهم الآخرون ، ولم يكن آثارها وبقاياها ، بسبب نظريته الفلسفية إلى الأمور : (لماذا بكاه الديار ، إننا نحن الزائلون أما المنازل والديار فهي الباقية) .

« بلينا وتبقى الديار بعدنا والمصانع (٢) »

ولن يجزع ليبد إن فرقه الدهر عن أحبابه إذ « كل فتى يوماً به الدهر فاجع » ، « وما الناس إلا كالديار ، جلتها أهلها اليوم ، ولكنها

١ - النقااض ، ص ، ١٨٣ ، المنازل ، ص ١٠٤ .

٢ - لاحظ هنا أثر الجاهلية في المعنى ، فالمصانع ما يصنع لجمع الماء نحو البشر والصبريج ، وفي اللسان : مادة « صنع » ، ما يصنعه الناس من الآبار والآبنة وغيرها [ويورد بيت ليبد شاهداً على ذلك] .

غداً منهم بلاقع خالوة ، والمرء كالنهاب الذي يضيء ، وهو ساطع يبد بالتحول إلى رماد ، فكانه بسطوعه يسير إلى هلاكه ، وكذا الانسان ، وهو يحيا ، يموت ، إذ يقترب من نهايته (٣) .

أما في شعر أبي التماهية فتصادف عناصر الوعظ والارشاد بكثرة : الحياة الدنيا غير أبدية ، إذ إن الموت هو نهاية الانسان الخمسة ، وكل بيت لا بد وأن يسير إلى الهدم والدمار مهما طال به الزمن ... الخ ... ويسمع أبو التماهية الجميع في مناجاته أن البيت والمنزل إلى زوال ، والمرء في أواخر أيامه كالثلوب يخلق بعد جدته ، ومصيره من بعد أنسه بالناس « ظلمة بيت وحدته » ، بيت وحدته هو قبره (٤) . إن هذه الصفات التي أشرنا إليها مع عناصر ولغات التجديد يمكن أن يعثر عليها في أشعار البحري حيث يذكر الديار ، لا البكاء عليها ، إنما ليعطينا من خلالها نظريته الفلسفية إلى الحياة : فمن يزداد عمره يزداد غرفه من مصائب الحياة ، والانسان الضلل هو الذي يسر « لعمران الديار » إذ إن عمراتها يدنو بها من خرابها (٥) . وكذلك المتنبي الذي يصور خراب منازل أقربائه : « أبدأ غراب الين فيها ينق » ، لا يسكبها ، بل يأخذ عبرة من الحياة ، فالأكامرة - من جمعو الكنوز - قد فنوا ، وفنيت معهم تلك الكنوز (٦) .

١ - المنازل ، ص ، ٩٩ ؛ ديوان ليبد ، ص ١٦٨ - ١٧٢ .

٢ - المنازل ، ص ٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ؛ ديوان أبي التماهية ، ص ٢٤٧ ، ٧٣ .

٣ - المنازل ، ص ٧٠ ؛ ديوان البحري ، ج ١ ، ص ٤٧ .

٤ - المنازل ، ص ٨٢ ؛ ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٤٧٨ .

أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر، وبخاصة في شعر أسامة واهله

إن دراسة موضوع الوطن - [المنازل والديار] في شعر القرن الثاني عشر، وفي أشعار بني منقذ، وخاصة في شعر أسامة تعطينا إمكانية توضيح تطور أنغام وألحان معاملة أماكن السكن، مع تطور مفهوم الوطن، وتعطينا الأساس لتابعة بحث ودراسة هذا الموضوع في شعر المراحل اللاحقة على امتداد العصور حتى أيامنا هذه .

لم يكن ذكر الديار عند القاضي المذهب - عصر أسامة - للبقاء على ماضيها، ورسومها، وإنما وسيلة لاثارة مشاعر الشاعر تجاه الديار وأهلها، فخيال أحبة ثابت أبداً أمام فاطمة، وذكرهم قائمة في قلبه . وهو، وإن بكى، فأننا يبكي من الحنين والشوق :

« وإلى دياركم نحن صباة ونفض^١ أوعية الدموع ونرسل (١) »

ولن نطهر بحبابة تلك المنازل إلا وتسكب دموعه مبدرة من حنين إليها .

ويعثر على المشاعر الصادقة أيضاً في شعر طلائع بن

رزيك (١)، الصديق الحميم لأسامة الذي تناهت إليه أخبار نكبة بني منقذ، فلا حول ولا قوة له إلا أبيات شعر يضمها صدق حبه، وتأثره، باكياً حيناً، بمشاركة وجدانية صادقة، مواسياً أحياناً، جاهداً نفسه لاجتاد الغزاء لخراب (ديار بني منقذ) - بلدهم شيزر، عن بكرة أبيها، وبتمايز بسيطة واقعية، وألفاظ توحى بالوعة يعبر عن عظم النصية لدمار الأهل والديار :

لهف نفسي على ديار من السككا ن أقوت فليس فيها عريب

تلك الديار التي كثيراً ما حلها الغزاة، فطبيب لقياء أهلها، وحسن مشرهم، أنسهم حتى أوطان صباهم وأهلهم . وليس لأسامة - حسب قول ابن رزيك - إلا الصبر على أحداث الدهر إذ : « حكمه الجور والعدل وفيه المكروه والمحبوب » . وإن تخصصت النواذب آل منقذ فلأنها تأخذ القلاء المتقدمين، كالقفا في ساعة الزوع « تكسر منها صدور وتبقى كموب » .

وعندما يتناول والد أسامة الحديث عن الديار - ربما ليظهر براعته في هذا المجال، وبجارية الاقدمين ومباراتهم، إذ لم تكن النكبة هي الدافع لشمره هذا، حيث توفي قبلها بئمة - فهو في غالب الأحيان لا يخرج عن مناحي مناجاة القدماء . فلا يلوم الواقف على الديار على وقوفه، بل يدعو بصيغة الأمر : « فأفض شؤن العين للبقاء على » أربع

درست ، ، ولم يبق منها للتأمل أي مجال للتمتع والنظر لولا هواء
الذي شغفه ، وبياهي الأقدمين في التعبير لكن بأسلوب البالغة . فقد شبه
الباكي بالحمامة « كهاتفة تنوح وتسبح »^(١) . والواسون لا يفيدونه
شيئاً ، ولا يتقنونه من لوعة كائمة في النفوس ، ذلك لأن مقدار أسفه
وحسرتة - حتى ولو تقطعت منه الأحشاء - يبقى قليلاً تجاه شوقه لها .
وعلى كل حال فله عنده - على حد تعبيره - في البكاء لانه الحلي الباقي
المعذب بعد الديار المهلكة الدارسة . إذ قد رغب بحياة جميلة مع الاحباب
في الديار ؛ فان لم تكن فراحت بالوت تؤمن .

وكذلك الامر في شعر أقرباء أسامة [جدته ، وعمه ، وأخيه] .
« فالدار » هي « دار الإقامة » ، إنها « دار التصابي والتصافي » ، « عفاها
كل منهم » عزيز رائع غادر .

« والعيش بعد الاجبة لؤم » . وتقرن عندهم الدار بالاخوة والاهل
وذوي القربى :

يا إخوتي وذوي ودي وخالصتي حزني عليكم مدى الأيام متصل
إن ديارم التي كانوا فيها كشمس التهار خلت وأقفر ، لان الزمان
لا أمانة له : « ولا تدوم به الأيام واللول »^(٢) .

وما اللقطة في أشعار بني منقذ إلا واسطة التعبير عن مشاعرهم ،

١ - المنازل ، ص ٧٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .

وآلامهم المبرحة . فشاعر الالم والحزن هذه تطلعي على جميع الشعاع
الآخرى في شعرهم . وانكسار [تراجيدياً] بني منقذ وتشخيصها في هذه
المصطلحات « دار » ، « بيت » ، « منزل » يظهر أيضاً بشكل خاص في
أشعار علي بن مرشد - أخي أسامة ، وبشكل واضح في أشعار أسامة
ذاته .

لقد تأخر علي بن مرشد عن أسامة وأخويه اللذين خرجا إلى
دمشق ثم مصر ، وأسف كثيراً بعدهما ، وخلو منازلها منها . وبعاطفه
الابن الذي فقد أباه ، والاخ الذي تأسف فرقة أخوية اللذين كانا في حكم
المنفيين نتيجة قرار عمه بتركهم مسقط رأسهم شيزر ، بهذه العواطف
الصادقة الاليمة بكى منازلهم الخالية منهم دموعاً صادقة :

« فاسق الربوع من الدموع سجالها إن الرسوم لها عليك رسوم »

وليس المنزل عنده صباه بكاء ، بل ناطقة تحيب [وعظاً بلا لفظ] ،
لأنها كانت شاهداً عياناً على اصطراح (آلام ساكنها مسع المنايا) ؛
ساكنها بني منقذ ، الذين رغم إن الدهر فرقهم عنه : « فهم نفسي بكم
ماعشت مجتمعة » .

إنه يبكي الديار ولا يخشى في هذا لومة لائم « فهل بعد الديار
أكرم ؟! » ، ويتذكر ماضيه في الديار مع أهله . « إخوان صدق كالتريا
نفوسهم سميت » ، لاحد في نفوسهم ولاضيفة ، بات بيتهم مسروراً لاهم
لديه ولا غم « حيث » « الربيع للشمل جامع » ، ولكنها السكرانة قد
حلت ففبرت كل شيء :

« أقفرت منهم الديار وأضحت دارسات كأنهن رقوم »

ولم يعد له ، وهو المزون ، إلا البكاء والذكرى ، حتى إذا تذكر ظن وكأنه حلم ، يتمنى الموت « فيبشي بعد الاحبة لؤم » . ولياليه طوال من الارق والسهاد والحزن والالم ، ومن البكاء والتذكر . إنه يفتب على الزمان ، ويواسي نفسه بأن لاحول ولا قوة أمام القدر (١) .

أما أسامة فهو ذلك الشخص الذي يحب وطنه (شيزر) حباً كبيراً ، وأهله ، بالرغم من أن بعض المقربين الاقرباء ناصبوه العداة (عمه سلطان) . وشعره هو ذلك الشعر الذي يفيض حزناً وأسى ، ويفعم بمواطف الألم والمرارة والصدق ، دون تقليد متقدم ، أو وصف قصر عز ونعيم ، إنما هو شعر صاحب الرزية الذي ابتلي بالمصائب ، هو ذلك الشعر الذي أنطقته المصيبة بشوق إلى منازل عاش بحكم المنفي عنها ، بعيداً ، وعاد إليها ليجدها هباءً متوراً ، كأن لم تكن بالأمس . لم يبق منها حتى الاطلاع بيكيها ، وحتى القريب يواسيه في المصيبة . هذا ما يشير إليه أسامة إذ يقول : « قلت : لي على ما تقدم ذكره من الشعراء فضل المنزلة ، إذ كنت دونهم صاحب الرزية ، وإن كنت وهم كما قال فر لآئيه : يا أبه ! ملاك إذا تكلمت أبكىك الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ قال : يا بني ! ليست النائحة المستأجرة كاللكنى » (٢) .

١ - المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .

٢ - المنازل ، ص ٢٥ .

إن أسامة يصور الكارثة العامة التي حلت بأهله (بني منفذ عامة) ، وبنائهم حيث كانوا فيها « في نعمة محروسة » [المزكان مقترنا بالسيف والمال مقرنوا إلى الكرم] ، كانوا كالأسود في عربها ، وصعبوا على كل ذي ملك ، وذي قدرة :

« ما استطاعوا ذو ملك ، ومن الذي يلج العربين على الهذبر الحادر ؟ » (١)

لقد كان وقع الكارثة كبيراً على أسامة ، وهو الانسان الذي أحب شيزر ، وجعلها محطة يمر بها كلما منحت له الفرصة ، تربي فيها ، وأخذ كل عدته للحياة منها - الثقافية ، والحربية ، والسياسية - ، وإذ بالكارثة تقضي على كل شيء : على ذلك الماضي الجميل بما فيه « ديار الهوى » التي كانت « أفقا للأسود » وغياناً للملوف ، وذخراً لفقير « ؛ وعلى ساكنيها « الانجم الزهر » ، أما عصرها - فـ « فصل الربيع فضارة » . وإذ بالكارثة تقضي على عشيرته بني منفذ ، الذين لم ينقذوا من زمانهم ، « وكما أنقذوا من مرهق وأسير » ، فتعدو الديار وقد خلت من أهلها ، وتوحشت ، يملوها البلى ، وتغمر رسوماها ، فلم يعرفها بالرؤية البصرية إنما بالرؤية الروحية « أنكرها طرفي وأثبتها القلب » . لقد أصابها العنذر الحتم الذي أهلك كل من فيها . وحول شاغها إلى رسم دارس ، ولم يبق منهم إلا الحديث عنهم « كما نتحدث عن عادر وعن إرم » ، وآثارهم عظة لمن يتوسم :

١ - المنازل ، ص ٢٧ .

أنظر منازل آل منقذٍ إليها عظة اللبيب ، وعبرة للناظر

وتبلغ الحسرة ذروتها ، والصدق غاية في مقطوعته حيث يسكن دياره ، وبكاء أي انسان داره وأهله إنما يكون سبباً لبكاء أسامة أهله وأوطانه وخاصة وقد غدا بلا دار ولا سكن :

إذا بكى لديار باد ساكنها ذو وحدةٍ ساء في داره الزمنُ
بكيت أهلي وأوطاني وآسفني أن ليس لي بعدهم دارٌ ولا سكنُ

لقد قضى الزمان على قومه أجمع ، وملك أوطانه سواهم ، ففدا شريداً غريباً ، لا يجد من يشتكي إليه حزنه إن حلول الشكوى :

أخنى الزمان على قومي وملكت أو طاني سواي ، فلا أهل ولا وطنُ
ولم تدع لي المنايا مشتكى حزنٍ أبته كمدني إن عاذني حزن
والبون شاسع بين ماضيه وحاضره ، فما أجمل ذلك الماضي ، وما أقبح هذا الحاضر :

يا أحسن أول ذلك الدهر الذي قد كان فيك وقبَّحَ هذا الآخر!

لقد عفت هذه المنازل - منازل بني منقذ ، لكنها ، إن سألتها عنهم :

تخبرك أن الأرض قد وارتهم وأبت لهم أن يسمعوها أو ينطقوا

كان وقع الكارثة عظيماً على أسامة ، فلا يبكي الديار بقدر ما يبكي أهل الديار ، وكرامة فريدة من نوعها ، فقد غدا بلا دار ولا أهل ، ولم الديار إن لم يكن الأهل فيها :

وماذا اتفاعي بالديار وقربها إذا أقفرت من كلِّ مَنْ أنا آلف
وبيكي أهل الدار تارة :

وقالوا: أبكي للمنازل؟ قلت: لا ولكسنا أبكي لأهل المنزل(١)

لقد نظر إلى دار الاجة الفقراء التي لم يبق لها إلا الوجد والحنين فبكى ، ورأى سجدته هذا ، فشاركه بعضهم ، وعنفه بعضهم الآخر :

وقالوا : أفق ، للأرض تبكي ؟ فقلتُ لا
ولكنني أبكي لمن وارت الأرض

وبيكي حيناً آخر المنازل وأهلها ، وشبابه الضائع ، ويعبر عن هذا باستفهام العارف المؤثر الحزن ، يعبر عن حيرة مؤلمة ، ووجد فائق :

أبكيك ؟ أم أبكي زمانني فيك ؟ أم
أهلك ؟ أم شرح الشباب الزائل ؟

من شدة الوجد والاسى ، وفقدان الحياة أمام الكارثة المروعة ،
لا يقوى أسامة على فعل شيء ، وهو كائن مؤمن يتوجه بشكواه إلى
إلى الله ، عليه يجد في ذلك مواساة لروعه ، لمنزله ، ووجده على أهل تلك
المنازل . والتوجه إلى الله عند المؤمن غاية العطف .

إلى الله أشكو روعتي لمنازل خَلَتْ ، وجوى قلبي لأهل المنزل
ويدعو أسامة الباكي على الديار دموعاً تسجم ، أن لا يقف
عليها لأنها بكاء لا تجنيه شيء عن أهلها :

ماذا وقوفك في الديار مسائلًا عن أهلها ، ومتى يحيب الأبكم؟!
وأخذت المنازل على أسامة كل دموعه ، وأفقدته صبره ، وجعلته
في رقاد مستمر ، فإن لم يكن فكانه غدر بعد من سكنها . ويدعو لها
بالسقى - سقى المطر - كمادة الشعراء الرب و مسقتك وطفاء^(١) ،
ويكفيها دموعاً مدبرة فوق غزارة المطر ، إذ إنه لا يريد أن يحصل
هذه الأطلال منه السحاب :

أأحمل الأطلال منّة عارض وسحاب دمعى مستهل مطر؟!
لا ييكفيها دمعاً فقط ، بل لشدة الألم والحرقه يدعو إلى البكاء
عليها دماً :

فاسفح دموعك في ثراها أو يمازجها الدم

١ - المنازل ، ص ، ٢٧ ، ٢٦ .

ويسبها أحياناً ، ويدعو لها بدم السقى [على غير عادة الشعراء
الأقدمين] طالما أنها أقفرت من أهلها :

وما كنت أهوى الدار إلا لأهلها وبعدهم لاجاد ساكنها القطر
فما الدار تلك الدار بعد قطينها ولا الدهر فيها بعدهم ذلك الدهر
- « لاجاد ربك من ديار أقفرت من أهلها صوب الغمام المطر »

أصبحت حياته بعد أهله بدون معنى : فلم أحظ بعدهم من البش
الطويل بطائل . وصعب عليه العيش ، فتمنى الاحتاق بهم : « أرجو
الاحتاق بهم » . إذ لا شيء يعزبه لفقدهم ، وبواسيه :

وإذا فرغت إلى العزاء دعوت من لا يستجيب ، ورمت نضرة خاذل^(١)
ويعود أسامة ليواسي نفسه طالما أن مواساة الناس خاتبة لا تجدي ،
فهذه باعتقاده - سنة الكون منذ كان الكون ، يد تبني وأخرى تهدم :
هي شيمة الأيام : كف تبتتي - مذكات الدنيا لو كف تهدم^(٢)

وكان واعياً للصير الحتم إذ يخاطب صاحبه :

ما أنت أول من تناءت داره فعلام قلبك ليس تخبو ناره؟!
إما السلوا والحمام ، وماسوى هذين قسم ثالث تختاره^(٣)

١ - المنازل ، ص ، ٢٦ ، ٢٨ .

٢ - المنازل ، ص ، ٢٦ .

٣ - المنازل ، ص ، ٣٠٢ - ٣٠٨ .

والموت عند أسامة معبر كل انسان ، ورحلته تنتهي إلى تلك
القبور التي انتهت إليها عشيرته :

وغداً نخيم حيث حلوا في القبور وخيموا^(١)

فالنازل والديار عنده معدة ، إنها منازل آل منقذ السكائنة في
شيزر ، أسابها كارثة ، وهزها الزلزال فدمرها بكاملها . وكل كلمة قالها
أسامة في هذه الديار كانت تنفيساً وحرقة وحسرة ، إنها سلوان عن
مصابه وألمه .

٢ - المعنى الواسع لمكان السكن

(المغاني والرابع)

تستعمل في اللغة العربية أيضاً بعض الالفاظ التي تمتلك معنى
أكثر اتساعاً وشمولاً ، وتدل على رقعة من الارض أكبر ، حيث يشتر
عليها أكثر من منزل أو دار أو بيت أو خيمة . هذه هي :

آ - « المغاني » :

« المغاني » جمع ، مفردة « مغني » ، و « المغني » : المنزل الذي
كان به أهله ، وقيل : المنزل الذي أقام به أهله ، أو الذي أقام به أهله
ثم رحلوا^(١) . « والمغني » مصدر واسم مكان من الفعل الثلاثي « غنَّي » بمعنى
[أقام] . قال الراغب : غني في مكان كذا ، إذا طال مقامه فيه مستغنياً
به عن غيره «^(٢) . وتأتي « غني » بمعنى [عاش] [نقله الجوهري] ، وجمعي
(بقي) : غنيت لك مني مودة = بقيت ؛ وجمعي (كان) ، إذ يقال لشيء
إذا بقي : كان لم يبق . بالأمس ، أي كان لم يكن . وغنيت المرأة

١ - لسان العرب ، ج ١ ، ص ٣٧٢ وما بعد ؛ تاج العروس ،

ج ١ ، ص ٢٧١ وما بعد .

٢ - انظر هناك أيضاً .

١ - النازل ، ص ٢٩ .

زوجها غُثَيَانًا وغيثاءً ، أي استغنت به عن غيره . ومنه اشتقاق الثانية .
وأغن عني شرك : اكفني شرك .

ب - « الربوع » :

« الربوع » جمع ، مفردة « ربع » ، « والربع » المنزل ودار الإقامة والوطن متى كان وبأي مكان كان . « ربع القوم » : محلتهم ، وجمعه (أربع ، رباع ، ربوع ، أرباع) . يقال : أراد يسع رباعه ، أي منازلها ، ومنها (الرباع) : الرجل الكثير شراء الرباع وهي المنازل . « والربع والربوع » جماعة الناس . « والربع » مشتقة من « ربع » بالسكان ربع ربعا إذا اطمأن وأقام ، والاصل « ربع » : أقام في الربيع ، ثم أطلقت على كل إقامة ، وكل وقت حتى سمي كل منزل « ربعا » ، وإن كان ذلك مختصا في الأصل بالربيع . « والربعة » أخص من « الربع » (وهي قسم من المنزل تشبه « المنزل »)^(١) .

العناصر التقليدية :

في التوجه إلى المنائي و الربوع كما عند الشعراء الجاهليين ، كذلك عند معظم الشعراء في المراحل اللاحقة ، نثر على نفس تلك العناصر التقليدية التي أشرنا إليها سابقاً . فأما كُن السكن الواسعة نسبياً - مقفرة ، معقاة ، والربع « ... قرر كأنه لم يله في ساحته سامر » ؛ قد ألبس

١ - لسان العرب ، ج ١ ، IX ، ص ٤٥٥ ؛ تلج المروس ، ج ١ .

V ، ص ٣٣٧ .

ثوب البلى ، حتى إن علاماته أو آثاره خلقة بالية . بعد أن كان قبل /
الكارثة التي حلت به : « يجيب من بهجته الناظر »^(٢) .

إن هذه المنائي والربوع خالية من الاهداء ، ومسكن الوحش والطيور ، وملعب الرياح ، ومصدأة للبكا . وهي أحق بقلب الشاعر « وإن هجن لوعة وزفيراً »^(٣) .

لم يبق من هذه الربوع غير المنائي (حجارة القدر) الثلاثة المتدمة التي تشبه ثلاث حمامات سود متلاصقة بالأرض ، بلا حركة ولا حراك ، ولا شيء يخبر عن العيش الجليل في الربيع الهبيج البديع - فيما مضى - ، حيث « الحي الحلول بساوة » عاشوا فيه بنعيم ورخاء^(٤) . « إن قشيب ربعهم دريس » ، « حبس على البلى » ، فحبس الشاعر دمه ، وشدت « ربوع الربع موحشات » ، بعد أن كانت مألوفة ، مأنوسة ، إذ حقق الفراق مراده في الربع الذي ارتحل سكانه ، فلا يلام الشاعر في الوقوف ، لأنه يسأل الربع عن خيرهم . لم يدم في الربع العيش المرفه السابق بل إن الرباع في هبوبها السريع قد أثرت على هذه الربوع فقيرتها « هربت بعدي » : « إن ربع موسم الذاث قد غائسه

١ - المنازل ، ص ١٣٩ ، شعر حفص .

٢ - المنازل ، ص ١٠٦ - ١٠٨ شعر ميار .

٣ - المنازل ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، شعر ذي الرمة والبحري .

النوى فندا للصباية موسماً^(١) .

« المغاني » و « الربوع » عند الشعراء العرب واسطة البسكاه على الأوطان والأهل . وتذكر هؤلاء الأهل ، وهذه الأوطان يقسود بدوره إلى تذكر الحياة الماضية السعيدة ، ويصور الوضع المؤلم المر الحالي : « أشجاك الربيع أم قدمه ؟ »^(٢) .

ويستفهم الشاعر عن سبب حزن صاحبه : « أشجاك الربيع أقوى والديار ؟ »^(٣) . وبنظرة ألم وحزن أفهمته المغاني كل شيء : العز الغابر والحاضر المرير . وبلوعة مريرة لفقد جماعته من إخوانه يدعو بالمرض والسقم لكل عين تنظر الديار :

« أي عين أصابت الدار أفدى الله بعدي أجفانها وأضرأ » .

وبكاء المغاني ليس بغريب على الشاعر ، إنما الغريب أن يعيوا عليه ووفاء لمن يحب ، فكل عاشق يبكي عندما يطالع معنى أحبته :

« كأنني أول عاشق طالعه مننى الأجابة فأرفضت مدامعه ؟ »^(٤)

والربوع والمغاني لا ترد جواباً إذ :

١ - المنازل ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٣ شعر أبي تمام .

٢ - المنازل ، ص ١٤٦ ، شعر طرفة .

٣ - المنازل ، ص ١٣٨ ، شعر الفند .

٤ - المنازل ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ، شعر ميثار .

لو أن ربماً راجع القول قبله لرد السلام ربعُ سمدى وسلماً^(١)

والرياح الشديدة الهائجة تصصف في هذه الربوع والمغاني - دورياً - رياح تنثر الزمال فتلبس الربيع ثوباً أبيض قشياً ، وأخرى تذرّي تلك الزمال ، فتسحل عنه هذا الثوب القشيب .

من الضروري أن نشير إلى أن « الربيع » و « المغني » عند الشعراء المذريين مقرونان باسم المحبوبة (ربيع عزة ، معنى شينيه) . وإن كان جميل^(٢) قد عبر في أبياته عن ذلك بصورة غير مباشرة ، إذ إن الربيع الذي كان يسكنه لم يعد يزار « وكيف يزار الربيع قد بان عامره » ، « أنصرم هذا الربيع أم أنت زائرته : ففي لفظة [هذا] تحديد للربيع ، فإن كثيراً^(٣) يحدد هذا مباشرة إذ يقول :

خليليّ هذا ربيع عَزَّة فاعقلا قلو صيكنما ، ثم ابكيك حيث حلت

وخلو الربيع من عزة كان المحرك لأحزان كثير وكناشه ، ومن العجب اضطراب قلبه على الفراق الذي لا يرجى بعده لقاء ، إذ إنه كالمرثي ظل القمامة ، كما أراد الهدوء تحتها زالت وانقشمت ، أو كسحابة ترجأها الممحل أن تسقط عليه لكنها لما جاوزته أمطرت .

١ - المنازل ، ص ١٥٣ ، شعر نصيب .

٢ - المنازل ، ص ١٤٦ ، شعر جميل .

٣ - المنازل ، ص ١٤٧ ، شعر كثير .

أما عند ابن أبي ربيعة فإن الربيع والمنى مرتبطان لا بسم امرأة محددة ، بل « بربيع الحلي » ، - حيث عاشت عدة نساء ، كان قد تنزل بهن .

عناصر التجديد :

إلى جانب العناصر التقليدية هذه ، وبصورة خاصة بعد ظهور الاسلام ، يلاحظ تجديد واضح في معالجة تناول المناني و الربوع . إذ نثر على التناول الادبي - الشعري الجديد للرسم عند قبصة المهلي^(١) : إنه يصف ربوع مدينة حضرية (واقعة في الرصافة والكرخ بغداد) ، لا أماكن تقليدية منتشرة في الصحراء القاحلة ؛ القوى المؤثرة [الرياح] ليست عاصفة ، מזرية للرمال ، إنما هينة لينة ، ناعمة لطيفة الهبوب ؛ لم يصور نؤيباً وأتافياً وأطلالها المافية ، بل صورها تعبق بالروائح الطيبة ، وتفتح فيها الزهور فهي كالدار أيام الربيع :

إذا ما كساهنَّ الربيع رباطه تارَّجن مسكاً أو نضاحكن عن در

وإذا كان الشعراء غير قادرين على التحكم بدموعهم عند رؤيتهم بقايا الربوع المافية فإن هذا البكاء عند البحري إرادي حسب مشيئة ، إنه طريقة مصطنعة :

إذا شئت أجزت أدمعي من شئونها ربوع لها بالبرقين وأرسم

١ - المنازل ، ص ١٤٠ ؛ المخطوطة ، ٨١ ب .

ويدعو المطر للسقوط في المحل رغم إقواء « منانيه » ، ويوحى لنا اتجاه بمن الماضي ، حيث أن « الأيام » الحالية « واليالي » ، « يضحكن » نيابة عن أيامه ولياليه الماضية ، وهذا كناية عن فرحة المنفى الماضية . لقد تغيرت عند البحري صفات المحبوبة المناجاة فعدت - تحت تأثير تجديد العصر [غائبة] ، وهذه صورة من صور التجديد عند الشاعر . والمناني عنده لم تمف من الاهل والاقرباء ، كما إنه لا يمن إلى هؤلاء ، بن إلى [النواني] ، اللواتي كن في هذه الديار ، حتى إن المطر الذي لا يشمر بالأم والمذاب يبي على هذه النواني « وإن كان خلياً » من كل ما يعانيه الاجبة . جاء النيت بنفسه على هذه المناني فأكسبها « حلاً حمة اللون »^(٢) . والمناني لم تقو لرحيل أهلها فقط ، إنما أقوت لدم وجود الشاعر فيها أيضاً : « شهدت لقد أقوت منانيكم بعدي » ، ويخلص الشاعر السقيم بالسلام والتحية دون الاطلال [أطلال المناني] التي لا يتركها في وجهه وبكائه :

« فعليه السلام لا أشرك الاطلال في نوعي ولا في نحيبي » ويصرح أنه ليس بمن يقف على الاطلال ، وسواء عنده أن يحجب من غير أن يدعى أو يدعو من لا يحجب :

« فسواء إجابي غير داعٍ ودعائي بالفقر غير مجيب (٢) »

١ - المنازل ، ص ١٠٠ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ؛ ديوان البحري ،

II ، ص ٣٣١ ، ٢٨٥ .

٢ - المنازل ، ص ١٠٣ ؛ ديوان أبي تمام ، 1٠ ، ص ، ١٢٢ .

من عادة الشعراء العرب للدعاء بالسقيا للدار الاحبة ، أما المتنبي فانه يدعو على الربوع بالعطش ، ويسأل المطر إن لم يعطشها فعليه أن يسقيها سماً قابلاً ، ويدعو على كل ما فيها عدا ما كان له فيها من « زمن الانس ووصف الخود » . وليست المثاني عند الشاعر بقايا مساكن القوم الذين رحلوا ، إنما هي أماكن الإقامة المسكونة ، التي لم يرحل أهلها ، إذ إن « مثاني الشعب أطيّب المثاني » ، وهي بالنسبة للأرض المحيطة بها « بمنزلة الربيع من الزمان » نضرة ، خضراء . إنها مثاني عامرة ، تغي فيها « الحائم الورق » وتردد أصداء غناها « القيان » الحسنات الجيلات (١).

التناول الأدبي الشعري الجديد لموضوع « المثاني والربوع » نمتز عليه أيضاً عند المري . فالغنى عنده لم يقتصر على المعنى التقليدي فقط ، إنما هناك « معنى من خيال » الحبيبة « محلال » . إن هذا نوع من التعبير والاستخدام الجديدين ، وفيه كناية عن التفكير الدائم بالحبوبة . والمري من خلال حنينه لحبيته (الزعومة) ، وهم مقيم في بغداد - دار السلام ، يحن إلى وطنه - مسقط رأسه المرة - . فإن فارق بغداد وأهلها ، ورحل ، وإن اشتاقوا إليه ، وسألوا عنه فليس عنده سؤال عنهم ، ولا شوق إليهم ، لأن شوقه كله منصب نحو أهله ووطنه ، لا يبدل بهم غيرهم :

متى سألت بغدادُ عني وأهلها فإني عن أهل العواصم سأل

شوقه لأهله ووطنه لا يفارقه ليل نهار ، يكابد ، ويعاني منه

١ - المنازل ، ص ١٠٥ ؛ ديوان المتنبي ، ج ٢ ، ص ٤٨١ .

دائماً ، فهاه ببلاده أفضل من ماء دجلة ، وأنفع وأمرأ ، وإن كان ماء دجله صافياً عذباً للذيد :

وماء بلادي كان أنجع مشرباً ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال

ويتناول الربوع بتجديد لم يسبق إليه ، إذ بخاطبته حبيبته يصرح بان الواجب يقضي عليه بتحية ربيعها ، لكنه لا يحية هذه المرة تحية تقليدية بالدعاء والسقيا ، بل كما يحية الملوك (ملوك المعجم والعرب) . يعظم الربيع ويكبره كتعظيمه ركن الكعبة والحجر .

« أقر ربيع كنت فيه كأنها أمر من الاجلال بالحجروالركن » (١)

في بقايا الربوع تعيش الضباع :

« ورباع كانت عرين أسود أصبحت للضباع مأوى ومعنى (٢) »

إن هذه الصورة إنما تحمل شيئاً جديداً بالنسبة للعلاقة مع الربيع ، ذلك لأنه لا يكثر على الضباع في الحالات المشابهة عند الشعراء الآخرين .

١ - المنازل ، ص ١٥١ ، ١٤٣ ، ١٠٥ ؛ سقط الزند ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، ٦٠ ؛ ج ١ ، ص ٢٦٠ .

٢ - المنازل ، ص ١٤٩ ؛ شعر المرتضى .

٣ - بقايا أماكن السكن

المعاني اللغوية :

آ - « الظلل » : ما شخص من آثار الديار بخلاف « الرسم » :
مكان لاصقاً بالأرض ، و « ظلل » كل شيء شخصه ، جمعها « أطلال
وطلول » . وقيل : « ظلل الدار » موضع من صحنها يبيتاً لمجلس أهلها
كالذكاة يجلس عليها (ذكاة : مصطبة) ، عليه الشرب والمأكل . ويقال :
طالك وأطلاك : أي : ذكاة شخص من جديد . وطالك وطالأك : أي
شخصك ، وأطلال السفينة : أشرعتها^(١) .

ب - « الدمن » جمع مفردة « دمنه » . « والدمنه » : آثار
الدار والناس ، وما سودوا من آثار البقر وغيره ، و « الدمن » : البئر
أو الزبل التلبد ، ومنه دمنت الماشية المكان تدميناً : برت فيه وبالت
فهو تدمين . ودمن القوم الموضع : سودوه وأزوا فيه بالبعر ، قال ذو
الرمة :

منزل دمنه أبونا الـ مورثون المجد في أولى الليالي

ومثلها « الدمان » بمعنى الرماد أو الزبل أو عفن النحلة وسوادها

١ - لسان العرب ، ج XII ، ص ٤٣ ؛ تاج الغروس ، ج VII ،

ص ٤١٩ .

« والدمنة » أيضاً : الموضع القريب من الدار . قال الرسول : « إياكم
وخضراء الدمن » أي المرأة الحناء في منبت السوء . وقال زفر بن
الحارث :

وقد نبئت المرعى على دمن الشرى وتبقى حزازات النفوس كجاهي

ومن المجاز « الدمنة » : الحقد القديم الثابت الدمن للصدر ،
وقيل : لا يكون الحقد « دمنه » حتى أتي عليه دهر ؛ ومنه « دمن
عليه » : حقد .

ومن المجاز أيضاً : دمن فلان المكان تدميناً ، إذا غشيه ولزمه .
قال كعب بن زهير :

أرعى الأمانه لا أخون ولا أرى أبداً إدمن عرصة الدار

ومنها « دمن الحجر » : شاربها وملازمها^(٢) .

ج - « الأثر » : هو بقية الشيء ، أو ما بقي من رسم الشيء ،
وجمعها « آثار وأثور » . « آثار المنزل » : بقاياه ، « والآثار » : الأعلام
يستدل بها . ومنها « أثر السيف » : ضربه ؛ « وأثر الجرح » : ما يبقى
بعد برئه . « أثر في الشيء » ، أي ترك فيه أثراً ، ومنه الأثره من
الدواب : أي العظيمة الأثر في الأرض بخفها . وتأتي « الأثر » بمعنى الأجل ،
الموت ، ذلك لأنه يتبع العمر . قال زهير :

١ - لسان العرب ، ج II ، ص ١٤ ؛ تاج الغروس ، ج I ،

ص ٢٠١ .

والمرءُ ماعاش محدود به أمل لا ينتهي المعر حتى ينتهي الاثر^١

وأصله من « أثر » مشيه في الأرض ، فإذا مات لا يبقى له أثر ولا يرى لأقدامه ذلك الاثر . « والاثَرُ » : سمة في باطن خف البعير يفتر بها أثره ، وجمعا « أثور » . « والاثَرُ » : بمعنى الخير ، جمعا « آثار » . ومنها « الآثر » : الخير ، وهي اسم فاعل من الفعل أثر الحديث عنه أي أخبر . « وقول مأثور » أي يحبر الناس به بعضهم بعضاً وينقلونه وهو اسم فاعل من الفعل المذكور . ومنه « المأثرة » : المكرمة ذلك لأنهم يأتونها أي يتحدثون بها . « وأثره العلم » : بقية منه تؤثر أي تروى وربما تفضل^(١) .

د - « الرسم » : هو الاثر ، وقيل : بقيته أو مالمصق بالأرض منه ، « رسم الدار » : ما كان من آثارها لاسقاً بالأرض وجمعا « أرسم ورسم » ، وفعلها « رسم » . رسم الغيت الدار : عفاها وأبقى فيها أثراً لاسقاً بالأرض ، « ورسم في الأرض » غاب فيها ، وبكى بها عن الموت ، ورسم على كذا : بمعنى كتب . « ترسم الرسم » : نظير إليه بمعنى « وترسم » : نظر إلى رسوم الدار بتأمل « تفرس » . قال ذو الرمة :

أَنْ تَرَسَّمْتَ مِنْ خِرْقَاءِ مَنْزِلَةٍ
مَاءُ الصَّبَاةِ مِنْ عَيْنَيْكَ سَجْجُومٍ

١ - لسان العرب « ح ٧ ، ص ٦٠ : تاج العروس ، العروس ، ح .
III ، ص ٤ .

ومن الجاز : « ترسم » القصيدة : أي تبصرها ودرسها وتذكرها ، ومنها : ثوب مرسم : أي مخطط بخطوط خفيفة ، وناقة رسوم : تؤثر في الأرض من شدة الوطاء . ويظهر الاسلام اكتسب الأصل معنى إضافياً ، فارتسم الرجل : « أي كبر ودعا وتمود » ، والارتسام : التكبير والتمود ، « ورسوم الدين » : طرائقه التي تبقى ، « ورسوم الخلافة » : عاداتها التي توارثت^(١) .

ه - وهناك مصطلحات أخرى منها : العهد ، جمعا « معاهد » . و « العهد » اسم مكان من الفعل « عهد » الشيء عهداً بمعنى عرف ، والعهد : هو الموضع كنت عهده أو عهدت هوى لك فيه أو شيئاً ، وأيضاً المنزل الذي لا يزال القوم إذا أتوا عنه رجعوا إليه . ومنه العهد : القديم المتيق الذي مر عليه العهد^(٢) .

- « علم » : « أعلام » : « معلم » : « معلم » . علم الشيء علماً : أي وسمه . يقال لما بنى على الطريق من المنازل يستدل بها على الطريق ؛ و « المعلم » ما جعل علامة وعلماً للطرف والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه . وقيل : المعلم : الأثر ، والمعلم : المنارة .

قال ابن سيدة : العلامة والمعلم : الفصل يكون بين الأثرين ؛

١ - لسان العرب ، ح ٧ ، ص ١٣٢ : تاج العروس ، ح ٨ ، VIII ، ص ٣١٢ .

٢ - لسان العرب ، ح ٧ ، ص ٣٠٥ : تاج العروس ، ح ٨ ، II ، ص ٤٤٢ .

والعلامة والعلم : شيء ينصب في القلوات تهتدي به الضالة ؛ والعلم :
العلامة . ومعلم الطريق : علامته . ومن الجواز : أعلام القوم =
ساداتهم (١) .

— عَرَصَة الدار : وسطها ، وقيل : وهو ما لانباء فيه . سميت
بذلك لاعتراس الصبيان فيها ، أي لنشاطهم فيها . « والعرصة » : كل
بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، وجمعها عراس وعرصات (٢) .

لا بد من الإشارة إلى أن أشعار الاطلال في فصلي الاطلال في
كتاب أسامة إنما مختلطة مع أشعار الرسوم ، والأعلام ، والآثار ؛ وفي
الواقع فإنه في الاستعمال المعنوي المحدد الدقيق لا يمتز إلا على اختلاف
بسيط بين هذه المصطلحات .

إن أماكن وقوف البدو تتغير بعد خروج سكانها ، وتبقى منها
قطب الآثار ، والرسوم ، والأعلام والاطلال ، ولهذا فمن الصعوبة
التعرف على أماكن الديار المهجورة . والشاعر وهو لا يتمكن من التعرف
على أماكن الديار يسأل : « ابن طلل بذى خيم قديم؟ » (٣) .

١ - لسان العرب ، ج ٧ ، باب « علّم » ؛ تأج العروس ، VIII ،
ص ٣١٢ .

٢ - لسان العرب ، ج ٨ ، VIII ، ص ٣١٩ ؛ تأج العروس ، VI ،
ص ٤٠٥ .

٣ - المنازل ، ص ١١٢ ، شعر طفيل .

لمن دمنة أفقرت بالجناب إلى السفح بين الملا والمهضاب (١)

وإن تعرف عليها فافقا بجهد وقوم ، فلم تعد تعرف (الاطلال إلا
نوها) ، وهل يمكن أن تعرف اطلال وتؤي (كخطك فيرق كتاباً منمناً) (٢) .
ويتذكر الشاعر جيداً مكان أماكن السكن المهجورة ، وبالتالي ، فعلى هذا
المكان لا بد أن تكون « بقايا الخيمة ، والمعالم ، حتى والرسوم الدوارس » .
لكنه بوقوفه هناك وبسؤاله لا يتمكن من الدور عليها ، وإن قدر له التعرف
على هذه الاطلال فلن يكون ذلك إلا بمساعدة ضوء الشمس الساطع في
وضح النهار . والسكان القاطنون بعد خروجهم ورحيلهم عن ديارهم إنما
يتروكون وراءهم « الرسوم الدوارس » ، حيث يقف الشاعر عندها
مندهاشاً سائلاً : « ابن طلل برامة عفا ؟ » . « أمن آل سلمى عرفت
الطولا ؟ » (٣) .

الرياح والأمطار والزمن قد غيرت الديار وأبقت منها فقط الاطلال ،
وبدلت الحياة السعيدة المهيبة السارة بالآلام والحسرات والمذابح . والمصاب
غيرت « الرسوم الدوارس » .

وتتابعت الرياح والأمطار الواحدة تلو الأخرى على الديار ففنتها :
« عفت الجنوب مع الشمال رسوماها » .

١ - المنازل ، ص ١٧٣ ، شعر لقيط بن زرارعة .

٢ - المنازل ، ص ١١٢ ، شعر حاتم الطائي .

٣ - المنازل ، ١٢٣ ، ١٢٨ ؛ شرح ديوان زهير ، ص ١٩٣ ، ٢٠٦ .

وغدت الدمنة قفراً بعد أن كانت « محلة محلاً » . إنه الدهر :
« يدل الأبدالا » . « وآثار الاحبة باين » ، وبقيت الموم عليها في صدر
الشاعر ، وبناجي الشاعر الربح :

« محوت آثارنا ، وتركت « آثاراً برقع الحبيب لم تكن » (١) .

بقايا هذه الاطلال : [علامات خفيفة كوشى على ثوب يماني
مزرکش] ، « حاج الفؤاد معارف الرسم قفراً كالوشم » .

أو « كخطك في رقب كتاباً منمنماً » ، أو « يلوح كأن باقيه
وشوم » ، أو [ككف فتاة أعيد صنع الوشم فيها أكثر من مرة لعدم
وضوحه] ، أو [كجلد رقيق يكتب عليه فتقى آثار الكتابة غامضة] ،
(والربع غدت آثاره كترقيش الأفاعي) ، (والطلل البالي غدت فيه
مرباط الخليل المهدمة كأنها التراب القليل الذي تخزجه التال من بيوتها) ،
(وأطلل مية قد غدت كالرقش في الثياب (٢) استمرت الرياح العاصفة
في هذه الرسوم حتى عفتها ، ولم تترك إلا كل صلب قلس من الحجارة
- (الاثافي الثلاثة - التي تبدو وكأنها حمامات متوالية للمعاركة) (٣) .

١ - المنازل ، ص ١٢٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٩٢ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ،
١٧٥ وغيرها . أشعار ، طيفيل ، النابعة ، بشر ، جرير ،
علي الكاتب وغيرهم .

٢ - المنازل ، ص ١١٨ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٢٣ ، ١١٤ ، ١٢٩ ،
١٧٨ ؛ أشعار طرفه الطائي ، زهير ، ذي الرمة ، أبي نولس .

٣ - المنازل ، ص ١٧٨ شعر الصمة القشيري .

لقد عفت الرسوم رغم بشاشتها فغدت وكأنها (سطور كتاب) :

أرسوم دار أم سطور كتاب درست بشاشتها مع الأحقاب؟ (١)

وشبه المتنبي دمتي (ربنا) في الصحراء بخالين في خد فتاة ،
والطلول في العرائس المداكنة بالنجوم في اليلة الظلماء ، إنها الدمن التي
تكاثر الموم على الشاعر في عرصاتها كتكاثر اللوام :

قِفْ عَلَى الدَّمْنَتَيْنِ بِالْدَّوْرِ مِرْيَا كَخَالٍ فِي وَجْنَةِ جَنْبِ خَالٍ
بَطْلُولٍ كَأَنَّهُنَّ نَجُومٌ فِي عِرَاصٍ كَأَنَّهُنَّ لِيَالِي

وقال :

ذِكْرُ الصَّبِيِّ وَمِرَاجُ الْأَرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حَيَامِي
دِمْنٌ كَثُرَتْ الْمُومُ عَلَيَّ فِي عَرَاصَتِهَا كَتَاثُرِ اللُّوَامِ (٢)

إن الشعراء يكون هذه البقايا والاطلال دموعاً غزيرة مدرارة ،
رغم بقيتهم بعدم جنوى البسكاه :

يَأْيُ الْخَلِيلِ بَكَاهُ الْمَنْزِلُ الْخَالِي ، والنوح في أرسم أقوت وأطلال (٣)

١ - المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر البحري .

٢ - المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، شعر المتنبي . [ذكر : جمع ذكرى] .

٣ - المنازل ، ص ١١٣ ، شعر البحري .

ورغم أن الوقوف على الرسم لا يعني [لو أغنى الوقوف على
الرسم !!] فإن الشاعر يقف ويكي الرسوم والديار « بكاءً على الأسى » ،
« بكيت فما أبقيت للرسم من رسم » ، إنها الديار الحزينة مثله لنقص
أهلها ، كلاهما تاحل سقيم ، سقاها المطر ، لكنها لم تزهّر إلا عندما
سقاها هو دموعه :

هو الرّسمُ لو أغنى الوقوفُ على الرسم

هو الحزْمُ لولا بُعْدُ عهدكُ بالحزْمِ

عشية جُنَّ القلبُ فيها جُئونه

ونازعني شوقي منازعةً الخصمِ

فلما أبى إلا البُكاءَ على الأسى بكيتُ فما أبقيتُ للرسمِ من رسمِ

سقاها الحياءُ قبلي فلما سقيتها

دموعي رأتُ فضل الولي على الوسمِ (١)

إن هذه البقايا [الآثار والاطلال والرسوم] بكبها ، تكون
واسطة إيقاظ الشوق والحنين ، والحزن والام والحسرة . ويسدعو لها
الشعراء - كالعادة - بالسقي والمطر ، وأحياناً « بالسلام والخلاص » (٢) .

١ - المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر ابن الخطيب .

٢ - المنازل ص ١١٩ ، شعر عمارة بن بلال .

من الضروري أن نشير إلى أن الاطلال والدمع والرسوم والآثار
المفناة ، التي درسها الرياح والامطار المتفادمة تبقى دوماً - كما
كانت المنازل والديار - مبعثاً للشوق ، ومهيئاً للعبة ، ومصدراً للذكرى
عند الشعراء المنزوين .

فكل من جميل وكثير يكثر من استعمال ألفاظ [تهبج ، اشتاق ،
تذكر] : [فالعارف والطلول] الاواني [عفون وخف منهن الجول]
قد (اشتقت) جميلة (وذكرته دنيا قد تولت) ، ولكن سؤال هذه
الطلول لا يجدي أحياناً أخرى إذ :

[كيف سؤال خيماتٍ بوالٍ ونؤي عهداً أحدثه مَحِيل؟! (١)]

وكذلك الامر عند كثير (لعة اطلال تهبج مغانها الطروب) ،
(أهاجك من سمدى طول) ، (طلل أقوى من الحلي) ، (تهبج)
المنازل (أحزان الطروب) ، وإذا ما سأل عن سمدى فان (حنائم أو
اطلال داره موائل) (يهبجه للذكرها) ، تلك الاطلال التي أضرت
بها (الأنواء والريج والندى) وغير مغانها تناقب الايام (٢) .

وكذا الحال - في هذا المجال - عند الشعراء العمريين [فالاطلال]
المفطرة التي [تمغت] حتى [رسومها] - وهناك تفريق بين الطلل

١ - المنازل ص ١١١ ، ١٢٦ . شعر جميل .

٢ - المنازل . انظر . أشعار كثير وجميل في فصلي « الاطلال » ،
والرسوم » .

والرسم - ، والتي غدت مع تعاقب الأيام وكأنها وشم خافت في كسف الفتاة قد [هاجت الذكرى والشوق] للحبوبة عند عمر بن أبي ربيعة^(١). وعلاوة على تلك الثغرات والعناصر التقليدية في التوجه إلى أماكن السكن ، وفي استعمال هذه المصطلحات الدالة على بقايا الدار يمكن العثور على عناصر أخرى جديدة .

يورد أسامة من أشعار ذي الرمة ثمانية مقاطع [٤٢ بيتاً] ، فيها وصف للطبيعة والصحراء البدويتين . ولا عجب في هذا وذو الرمة الشاعر الذي برز في وصف الطبيعة الصحراوية خاصة ، حيث نشأ في الصحراء . ثم زل في البصرة والكوفة ، فتلق ما كان فيها من ثقافات ، وبقي رغم ذلك شغوفاً بصحرائه القديمة ، يرحل إليها ، ليتأملها ويصور جمالها وسحرها تصوير الهائم الفتون ، وبهذا الهيام دبج لوحات رائعة لصحرائه ، مبعثلاً شعره في كثير من جوانبه رؤى وأحلاماً بهيجة . إن هذا الاكثار في وصف الاطلال والدمن كان في أي الفرزدق سبباً في عدم ذكر ذي الرمة في طبعة النحول^(٢). تنفى بصديقه (مي) فكرة ورود اسمها في هذه المقاطعات ، وارتبط بالاطلال والرسوم والآثار . وهو

- ١ - المنازل ص ١٢١ ، ١٢٢ ، انظر . أشعار عمر بن أبي ربيعة .
- ٢ - انظر . ابن قتيبة ، طبقات ، ص ، ٣٣٣ . (جاء الفرزدق فوقف عليه) على ذي الرمة (فقال له : كيف ترى ما تسمعون) (من شعر ذي الرمة) يا أبا فراس . قال : ما أحسن ما تقول . فقال : ما بآلي لا أذكر مع الفحول ؟ . قال : قصر بساك عن غلاتهم بكاؤك في الدمن والاطلال ، وصفتك للعطن والابار .)

بإستخدامه طرائق جديدة في المعاملة - معاملة هذه البقايا - إنما يعطينا لوحة فنية حية عن بقايا ديار البدوي - المسلم . يدعو إلى التسليم (على الطلل) البالي : « عليك يا أطلال مي سلام » ، رغم حداثة عهده مع إيمانه بأن الربع الذي غدت آثاره كنز قريش الافاعي لن يرد على التسليم ، كما أن الطلل سامت لا يجب . وبدعو خليليه إلى المرور على (الطلل) البالي الذي غدت فيه مرابط الخليل المتهدمة وكأنها شبيهة بالتراب القليل الذي تخرجه أنهار حول بيوتها .

الصورة الحية الكاملة لبيوت وأطلال وبقايا البدوي الاسلاميية يعطينا ذو الرمة بلسان جديدة في تناول والوصف : طلب من صاحبه أن يقف في (أطلال مية) ليسأل الرسوم الخرقه ، دموعاً لا ألقاها : فلم ير إلا الدمن التي هاجت شوقه ، إذ لم تبق إلا مرابط الدواب (وجوانب المسجد) ومناب القدر ، التي هي رواجل للرجل ، والريح الحارة تجر فيها التراب الرقيق كأنها تسكب من ثقب المنخل .

وتعرف بصعوبه على (أطلال مية) التي غدت كالقريش في الثياب ، فغلبه الهوى ، وتذكر ، وهل له عذر في التصابي ؟! لم يجد عذراً « بد عشرين حجة ، مضت لي وعشر قد مضين إلى عسر » ، فسكان ذلك سبباً لاختفائه شوقه عن رفيقه ذي العقل الراجح ، لكن لا حول بذلك ، فالدار هيته رغم أنه يخادع قلبه بالنسيان . وعندما يتذكر ويتكف النسيان ويتظاهر بالسلاوة^(٣) .

- ١ - المنازل ، انظر شعر ذي الرمة في : « فصل في ذكر الاطلال » .

والدموع والأمطار قد سقت « الاطلال والدمع والرسوم » ،
وغطتها بالاعشاب الخضراء الجميلة ، وبالأزهار المتفتحة المطرة^(١). ولم يتوان
أبو نواس - وهو الذي وقف ضد التقليد والمطالع الغزلية والأطلال - عن
استعماله لتمايزه المتصنعة بوخر الاطلال والتهمك عليها : « لمن طلل عافي
المحل دقيق ؟! » .

« لمن طلل أمشجه وشجاني وهاج الصبى أواهجه لأوان؟ » (٢)

وعبر أحياناً أخرى بوخر شديد - وهو في معرض التأسف
عليها - إذ شك في معرفة الرسم الذي لمرأته تتأذى منه العين ويلفظه
الوهم :

« ألا أأرى مثلي أمتري اليوم في رسم تَغَصُّ به عيني ، ويلفظه وهعي (٣) »

لكنه ، أحياناً يعود لمناجاة هذه الاطلال مناجاة لطيفة جديدة
بمناصر جديدة ، إذ لأول مرة نسمع ان الدمع حسنة الرسوم ، وطيبة
النسيم ، كما أننا لأول مرة نرى ان الدمع لا تبلى ، وباقوائها من سكانها
ليست قوب النعم :

١ - المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ،

شعر يهيس ، جرير ، ابن خباب ، أبي تمام .

٢ - المنازل ، ص ١١٤ ، ١٢٩ ، ديوان أبي نواس ص ٤٦٨ ، ٦٨ .

٣ - المنازل ، ص ١٧٦ : ديوان أبي نواس ، ص ٨٧ .

تجافى البلى عنهن حتى كأنها لبسن على الاقواء ثوب نعيم (١)

أما « الايادي » فانه يدعو إلى ترك الحنين والبكاء على هذا
الرسوم :

أَمِينٌ رَسَمَ نَعْفَى أَوْ رَمَادٍ وَسُجُجٍ كَالْحَمَامَاتِ الْفِرَادِ
أَطَاعَتِكَ الشُّوْنُ فَظَلَّتْ صَبَاً كَأَنَّ وَكَيْفَهَا وَهْيُ الْمَزَادِ
وَهَلْ يَشْتَاقُ مِثْلُكَ فِي دِيَارٍ عَفَّتْهَا الرِّيحُ وَالذَّيْمُ الْغَوَادِ
ذَكَرْتَ بِهَا سَعَادَ فَعَجَّتْ جَبَلًا عَلَى رَسْمٍ تُسَائِلُ عَنْ سَعَادِ (٢)

لم ير الربيع مرة « على الاطلال » عند أبي تمام إلا وسقاها
أمطاراً كثيرة . والجديد عنده أنه - بعكس باقي الشعراء - يوضح آثار
فعل هذه الأمطار : فهي في كل مرة تنهمر فوق الاطلال تغطيها بالأشجار
الكثيفة ، والأزهار الكثيرة الفواحة (٣) .

بقايا آثار أماكن السكن

عند أسامة

لم يكن أسامة ، في استخدام الانعام الشعرية المرتبطة بقايا

١ - المنازل ، ص ١٦٨ : ديوان أبي نواس ، ص ٤٤٧ .

٢ - المنازل ، ص ١٨٥ .

٣ - المنازل ، ص ١٨٢ .

أماكن السكن ، إلا مقلداً للشعراء الجاهليين ، بغض النظر عن كون حياته مرتبطة بأكبر مدن الشرق وقتها (حلب ، دمشق ، القاهرة وغيرها) . إن « الرسوم » التي أبقت مشاعره وأهاجته فوق عينيها لم تكن حضرية بل بدوية : إنها [وقفت على رسم يبداء بلقع] . بقايا أماكن السكن عنده « بكاء » لا ترد على الدعوة ، والرسم [صموت إذا دعي] ، لم تعرفه عينه إنما البلى أذهبها أنها دار الاجبة . ولا تستغري من الدهر (اخلاق جدة وتشتت آلاف وإحشاش يجمع) ، إذ (الموت سكان الديار ، وللبلى منازلهم ، وشملهم للتصدع) .

فما على المرء إلا الصبر على هذه الفواجع الاليمة لأنها سنة الكون^(١) . أما فيما تبقى من أشعار فان أسامة لم يذهب بعيداً عن هذا بل كان مقلداً .

لكن من الضروري أن نؤكد على التالي :

آ - « الآثار » عند أسامة لم تقتصر على معناها المادي فقط ، فقد ذكر بمعناها المعنوي إذ كي يؤكد رأييه يورد خبراً : بأن أرسطاطاليس كتب إلى الاسكندر كتاباً يوصيه فيه بمصالح ملكه ، ثم قال فيه : (اعلم أن الانام تأتي على كل شيء ، فتخلق الافعال ، وتقيت الذكر ، إلا مارسخ في القلوب بحجة تتوارثها الاعقاب ، فاجهد أن تظفر بالذكر الذي لا يموت ، بأن تودع الناس حجة يبقى بها ذكر مناقبك) . وكان (الذكر) هو الجانب المعنوي (للآثار) . ثم يورد آياتاً للعرى

يدعو فيها إلى ترك الآثار بوادي ملحوب ، إذ باتباع طريق الهدى يبقى للذكر الحسن :

اتبع طريقاً للهدى لاحقاً وخل آثاراً ملحوباً^(١)

ب - إن الشعراء على امتداد جميع العصور لم يوردوا تغييرات واضحة ملحوظة في استعمال مصطلحات (بقايا أماكن السكن) وفي التوجه اليها ، رغم تطور الحياة الاجتماعية والحضارية . فقد كان تقليد الماضي شائعاً في هذا المجال ، وصفة واضحة بارزة . ولقد نتج هذا برأينا - لأن المطالع الغزلية للقصيدة إنما تعتبر عناصر تقليد أساسية في بناء القصيدة ، وحافظت بذلك على هذا التقليد والتهج .

١ - اننازل دس ١٩٥٥ ديوان الازوميات ، ص ١ ، ص ١١٧ . [الاجب: الواضع] .

١ - اننازل ، ص ١٨٢ .

٤ - معنى الوطن الواسع

كما أشرنا سابقاً ، للدلالة على « أماكن السكن » في الشعر العربي قد استعملت عدة مصطلحات ، تعود بعمانيها إلى الحياة البدوية . وتوجد أيضاً مصطلحات أخرى تعني « أماكن السكن » ، لكنها توسع هذا المعنى حتى تصل إلى مفهوم الوطن ، وهذه هي :

أ - « المدينة » . « مدن بالسكان » : أقام فيه . فعل محات ، ومنه « المدينة » ، وجمعها « مدائن » أو « مدن » أو « مدن » وهو الأكثر استعمالاً . ومدن الرجل : إذا جاء المدينة . « والمدينة » : الحصن يبنى على مرتفع الأرض ، والنسبة له (مدائي) ، جمعها : مدائن . « والمدينة » : اسم مدينة بجانب الكعبة (مدينة الرسول) ، ويقال للرجل العالم بالأمم هو (ابن مدينتها) ، ولأمة : مدينة أي مملوكة ، وللمبد : مدبن^(١) .

ب - « الوطن » : المنزل تقيم به وهو : موطن الانسان ومحل . جمعها « أوطان » وأوطان الغنم والبقر : مرايضها وأماكنها التي تأوي إليها ، كقول الاخطل :

كروا إلى حريمكم تغمرونها كما تكثر إلى أوطانها البقر

١ - لسان العرب ، > XVII ، ص ٢٨٨ ؛ تاج العروس ، > . IX ، ص ٣٤٣ .

فعله (وَطَنَ بالسكان) (وأوطن) : أقام به واتخذ موطناً أو محلاً ومسكناً . وأوطنت الأرض ووطنها توطيئاً واستوطنتها أي اتخذتها وطناً ، وكذلك الاطنان . ومن الجاز : مواطن مكة : مواقيها . والوطن : المشيد من مشاهد الحرب . ووطنه على الامر : أضمر فعله معه وواقفه ، ووطن نفسه على الشيء وله فتوطن : حملها عليه فتحمته^(٢) أما في اللغة الحديثة فإن المعنى الاساسي للفظ (وطن) إنما يدل على المفهوم المعصري الحديث الشامل .

ج - « البلدة والبلد » : كل موضع من الارض عامر أو غير عامر ، خال أو مسكون . « والبلد » من الارض ، مكان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . جمعها بلاد وبلدان . وقال بعضهم : « البلد » : جنس السكان كالعراق والشام ، « والبلدة » : الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق . « والبلد الحرام » : مكة والمدينة (مدني اسلامي) . « والبلدة » : الارض أو القلا . « والبلد » : المقبرة من القمل « بلد » بالسكان ، أي أقام به وتزعمه . « والبلد » : الاثر ، جمعها أبلاد . قال القطامي : (في النجور كلوم ذات أبلاد) . وقيل للتعجير متبلد لانه شبه بالذي يتحجر في قلا^(٣) من الارض لا يهتدي فيها^(٤) .

١ - لسان العرب ، > XVII ، ص ٣٤٢ ، تاج العروس ، > IX ، ص ٣٦٣ .

٢ - لسان العرب ، > IV ، ص ٦٢ ؛ تاج العروس ، > II ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

د - « الأرض » : التي عليها الناس - مؤنثه وهي اسم جنس تأتي بمعنى الموضع والمكان نادراً . والأرض : سفلة البعير والدابة ومأوى الأرض منه . وأرض الإنسان : ركبته لما بعدها ، وأرض النمل : ما أصاب الأرض منها . فعلاً « تأرض » بمعنى ثبت ، وقيل : التأرض : التآني والانتظار^(١) .

إن حياة التنقل والترحال عند العرب - البدو ، وعدم الاستقرار ، وضرورة الانتقال من مكان إلى آخر سميًا وراء السكك والمرعى - كل هذا ينعكس في الشعر الجاهلي . ولهذا فإن مفهوم « الوطن » منذ الجاهلية كان مرتبطاً بظروف الحياة المادية : الحياة في مكان ما تنتم ، طالما أن هذا المكان يؤمن للشخص حفظ كرامته ، وحياة هنيئة سعيدة ؛ أما إذا لم تكن الظروف تناسب هذا وإن نبهت المقام ، فعلى الشخص أن يبدعه ، وينتقل إلى مكان آخر جديد إلى الوطن الجديد الذي يؤمن الحاجات فيه . وينبض النظر عن هذا ، فإن الإنسان (البدوي) يحببته الجديدة في مكان آخر جديد - [وطن] ، يحن إلى « الوطن القديم » . إن زامل بن عفير الذي غادر وطنه مكرهاً إلى الشام ، وانتهى به الحارث النسائي الأكبر ، وأكرم مناه ، حن إلى وطنه الأول ، إلى مواطن طي في الحجاز . ورغم زوله عند الحارث ذي الجند والمكرمات الواسع الشهرة والملك ، رغم زوله بتوى كرم ناعم البال بقي وطنه الحجاز يجتذبه :

١ - لسان العرب ، ج ٨ ، VIII ، ص ٣٧٩ ، تاج المروس ، ج ٨ ، ص ٣ ، ٧ .

غير أن الأوطان تجتذب المرء إلى الهوى وإن عاش كدًا ورغم حياته الناعمة بالشام ، فإن حشرات على وطنه تقف قلبه قدًا . إذ :

ليس يستعذب الغريب مقاماً في سوى أرضه ، وإن نال جَدًّا (١)
ذلك لأن الأوطان جواذب .

« وطن » الإنسان هو مسقط رأسه ، ومكان سكن أهله وأقربائه ، أكان خيمة أو منزلًا ، ربماً أو مفتى ، إنه المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته وقوته^(٢) . وتألف النفس الوطن حتى كأنه [لها جسد إن بان غودر هالكا] ، وعجبة الرجال الأوطان لأنها تذكرهم بأرب قضاها فيها في فتوتهم :

إذا ذكروا أوطانهم ذكسرتهم

عهود الصبى فيها فحنوا لذلك (٣)

وأغنى « البلاد » على الإنسان ، ذلك « البلد » الذي ولد فيه ، وترعرع ، وتلك الأرض التي أول ما لمسها^(٤) . « والوطن » هو موطن

- ١ - المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، شعر زامل بن عفير .
- ٢ - المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ .
- ٣ - المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان ابن الرومي ، ج ١ ، ص ١٣ .
- ٤ - المنازل ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

قد نالت نجد والحجاز بشكل عام ، والمدينة ومكة بصورة خاصة اهتماماً أساسياً عند الشعراء . وهم موجودون في بلد عن هذه المواطن ، يحنون إليها ، رغم أن بعضهم - أحياناً - لم يعيش فيها :

ذهب الرجال فلا أحس رجالاً وأرى الإقامة بالعراق ضللاً
وأرى المرجسي للعراق وأهله ظمآن هاجرة يؤمل آلا
وطربت أن ذكر المدينة ذاكر يوم الخميس فهاج لي بلبالا
وجعلت أنظر في السماء كأنني أنبي بناحية السماء هلالا
طرباً إلى أهل الحجاز ونارة أبكي بدمع مسبل إسبالاً (٢)

فالمدينة هي مدينة الرسول في الحجاز وموطنه ، وما زاد حنين الشاعر هنا وشوقه إخفاقه في العراق ، فالارتباط بالوطن قرن بالحالة الاقتصادية المادية حتى إنه ينافس المساعدة من السماء .

أما فيما بعد - في الوقت اللاحق المتأخر - فإن لفظه « وطن » عني بها « مدينة » مع التي تربط الشاعر روابط معنيتها ؛ فالنبي وهو عصر يشناق إلى حلب ، إلى بلاط سيف الدولة ، حيث كان عزه ورفاهيته ،

١ - المنازل ، ص ٢٥٠ ، شعر المازني .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٥ . شعر ابن المولى . [اللبال : شدة الهم] .

فأي شيء يمل نفسه ، وهو بعيد عن وطنه وأهله ، وليس له ما يلهم به ، ولا أحد يسكن إليه ؟ . مواساته في أن ظروف الزمان القاسية زائلة ، ولا بد من عودة إلى الوطن (١) . وعلى بنت المهدي ، في صحبتها لأخيها الرشيد الخليفة : وهي مغتربة بعيدة عن بغداد ، بالقرب من همدان ، اشتاقت وحنّت إلى بغداد ، حتى إذا ما أتاها [الركب من نحو أرضها تنفتت تستشفي برائحة القرب] ، فأرضها - بغداد ، لا أرض الخلافة كلها ، وحنينها للساكنين المحبين هناك (٢) .

أما اليمنية ، التي زوجها عمها إلى شامي نقلها إلى الشام ، فإن الشوق يأكلها إلى بلادها ، داعية لتلك البلاد بالسقيا ، حبث قومها مجتمعون ، رغم بقتها أن لا مجال للقاء . وداعية على كل عينة تترك اليمن (إد لا بارك الله في وجه كل عيانة تحب شامياً) (٣) .

و « الوطن » عند أبي العباس الأعمى هو سورية عامة ، ودمشق بصورة خاصة ، حيث يعيش أهله وأبناء قومه بنو أمية . وهو في الحجاز يحن إلى دمشق والأقرباء (٤) . وأبو العلاء ، وهو في بغداد ، يحن إلى سورية وخاصة إلى مدينته الصغيرة ، مسقط رأسه المصرة (٥) .

١ - المنازل ، ص ٢٢٥ ؛ ديوان المتنبي ، ص II ، ص ٤٦٧ .

٢ - المنازل ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٣ - المنازل ، ص ٢٤٩ .

٤ - المنازل ، ص ٢٥١ ، وانظر : أيضاً ص ٢٥٢ ، شعر ابن حمدان .

٥ - المنازل ، ص ٢٥٨ .

إن عمران بن حطان - برأينا - غوج لشعراء العقائد الدينية والسياسية ، الذين كثروا في عصره ، وكافوا بحظ اضهاد الخليفة وولائه ، فلا مكان إقامة دائمة له ، أزدي مرة ولوزاعي أخرى ، منتقل في الاقطار الاسلامية عليه يجد مأمناً على حياته ، إلى أن نزل بيمان بين قوم من عقيدته فاستقر وطابت له الحياة ، إذ نزل في خير أسرة ، يقوم بجميع الله شملهم من الأزد إن الأزد أكرم معشر ثمانية إذا انتسب البشر ، وأهله وقبيلته هم رجال متقدمه ، « ووطنه » المريح هو مكان سكناهم :

فنحن بنو الاسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر (١)

« والوطن » عند مجموعة من الشعراء « ليس مكان لعب الصبي ، حيث ولد الانسان وترعرع » ، لكنه ذلك البلد الذي يؤمن الحياة الاقتصادية الكريمة للرم . إذا كان الانسان في بلد عن وطنه ، ونال معاشاً ، فلا عليه أن يكثر زراعاً إلى الوطن ، فهاهنا « البلد الجديد » إلا وطننا كالعديم ، لكن خيرها ما كان عوناً على الزمن ، وكل تنقل في البلاد ، لا يعبأ بالحين ليؤمن راحته وحياته . إذ (وأحب لوطن البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المكسب) . لقد غدت الدعوة صريحة للازمة المسكان الذي (يكسب) فيه بشكل جيد (٢) .

إن موافقة البلاد وطيب العيش فيها هما معيار ارتباط بعض الشعراء

- ١ - المنازل ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٥ ؛ البرد ، السكامل ، ص ٥٣٠ - ٥٣٤ ؛ انظر أيضاً ، ص ٢٣١ ، شعر ابن حيوس .
- ٢ - المنازل ، ص ٢٣٧ ؛ ديوان البحري ، ص ٦٠ .

بالوطن . (وشر البلاد بلاد) لا يوجد فيها من يستراح إليه ، ويونس بده ، وشر ما كسبه الانسان هو ما عابه وأذله ، وشر صيد ساهه مشاركته فيه اللثام ، و « بلد الانسان » هو ما يوافقه ، وأقاربه هم أصدقائه ، وكل مكان واقفه ، وطاب فيه عيشه « بلده » ، وكل قوم صادقوه وأصفوا له الحبة هم رهطه الأذنون . فإذا ما أعجزته صداقة صديق لم يعجزه الرحيل عنه ، إذ في سمة الأرض بشرقها ومغربها مكان واسع للذهاب والمجيء ، وبسهولة يستغيث عن هذه البلاد ببلاد أخرى (٣) .

أما عند إلس بن قبيصة الطائي فيعثر أيضاً على عودة الى الارتباط العام « بالارض الرحبة الفسيحة » ، التي لا يعجزه إدراك أية بقعة من بقاعها . ينكر اتسابه إلى أم ربيعة أو مضرية ، ويؤكد أن وطنه « هو الأرض بأكلها » ، في هذا تنعكس وحدة الارض الكاملة ، هذه الوحدة التي تماكس التصور القبلي المحدد (٤) . وعلى العكس من هذا فإن حسب وجيبة بنت أوس للأرض يتعلق لا بالأرض بأكلها ، لكن بأرض عشيرتها فقط :

فما لي أن أحببت أرض عشيرتي وأبغضت طرفاء القصية من ذنب؟ (٥) .
إن هذا المفهوم الانساني العام للأرض « كوطن » معبر عنه بشكل ساطع في شعر شاعر متأخر عاش في عصر لاحق ، هو ابن الفرات .

- ١ - المنازل ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
- ٢ - المنازل ، ص ٢١٧ .
- ٣ - المنازل ، ص ٢٠٨ .

إنه في تنقل وترحال دائمين ، في شرق الأرض ومغربها ، فإن بان عين وطنه ، فله من أكوام النفاق النجائب موطن . ولا خير عنده في هذا فطالما أصله من تراب [فكها (كل الأرض) بلاده ، وكل العالمين أقربيه] . إنها دعوة إنسانيه مفتوحة^(١) .

في المفهوم الجديد « لالوطن » والحنين إليه تظهر آثار دينية اسلامية . « فالكعبة » - « البلد الحرام » « موطن » المسلم ، حتى لو لم يولد فيها أو يعيش . إنه يحن إلى الكعبة ، وإلى شاعر الحج ، وإلى « المساجد هناك » .

أعلمت كيف تصبري
عن رؤية البلد الحرام
والمشعرين ومسجد
بالخيف يشهد كل عام
وعن التزام المشعر
ين وعن صلاة بالمقام
وعن زيارة للنبي
المصطفى خير الأنام
كتصبر المدفوع بالأ
سقام عن طيب المنام^(١)

« وطن » الانسان هو « بلدة » ، إنه الحياة الدنيا (دار الفناء) . والانسان يترك الحياة الدنيا يبقى على الدوام في القرية :

١ - المنازل ، ص ٢٢٣ .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٧ ؛ شعر « الرجل المريض » .

يَقْنَنَّ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ حَبِيرَةٍ فَأَزْمَعَ عَنْ دَارِ الْفَنَاءِ رَحِيلًا
فَأَنْقَرْتُ مِنْهُ الْعَيُونَ فَيَأْتِيهِ تَعَوُّضٌ مِنْهَا بِالْقُلُوبِ بَدِيلًا^(١)

إن بعض الشعراء بأخذ العبرة والعظة من « الدلائل » الخالية ؛ فمسير الجميع إلى زوال ، ونهاية الجميع الموت ، ويتساءل أبو نواس عن كان قبله من ذوي البأس والخطر :

أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ وَالْخَطَرِ
سَأَلُوا عَنْهُمْ الْمَدَائِنَ وَاسْتَخْبَرُوا الْخَمَرِ
سَبَقُونَا إِلَى الرَّحِيحِ لِي وَإِنَّا لَبَا لِأَثَرِ
مَنْ مَضَى عِبْرَةً لَنَا وَغَدًا نَحْنُ مُعْتَبِرِ^(٢)

ويسأل أبو تمام المدينة الخربة على شط القرات لماذا أصبحت خراباً ؟ على الرغم من كونها عجا ، لا تنطق . فالبلى والتغير بينان فيها ، مهربان عن هلاكها ، كأنما سكن الفناء في فنائها ، أوصال فيها الدهر صولة مغضب :

١ - المنازل ، ص ٢٤٨ ، ٢٢٩ ، شعر ابن حداد الأندلسي .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٢ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٦١٢ .

قد قلتُ للزَّيَّاءُ لما أصبغتُ في حدِّ نابٍ للزمانِ ومِخْلَبِ
لمدينة عجباء قد أمسى البلى فيها خطيباً باللسانِ المُعَرَّبِ
فكأنَّا سكنا الفناء فناءها

أوصال فيها الدهرُ صولةً مُغضَبِ (١)

ويدعو أسامة لسؤال (المدائن) عن كان يلكها ؟ وهل علمت
من بعدهم خيراً ؟ فلو أجابت - وهي عالة بشأن الماضين الفارين -
قالت : لقد أرتهم الدنيا العبر ، فما اعتبروا ، فصيرتهم لقوم بدم غيراً :

سلِ المدائن عمن كان عليها هل أنست منهم من بعدهم خبيراً
فلو أجابتك قالت وهي عالمةٌ بسيرة الذاهب الماضي ومن عبرا
أرثهم العبر الدنيا فما اعتبروا فصيرتهم لقوم بعدهم غيراً (٢)

في أشعار شعراء المراحل المتأخرة غالباً ما تصادف ألفاظ (غربة
وغريب وغرياء) . ويصنف الشعراء في هذه الأقسام عذاب
وحسرة الانسائ وهو في ديار الغربة ، وبعبود عن شوقه وحنينه
للوطن .

١ - المنازل ، ص ٢٤٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ج ١ ، ص ١٠٢ . (الزياء :
مدينة خربة على شط الفرات) .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٣ .

- « الغريب ليس يستعذب مقاماً في سوى أرضه وإن نال جدّاً »
- « لاتنهرن غريباً طال غربته فالدهر يضربه بالذل والمحن
حسب الغريب من الدنيا ندامته

عض الانامل من شوق إلى الوطن » (١)
- « مامن غريب وإن أبدى تجلده إلا سيذكر بعد الغربة الوطناً » (٢)
- « فكل حرّاً إلى الأوطان ملتفت إذا لحّ عليه الدهر بالمحن » (٣)
- « لا يُدكرُ الرَّمْلُ إلا حنَّ مغتربٍ

لهُ بذى الرَّمْلِ أوطارُ وأوطانُ
تهفو إلى البان من قلبي نوازعهُ وماني البان بَلْ مَنْ دارُهُ البانُ
أسدُّ سمعي إذا غنّى الحمام بها كي لا يبين سرَّ الوجد إعلانُ » (٤)
« ومُغتربٌ ينقضني ليلهُ فَنُوناً ومُقتلتهُ تَدَمَعُ
يُورِقُهُ نأيُهُ في البلادُ فما يستقر به مضجعُ

١ - المنازل ، الفصل عن الوطن .

٢ - المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان الرازي ، ص ٥٢٤ .

٣ - المنازل ، الفصل عن الوطن .

٤ - المنازل ، الفصل عن الوطن ، شعر الشريف الرضي .

إذا الليلُ ألبسه ثوبه تَقَلَّبَ فيه فتى موجعُ (١)

لقد أمضى أسامة معظم حياته في «الغربة»، وهو في مصر،
يحن إلى شيزر وأهله هناك، ويشير إلى أن الوطن الحقيقي أعلى ما على
الدنيا إلى قلب المرء، ولو توفرت للمرء في «الغربة» كل ملاذ الدنيا،
فالحياة في الوطن تبقى دوماً أفضل وأمتع :

هَبْ أَنْ مِصْرَ جَنَّانُ الْخُلْدِ مَا لَشْ

تمتِ النَفُوسُ فيها من اللَّذَاتِ موجودُ
ما فيك لي سلمةٌ بامصر عن بلدٍ في أهله الفضلُ والإفدامُ والجودُ
ماذا انتفاعي إذا كانت زخارفُها موجودةٌ وحبيبُ النفسِ مفقودُ
وما الحياةُ لمن باتتْ أحبته رضى ولا هو في الأحياء معدودُ (٢)

لكن من جهة أخرى يبرر «غريته» وبؤكدها، ويزيد من فضلها،
ذلك لأنه في «الغربة» قد أمتلك الجهد والشهرة وعلا المنزل :

أظنَّ العِدي أنَّ ارتحالي ، صائري ؟!

ضاللاً لما ظنُّوا ، وهل يكسُدُ التبرُّ ؟

١ - المنازل ، فصل في ذكر البلاد ، شعر أشجع السلمي .

٢ - المنازل ، ص ٢٥٣ .

وما زادني بُعدي سوى بُعْدِ هِمَّةٍ

كما زاد نُوراً في تباعدهِ البدرُ

وهل في ارتحالي عن بلاد تنكَّرتْ لخلي أو للسَّاكنين بها فخرُ
وإن بلاداً ضاق عني فضاؤها لأرحب من أكنافها للعلَى فيترُ
وأرضاً نبت لي وهي أهلةُ الرُّبِّي

هي القفرُ لا بل دونَ وحشيتها القفرُ (١)

انظر لافاً من الأشعار المختارة في « كتاب المنازل والديار » ، في
فصول : [المدن ، والبلاد ، والوطن ، والأرض] ، يمكننا تقسيم
الشعراء إلى المجموعات التالية حسب ارتباطهم وعلاقتهم بالوطن :

أ - بعضهم يأبى الرحيل من مكان إلى آخر ، ويناضل ضده ،
ويدعو إلى المقام في الوطن مهما كانت الظروف . والبحث عندهم عن
عن الحياة المنعمة في بلاد غربة إنما هو دعوة غير عقلانية :

يطيب خبيث الأرض بالقرب منكم وينبث عندي بعدكم كل طيب (٢)

« وقيل لبعض الحكماء : ما اللئنة ؟ قال : الكفاية مع لزوم
الأوطان ، ومعادنة الأخوان ، قيل :

١ - المنازل ، ص ٢٦٠ .

٢ - المنازل ، ص ٢٥٢ .

ما الذلة ؟ قال الزوج عن الأوطان ، والتفصل بين البلدان (١) .
وبعيد الدار يكي دائماً وطنه ، وكلما طالت به المسافة ، طال به الشوق
والوجد :

« وارحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صتمعا
فارق أحبابه فما انتقموا بالعيش من بعده ولا انتقموا »
- « تأيتُ بشخص في البلاد مُشْرِقٍ

وقلبُ إليكمُ بالحنين مُعْرَبٍ
لحى الله رأياً زَيْنَ البُعْدِ عنكمُ

وهيمَةُ قَلْبٍ رَخَّصَتْ في التقلُّبِ (٢)

ويظهر هذا الاتجاه أيضاً بصورة واضحة جلية في شعر الوصلي :

مادَمَمتُ المُقَامَ في بَلَدٍ قَطُ . فعاتبتَه بغير الرحيل
إن تلقائي الزمانُ مَكْرُو هـ تلقَيْتُهُ بصبرٍ جميل (٣)

وسعادة الانسان ، برأي الخليفة علي بن أبي طالب ، تكمن في

١ - المنازل ، فصل « الوطن » .

٢ - المنازل ، فصل في ذكر البلاد .

٣ - المنازل ، ص ٢٥٤ ، أيضاً : ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

حياة الانسان بشكل لائق في وطنه .

« قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : من سعادته الرجل خمس :
أن تكون زوجته موافقة ، وأولاده أبراراً ، وإخوانه أضيافاً ، وجيرانه
صالحين ، ورزقه في بلده » .

ب - وفي الطرف الماكس لهذا الاتجاه يقوم اتجاه المجموعة الثانية
من الشعراء التي ترتبط علاقتها بالوطن بتوفر الكرامة ، والعزة ، والحياة
الودية . الانسان سعيد إذا كانت حياته في وطنه كريمة اجتماعياً واقتصادياً ،
أما إذا كان الأمر خلاف هذا فعليه الهرب من الظلم والذنية ، وهجران
الوطن ، والبحث عن وطن آخر حيث تؤمن له الحياة الهنيئة . إذ
- حسب تعبير الشاعر - لا يقبل الهوان إلا الجار ، أما النافقة الحرة
فتنكره . وإذا كانت العداوة في البلد فلا بد من الرحيل إذ لا يرضى
بالذنية أحد :

إن الهوانَ حمارُ البيتِ يعرفه والحُرُّ ينكسرُ هو الرِّسْلَةُ الأَجْدُ
وفي البلادِ إذا ما خفتَ نائراً مشبورةً عن ولاةِ السُّوءِ مُسْتَفْدُ
إن الذنبةَ لا يرضى بها أحدٌ إلا الأذْلاً لأنَّ عَيْرُ السُّوءِ والوَيْدُ
هذا على الخسفِ عبوساً بَرَمْتِه وذائِشَجٍ وما يكي له أحدُ (١)

١ - المنازل ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، شعر المتلمس . [الرسالة : النافقة
السهلة ، والأجد : الموقفة الخلق ؛ المنتقد : المتحني ؛ الرمة :
قطعة من جبل] .

فالأرض واسعة عريضة ، خلقت « ليسكن منها السهل والجبل » ،
ولهذا ما على المرء إلا أن ينتقل من مكانٍ إلى آخر طلباً للكسب والحياة
الحرة الكريمة :

- إن كنتَ تزعمُ أنَ الأرضَ واسعةٌ

فيها لغيرك مرقادٌ ومرنجلٌ

فارحلُ فإن بلاد الله ما خُلِقَتْ إلا ليسكنَ منها السهلُ والجبلُ

وأبغِ المكاسبَ من أرضٍ مطالبها

من حيثُ يحملُ حتى يشفَدَ الأجلُ (١)

- ففي الأرضِ منأى للكريمِ عن الأذى

وفيها لمن رامَ القبلى متحوِّلُ (٢)

فالأرضُ واسعةٌ عريضةٌ ، ليس فيها ضيقٌ على المرء الذي يحكم
عقله في تسيير الأمور ، والمرء يجار الجوع ، ولا يقبل الضيم والأذى ،
والمضايقة النفسية . لولا اجتذاب العار واليبس لأقام في الشرب والتأكل
المؤمنين له ، لكن هذا لا يكفي ، فالمرء يطلب الكرامة في موطنه ،
فإن لم تتوفر لما عليه إلا هجران ذلك الوطن ، ذلك لأن الرحيل عن

١ - المنازل ، ص ٢١٤ ، شعر حاتم الطائي .

٢ - المنازل ، ص ٢١٣ ؛ لامية العرب . في ملحني للمعلقات ، ص ،
٩٧ ، وانظر . المنازل . ص ٢١٤ ، شعر الكلبي .

مثل هذه الأرض ضرورة حتمية لا مناص منها ، لأن الداء العياء لا بد
من حسمه جذرياً بلا هوادة :

تحمِلُ عن الأرضِ المريضة غادياً ولا ترضُ للداءِ العياءِ سوى الجسمِ

وما فتئتُ روحُ الفقى في نوائبِ ثمارِ سُها حتى استقلتْ عن الجسمِ

إذا ما تفرَّقنا خلصنا من الأذى ولم يحتجِ الراعي المسيمُ إلى الرسمِ (١)

وفي أشعار الشعراء المجهولين تظهر الدعوة صريحةً للانتقل والترحال
عن الوطن ، فعلى المرء أن :

(لا يصرفه عن عزمهم به نزوع إلى أهل وأوطان) .

وهو في الوطن الجديد يلقي الأهل والأخوان :

يلقى بكل بلاد هو ساكنها أرضاً بأرض وإخواناً باخوان

إن محالفي أوطانهم أشبه بسكان القبور ، لانه بالرحلة والتغرب
- الفنى والتقدم ، إذ لولا التغرب ما ارتقى در البحور إلى النحور ،
وليرحل المرء حتى لو كان إلى الصين أو عدن إذ :

كل خلٍ إذا صافيته سكن وكل أرض إذا أهدتها وطن (٢)

١ - المنازل ، ص ٢١٣ ، ٢١٧ ، شعر المري ، وانظر ، ص ٢٤٠ ،
شعر السلياني .

٢ - المنازل ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ،
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

وفي أشعار معاصري أسامة [ابن أبي جردة ، ص ١٧٠-١٧١ ،
وأبي نصر ، ص ٢١٩] نثر على الحنين إلى مساقط الرأس ؛ والشاعران
يعيشان حياة كريمة هائلة في «الغربة» يسميان إلى العودة إلى الوطن ،
والموت خير لهما من أن يبقيا على الدوام في «الغربة» :

أصبح شملِي إلى الشّتاتِ وأصبحتُ غريباً وما بنا وطني
الناس لاهون في أماكنهم ونحن في رحلةٍ وفي ظمَنٍ
كأنا من مُتَيْمِي العَرَبِ الـ مَرَباءِ تهوى المعاج بالدمَنِ
لاصبرَ لي قد خرجتُ من جِلْدِي

وقد سَلَبْتُ الحصينَ من جُنْتي
ومجَّ سَمْعِي لَنَوِّ الحديدِ فما يَطُورُ شيءٌ منه على أَذُنِي
جمعتُ ، والهفتاه ! قلبَ قَتِي يغرُّ عن همِّ شارخٍ يَفَنِ
ورتبةً في الملاء تَبِيها صورةٌ مُسْتَبْدِلٍ ومُتَمَتِّنِ

[الشارح : الشاب ؛ اليَقَن : الشيخ]

وسديد الملك - جد أسامة ، المدافع عن ملكه ووطنه شيزر ،
والاستمد لاعطاء كل شيء في سبيل حفظ شيزر ، وصيانة حريتها ،
يستغرب تصميم المهاجر على الرحيل ، وقطع الفياقي كأنه قلمي القلب ،
لا يقلل حسب الوطن عنده من عزمه على الرحيل ، ولا يهسدي
الحنين إلى رسوم الدار :

لله ما طيفُ أَلَمٍ بفتيةٍ تحنو رؤوسُهُمُ على الأكار
يطويهم عرضُ الفلاةِ مُسَرَّبِلٌ حُلَلُ الثناء ممزقُ الأطار
لافتتُ الأوطانُ عزمته ولا يهدي الحنين إلى رسوم الدار (١)

أما أسامة فقد غادر وطنه الام مكرها وأمضى قسماً كبيراً من
حياته « غرباً » ، وحن إلى وطنه طيلة حياته سواء أعالش في نعم او في
عذاب . لقد كان ارتباطه بأهله ووطنه من الصفات المميزة له ، وهو
الذي عاش كالطريد من بلد إلى آخر ، بلاوطن ولا خلان ، عيداآخرين
موسم لعويله بما يثيره من الذكرى ، ومرورهم عنده أحزان ، إذا ما
رأى شملاً مجتمعاً نزاحت في قلبه الهموم والاحزان لا حداً بل من الذكرى
المؤلمة الماضية ، لقد أفردته الحوادث فلم يبق له أنيس ، ولا في طسارق
الخطب أعوان ، حتى لكأنه ليس كباقي البشر ، فقد نبت به البلاد فباله
على وجه الارض وطن ، ينقل ويحول بلا استقرار ، فاذا ما حط عصا
الترحال ، وحاول الاستقرار دعاه إلى الترحال ظم وعدوان ، حتى غدا
القبور أرقف به من دار سكنها [بصور] . حتى إن مصر التي قضى
فيها من حياته عشر سنوات لم تنسه وطنه ، ولم تنفه عنه . إنها ليست
أول أرض مس تربتها جلده ، فليس له فيها وطن ولا وطر ، إنما وطنه
هو مكان مولده ، لكنه قطن مصر مكرهاً إذ : « إذا حمت الاقدار كان لها
قوى تؤلف بين الماء والنار (٢) » .

١ - المنازل ، ص ٢٣٩ .

١ - المنازل ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ؛ ديوان أسامة ،

ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٧٥ .

بعد استقراء هذه المعلومات التي أوردناها فيما سبق ، ونتيجة
لدراستنا وصلنا إلى تقرير النتائج التالية :

إن البكاء على أماكن السكن ، [البيوت والدور والمنازل]
وآثارها في الجاهلية ما كان إلا فناً شعرياً منفصلاً مستقلاً مفعماً بالحياة
والشاعر الصادقة . وفي العصر الأموي كان التوجه إلى أماكن السكن
بشكل عام ، وإلى آثارها بشكل خاص في الحب العذري ، كما في الحب
العمرى الواسطة للتعبير عن المشاعر والآلام والمعاناة عند الشاعر . وأماكن
السكن هذه عند الشعراء المذريين مرتبطة عند كل منهم باسم محبوب
محددة واحدة ، وعند العمرين - بعدد من المشوقات ، أما شعراء البلاط
فكانوا مقادين في هذه المطالع - مطالع القصائد الطللية ، لا يتلكون أية
رابطة مع هذه الأماكن [أماكن السكن] التي يكونها ، وآثارها
وبقاياها ، باستثناء بعض الحوادث عندما وصفوا القصور الفخمة [قصور
الخلفاء] ، أو بكوا دمارها وخرابها ، ذلك الخراب الذي أيقظ عنده
الشاعر المشاعر الحزينة الصادقة . أما فيما بعد - في الوقت المتأخر - فقد
ظهر اتجاه التجديد الذي وقف ضد هذه المطالع ، ودعا إلى نسيانها وإحلالها:

دع الرسم الذي دثرا يعاني الريح والمطرا

لقد وقفنا على حقيقة جديدة وهي أن الدعوة إلى الكف والامتناع
عن بكاء المنازل في المطالع الطللية يجب ربطها باسم الكمية بن زيد
الذي عاش تقريباً بنصف قرن قبل بشار وأبي نواس ، لكنها لم تأخذ
عنده ، كما لم تأخذ عند من سبقه صورة اتجاه أدبي متكامل .

وبالاستناد إلى هذا فقد قررنا أن الدعوة إلى الامتناع عن هذه
المطالع الطللية ، وبكاء المنازل والديار ، كانت قد ظهرت لا بدافع
الشعورية عند بشار وأبي نواس ، بل بسبب الشروط والظروف الاجتماعية
والاقتصادية الجديدة في حياة الرباعي كانت قد توطدت في البلاد والمصار
الجديدة ، لاستقرارهم الدائم في المدن بعيدين عن الصحراء .

لفظة « منازل » تستعمل أيضاً بمعنى « القبر » و « المسجد »
و « القصر » ، أما « البيت » فبمعنى « القبر » و « الحام » و « شرف
القبيلة » ، كما أنها امتلكت أيضاً بعض المعاني الدينية الجديدة . وعند بعض
الشعراء ، في تناولهم لموضوع « البيت » تنتشر بعض الألحان الاجتماعية
الطليقة .

إن العناصر التقليدية في وصف وتصوير أماكن السكن مع بقاياها
تركزت في كونها : [معانة ، غير معروفة ، غير مسكونة ، خالية ،
أماكن سكن الحيوانات والطيور ، تنير تحت تأثير الرياح ، والامطار ،
والزمن ، والقدم ، والفرار ، بقاياها شبيهة بقايا الوشم في ظاهر اليد ،
وبرسوم واهية على ثياب خلقة ، وبآثار القلم الباهتة على الورق ، ومجملد
الاقصى المزركش .. الخ] .

وتحت تأثير شروط الحياة الجديدة يلاحظ تجديد واضح في وسائل
التجسيم والتصوير ، وفي طرائق تناول أماكن السكن ، وبقاياها : لقد
غدت المحبوبة [ثانية] ، والمغاني تكتسي ألبسة جديدة ، إنها غير خالية
هي الرئيسة بالنسبة لما يحيط بها من أرض ؛ على أغصان أشجارها ينرد
الجنم ، وصدى هذا التفريد تردده الغائيات المدهشات الجيلات . وأصبحت

الربوع مدنية ، يهب عليها النسيم اللطيف العليل الربط ، وتغطيها - مع بقايا الديار (الرسوم والاطلال .. الخ) - الحدائق الجميلة المزدهرة ، ويرتبط بها بشاعر أشبه ما تكون بشاعر الاحترام والاجلال للكعبة ، وتبجل كاللوك والقياصرة ، إنها لا تغفو ، لكنها على العكس ، تلبس مع الايام الثياب الغنية الجميلة القشبية .

أما فيما يخص المصطلحات التي المعنى المعنى الاوسع للوطن (مدينة ، وطن ، بلد ، أرض) فيلاحظ أن معظم الاشعار إنما تخص شعراء العصر الاسلامي . عندئذ لم يعد « المنزل ، أو « المعنى » هما « الوطن » و « مكان السكن » ، إنما غدا « الوطن » هو « المدينة » ، « قطعة من الأرض » ، « بلد » حتى « والأرض » بشكل عام كامل .

ويتكلم هؤلاء الشعراء أكثر وأكثر عن « الغربة » و « الغربة » في الوقت الذي يعثر فيه على هذه الألفاظ بشكل قليل نسبياً في الشعر الجاهلي . وربما كان هذا مرتبطاً بحياة التنقل والترحال عند العرب - البدو ، الذين يتنقلهم في مناطق واسعة من الأرض لم يجدوا المعنى بشكل دقيق محدد للكلمة « وطن » ، و « غربة » .

لقد دعا بعض الشعراء المجهلين إلى التنقل في كل الأرض ، وإلى ترك ذلك القسم من الأرض الذي يفتقر للعدالة . أما علاقة الشعراء بالوطن فقد كانت على مر العصور مهزوزة غير ثابتة . إذ دعوا في أكثر الجالات إلى التنقل والرحلة ، وإلى عدم الاستقرار في الاماكن التي هم فيها مظلومين ، وكرامتهم مهانة ، ولا عدالة عندهم ، وأحياناً قليلة دعوا إلى الاستقرار الدائم في هذه الاماكن رغم كل العيقات والظروف .

في شعر بداية القرن الثاني عشر XII الميلادي لا تلاحظ تغيرات كبيرة في تناول موضوع الوطن ، وتطور هذا الفهم . فأسماء ومعاصروه لم يسبروا هكذا بعيداً عن الشعراء السابقين لهم ؛ انصف شعرهم أيضاً بذلك الاسلوب ، وتلك التلميحات اللغوية السائدة سابقاً ، وبذلك المجموعة من أنغام المطالع الطالعية لقصيدة أيضاً . وما « الوطن » في مفهوم أسامة إلا ذلك المكان المحدد ، غير الكبير ، ما هو إلا « شجرة » مسقط رأسه ، حيث ولد ، ويعيش أهله . لكن (دراما) حوادث عصره ، وعميق آلامه الشخصية - كل هذا صبغ شعره بالاخلاص والصدق والواقعية . ونحن نقرأ شعر أسامة نشاركه أحزانه ، ونحس بآلامه ، ذلك لأن ما يخرج من القلب يدخل في القلب مباشرة . إن هذا الاحترام للتقليد [للشكل التقليدي] ، ولحيوية المحتوى « إنما مدين له شعر أسامة ، ومدين له أيضاً ظهور هذا الكتاب « كتاب النازل والديار » .

★ ★ ★

« أهل الرجل » هم عشرته وذوو قرياه ، وأخص الناس به ، وعلى التخصيص زوجته وربما أولاده فقط . وقيل : من يجمعه وإياهم نسب أو دين . أو مايجري مجراها من صناعة وبيت وبلد . « فأهل الرجل » - من يجمعه وإياهم مسكن واحد ، « وأهل المذهب » وه أهل الاسلام : من يدين به . « وأهل الأمر » : ولاته . « وأهل النبي » : أزواجه وبناته وصهره علي . « وأهل كل نبي » : أمته . « وأهل القرآن » : حفظه . « وأهل الله » المؤمنون به . جميعا : أهالي وأهلون . مأخوذة من الفعل : أهل الرجل يأهل أهولا : فهو آهل ، ومأهول به أهله . واتهل وتأهل : اتخذ أهلا ، وقيل تزوج ، والحيوانات الأليفة : أهلية ، والمستوحشة : برية . وفي الدعاء : أهلا : أي أتيت أهلا لا غرباء ، فاستأنس ولا تستوحش ، وأهل به : قال أهلا ، ومنها آل الرجل : أهله (١) .

أما الاخوان : فجمع مفردة : أخ . وهو من ولده أبوك وأماك ، وأحدهما ، ويطلق على الاخ في الرضاع ، وقد يكون الصديق أو الصاحب وخصص في (التهذيب) « الاخوة » : إذا كانوا لاب في الولادة ، « والاخوان » : إذا لم يكونوا لاب ، في الاصطفاء . وهذا رأي أهل البصرة ، إذ يقولون : رجل من إخواني وأصدقائي ، فإذا كان أخاه في النسب ، قالوا : إخواني ، ويرى بعضهم أن هذا خطأ إذ [إنما المؤمنون

رَفَعُ

عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

الأهل والاهوان (المواطنون)

١ - لسان العرب ، ج . XIII ، ص ٢٨ ؛ تاج الفروس ، ج .

[إخوة] في القرآن الكريم لا على النسب . وعلى المجاز : « إخوان
الغزاة » و « إخوان العمل والصدق » : أي أصحابه وملازميه . فقلها
- أخى - رجل مؤاخاة وإخاء : أي اتخذ أخاً ، « أخى » بين
المهاجرين والانصار : أي ألف بين قلوبهم . « والاخوة » : قرابه الأخ ،
أما التأخى : اتخاذ الاخوان (١) .

يقول أسامة في مطلع هذا الفصل : [هذا الفصل كان موضعه
صدر الكتاب : إذ كانت المنازل والديار إنما تبكى لسكانها من الاهل
والاخوان والاجاب ، لكني أخرته : لاختم به الكتاب] .

ومن أشعار أسامة أيضاً - إضافة الى قوله هذا - يظهر انه من
اولئك الناس الذين يكون الديار لسكانها لا لنفسها . فالتعلق بالارض
والوطن إنما تعلق من خلال التعلق بأهلها .

« الاهل والاخوان » في شعر شعراء المراحل الاولى (امرئ
القيس والجهمي ، وأبي دؤاد الياضي وربان بن منظور ومقاس بن شريك
وابن مقبل وفريد بن الصمة) ما هم إلا أفراد القبيلة ، أو الفخذ ، أو
العشيرة ، أو الاسرة (الاقرباء بالدم) ، فامرؤ القيس في سيره هارباً
إلى قيصر باحثاً عن حماية عنده تذكر اهله الصالحين (أبناء عشيرته) ،
وهو في بعد عنهم ، في حوران ، وحماء ، وشيزر ، يحن إليهم ، ويفقد
الامل باللقاء بهم . إن رحلته شاقة ، تتطلب منه الجهد والصبر . فهو

١ - لسان العرب ، ج . XVIII ، ص ٢٠ : تاج العروس ، ج .
X ، ص ١٠ .

« أخو الجهد » (١) . و « الاهل » أيضاً في شعر الجهمي هم اقرباؤه
اعضاء « فخذ » عشيرته الاقربين ، الذين مرت عليهم عوادي الزمان .
إن مقطوعاته الشعرية في رثاء اهله تجسد أحزانه واتراحه وتقطر حزناً
واسى . إذ لسنوات ثمان خلت قد أثبت بهم الكارثة ، ثما الدار الآت
كمدته بها ، لقد عهد فيها (حياً كراماً) . كأنهم الملوك عظيمة وفروسية ،
فتيان صدق من معدن اصيل ، اغنياء كرماء ، فثرت عليهم عوادي الايام
ولم يبق سوى الليل والايام من تلك الديار واهلها إلا (معانياً) ، مغاني
قوم غالتهم المنية ، فندت اماكن حولهم تبكي وتبكي ... لقد غفت ديارهم ،
فندت كأغلبية السيوف الرقيقة الهزيلة . إنها (دار قومه) الذين حلوا
بها قبل ان تصيهم البلية ، وهم (من خير حي على الارض) ، يثيئون
من يستنجد ، ويكرمون الضيف ، ويرتاحون للعطاء والكرم السريع ،
ولا يستخفهم الطيش عند الغارة لانهم ذوو رزانه ، علامتهم واضحة
يعرفون على الدوام بفعلهم الخير ، اصحاب مروءة وشرف ، هلكوا فاضلته
جارتهم (زوجته) عن (أمته) (اهل قومه) (٢) - وذو العقل يسأل
إنذا لم يعرف الخير اليقين - سألته عن اناس هلكوا ، واكل الدهر عليهم
وشرب . إن اولئك الذين يرقدون في القبور - هم (ربة الاقرب - اهل
داره ، فضله من عشيرته ورهطه ، إخوته بالدم) (٣) .

١ - المنازل ، ص ٤٣٩ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ٦١ .

٢ - هناك ، ص ٤٦٣ - ٤٦٧ ؛ شعر الجهمي ، ص ١٦٦ ، ٨٥ ،
١٣ ، ٢٢٣ .

٣ - هناك ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ .

بعض الشعراء المخضرمين (الخنساء وقس بن ساعدة وأميمة بنت عبيد شمس وابو خراش، وابو زيد الطائي، وابو طالب) يستعملون المصطلحات « اهل » ، « إخوان » تقريباً بهذه المعاني المشار إليها سابقاً . فالنكية المؤلمة قد قضت على « إخوة الخنساء » ، « واهل بيتها » ، تركه لها الألم والاسى ، والقلب الجريح المكسور^(١).

وموت « أخي » قس الصميمين (بالدم) الاثنين جلب له الارق والحزن ؛ يبكيها وهو قائم على قبرها . ولو كانت الفدية ممكنة لقدمها بحجمه وحياته^(٢) . وفقد أميمة لقومها ، وابي الخراش لآخوته أيقظ عند الشاعرين شعور الألم والنجوى والحزن على الاقرباء ، والثغني بمجدهم الغابر وكرمهم^(٣) . وفي اختلاف عن هذا فان الخليفة علي بن ابي طالب يحسن ويبكي بكاء مرأ على « رفاقه » ، الذين غادروه واعتزلهم الموت ، « فهو يذكركهم دائماً ناسياً من يحيطون به حتى لو كانوا اهل ، إنهم بالنسبة له ليسوا رفاقاً ، واصدقاء فحسب ، بل « إخوان في الصداقة » ، ومن الشوق والحنين إليهم يشتهي الموت ليلتقي بهم^(٤) .

لقد كانت الصفة الاساسية عند شعراء عصر بني أمية ، كما هو

١ - هناك ٤٥٠ ؛ ديوان الخنساء ، ص ١٤٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٥٣ ؛ الأغاني ، ص ٢٤٧ ، XV ، ص ٢٤٧ (دار الكتب) .

٣ - المنازل ، ص ٤٤٥ .

٤ - المنازل ، ص ٤١٨ .

الحال عند شعراء الجاهلية ، بكاء العشيرة ، والعائلة ، والاقرباء ، والاصدقاء ، مما جعل أشعارهم مملوءة بمشاعر الألم الصادقة ، والعتاب ؛ يبكي الشعراء هنا قدمهم لأقربائهم ، ويتنقون ، ويمجدون ، ويفخسون بـ [أجداد الشهداء ، ويمزون ويواسون نفوسهم] ، بزاء ديني : [إن الانسان لا يستطيع أن يهرب من القضاء والقدر ، الذي حسب قوانينه يسير كل الناس لنهاية - الموت . لفظه « الأهل » تستعمل عندهم كما عند من سبق وأنشروا اليهم بمعنى : « عشيرة » ، و « قبيلة » و « عائلة - أسرة » ، و « أقرباء » ؛ أما لفظه « إخوان » : فبمعنى « الاخوة بالدم » ، و « الاصدقاء » ، و « الرفاق » ، و « الرفاق بالمعتقد الديني » [. وأصبح ابن فورة الذي يبكي أخاً بالدم (مالكاً) رمزاً للبكاء في الرثاء . ويرثي أضرع بن حميد « بني أسد » ، وحارثة الغدالي - أهله ، وبصورة خاصة عائلته وأسرتهم ؛ ويندب ابن ميادة « بني ذر » ، وبس - آخوته القتولين ، وثوبه بن المضرس : لإخوته ، واصدقاء القتال ، والفرزدق : الاقرباء الموتى - أعضاء قبيلته ، وأولاده القتولين ؛ والمثني وأبو ذؤيب بكيان أيضاً أولادها ، (عند الآخر قد ماتوا دفعة واحدة بالطاعون)^(١).

وكذلك فان السموعل ، ونهار بن قوسجة وليل بننت طريف يعبرون عن أحزانهم في قصائد رثاء يرثون بها إخوانهم ، ووضاح اليمني - لإخوته وإياه ، أما شبيب البرصي ، وأبو سميذ ، وعبدالله العجلي ، فلمهم

١ - المنازل ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٣٥ ، ٤١٥ ، ٤٥٠ ، ٤٢٤ ،

٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

يرثون قبائلهم والأقرباء المقربين^(١) . ويعطي محمد بن خالد - في رثائه عمر بن عبدالعزيز - المعنى العام والمواساة الدينية ، إذ لا يمكن صد المنون ، فالوت قدر حتم على كل مرء حيث سيموت في وقته دون تأخير أو تقديم . أين الملوك ، وعيشهم ، وزمانهم ؟ إنهم ذهبوا ، ونحن على طريقهم ، فمن مفجوع إلى مفجع ..!

إن معظم الشعراء يكون أقرب المقربين لهم بالدم ، لكن ، علاوة روابط القرابة الدموية ، فإن الناس يرتبط بعضهم ببعض بعدد من الروابط الأخرى القوية المتينة ؛ هكذا ، مثلاً ، المعتقدات الدينية - السياسية التي تجمع حولها الرفاق الأصدقاء بالمعتقد ، أصحاب الرأي الواحد . ومثله في هذا أيضاً عمر بن الحسين ، وأبو عباس الأعمى . عند مرداس ، كما عند جميع شعراء الخوارج ، الشعر تمتلئ بالصدق والاخلاص ، ويقتصر بالأم والحزن والأسى ، ويعكس تلك الروابط القوية بين أنبناء مذهب الخوارج ، هذه الروابط التي صبغت بالدم ، والثبات والقتال^(٢) . وشبيهة بهذه الأشعار أيضاً : أشعار ابن الحسين الذي يبكي فيه مقتل (الاباضية)^(٣) . لكن أبا العباس الأعمى ، على العكس ، يبكي أعداء الخوارج - الخلفاء السابقين ، بعد أن قضي على ملكهم^(٤) .

١ - المنازل ، ص ٤٣٩ ، ٤١٢ ، ٤٧٤ ، ٤٢٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٦٧ ، البرد ، ص ٥٨٦ .

٣ - المنازل ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

٤ - المنازل ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، الأغاني ، ص ٧٧ ، ٦٠ (بولاق) ،

ص ٢٩٩ (دار الكتب) .

وفي أشعار شعراء العصر العباسي غالباً ما يعثر أيضاً على بسكاه الأقرباء والأهل ؛ لكن في هذا العصر - إضافة إلى ذلك - وبشكل واضح يعبر عن بكاء الأصدقاء - « الأخوة بالصدقة » ، وبسكاه أولئك ، الذين قضت عليهم النوائب . ويعثر على الإشارات الدينية في في أشعار أبي الناهية ؛ إذ يبكي « الأخوة » ، الذين أتى عليهم الموت ، (قالوا لن يقي على أحد ، إن الناس لا يعبأون به ولا يهتمون ، لكنه بينهم ، وسيقضي على الجميع^(١)) .

إن « تراجيديا » البرامكة مشهورة لنا ، إذ بعد مقتلهم ، غنوا مادة بكاء ورثاء عدد من الشعراء . هذه النكبة قد أبكت جاريهم : (إن التفرق للأحباب بكاء) ، إذ دارت عليهم عوادي الأيام حتى أفنتهم ، فظلت تبكيهم طوراً ، وطوراً تندبهم حتى نضبت الدموع في عينها^(٢) . ويقوم الشاعر الزبير بن دعثان بتسجيل هذه النكبة بطرف خفي ، وبعدد أمجادهم ، وحكمتهم وإخلاصهم^(٣) . أما الخليفة التتوكل ووزيره ابن خاقان فانها بالنسبة للبحري كقبيلي الأوس والخزرج عند الرسول . ولقد عكس شعره نكبتها « كتراجيديا » مؤلمة^(٤) . إن بعض الشعراء - محمد بن صالح والمرتضى وابن خفاجة - يكون أصدقاءهم - « إخوان

١ - المنازل ؛ ص ٤٣٤ ؛ ديوان أبي الناهية ، ص ٢٨٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٣١ .

٣ - المنازل ، ص ٤٤٥ ، ٤٧٧ .

٤ - المنازل ، ص ٥٥١ ؛ ديوان البحري ، ص I ، ١٠٥ .

الأخلاق (١). وآخرون ، ومع يحنون إلى الأهل والأقرباء ، يحزنونهم ،
ويلددون مفارقتهم وما تهمهم ؛ ويندب دعبيل قبياته خزانة ، وابن الرومي .
القرين والأهل (أهل وده) « وابن المعتز - الأهل ، والراضي -
إبناء أمة (٢) . ويثر أيضاً في المقطوعات الأخرى ، المسافة من قبل أسامة
في هذا الفصل على بكاء الأقرباء ، والاصدقاء ، والأهل . وندب الأخوة
موجود أيضاً في شعر البراء ، والمفضل ، والبرقي الهذلي وقارعة المريدة (٣).
ندب الصدقاء في شعر الفرزاق (ص ٤٣١) والاب في مرثية فاطمة بنت
الأحجم (ص ٤٤٩) ، والأولاد في شعر أبي النشعب الجسسي
(ص ٤٦٧) . إن معظم الشعراء يسكنون الصدقاء ، وأفراد القبيلة (٤) .

من المواد التي قدمنها فيها مضى ، يرى بأن الشعراء يراثيهم ،
عادة ، إنما يندبون من الأقرباء الذين أصابهم المصائب ، والاصدقاء ،
والقبيلة والمشيخة ؛ لكن يثر على بعض الحالات حيث لا يندب الشاعر
قومه وعشيرته وقبيلته ، بل على العكس يدعو عليهم ، ويطلب لهم الشر .
وكثما على هذا يمكن ان نسوق اشعار عسيمة الشيمي ، الذي يكي بني
غيباب ، عندما ألمت بهم المصيبة ، ويدعو لقبيلته بهذه المصيبة ذلك لانها

١ - المنازل ، ص ٤٥٦ ، ٤٧٦ ، ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٣ ، ٤١٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،
٤١٧ ، ٤٧٢ .

٣ - المنازل ، ص ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٥ .

٤ - المنازل ، ص ٤١١ ، ٤٣٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٤ ، ٤٧١ .

لم تكن خلصة عادلة معه (١) .

إن أشعار الشعراء الآخرين [غير المعروفة أسماؤهم] يحتواها ومضهونها
إنما تشبه المقطوعات التي حللتها فيها سبق . فالأموات عندهم هم « أبناء
الأرض » ، ومن بقي حياً لاحق بهم ، وبعد حلاوة الحياة من معاناة
الأحباب لم يبق إلا ذكرائهم . لقد ذهب سرور الشاعر بعد صجيه كأنما
طار به نسر فأرق وتمذب ، وأصبح يعفو عن ذنوب كثيرة ، ويتحمل
زلات الصدقاء . ويتحول إلى الناس في الأرض وإليها مرجعهم ومآلهم .
أما « أهل القبور » - الموتى ، فلا يسمعون دعوة ، ولا يرجعون جواباً ،
ولا يطلبون حاجة . لقد مسكنوا ظهر الأرض ثم يموتهم باطنها . إنما الأمم
تتعاقب على ظهر الأرض . ويموت الاصحاب تقوض صبر وتجدد الصاحب ،
فلم يستطيع حيلة لدفع الموت ، أما حيلته الوحيدة فهي البكاء ، إذ ان
البكاء سلاح كل مصاب ، ويدعون على أنفسهم بالموث الذي أخطأهم وأصاب
من يرثونهم (٢) .

لا بد من تركيز الانتباه إلى أنه في شعر الشعراء الجاهليين ،
والشعراء الذين لم يتمكن من نسبهم إلى عصر معين ، ولأول مرة ، في
الفصل عن « الدار » يثر على تذكير « بالجيران » .

١ - المنازل ، ص ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٣٣٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣ ،

٤٦٩ .

- رأيتُ دُوءَ الدارِ ليس ينافعُ
إذا لم يكن بين القلوب قريبُ

- وأنزلني طُولُ التوى دارَ غربةٍ

إذا شئتُ لاقيتُ امرأةً لا تشاكِلُهُ

أحامقه حتى يئالَ سجيّةٌ
ولو كان ذاعِقِلَ لكنتُ أعافله

وقال آخر :

- سقى الله داراً لو أرضا نركتها
إلى جنبِ دارِي مَعْقِلٍ وتبار

أبو مالكٍ جارٌ لها وابنُ بُرْثَنٍ
فيالكَ (جاري) ذِلَّةً وصغار

وقال آخر :

- إن [جار] السوءِ حِمْلٌ فادِحٌ
فلستعِذْ بالله مِن [سوء الجوار]

ما جازِ السوءَ عندي جيلةٌ
في جميعِ الأرضِ لإيـسَعِ دارِي (١)

وبرأينا ، فإن هذه الظاهرة ظاهرة متأخرة ، ذلك لأن الشاعر

الجاهلي - البدوي ، يعيش في جوار مع أبناء قبيلته وأقربائه ، ومع أفراد

عشيرته ، ولذا فإنه قليلاً ما يتكلم عن « الجيرة » . لكن ، بعد استقرار

القبائل العربية في البلاد المفتوحة ، حتى وبدءاً من المهاجرين إلى المدينة ،

١ - المنازل ، (طبعة المكتب الاسلامي) ، ج . II ، ص ١٥٤ ،

ووجودهم فيها ، فإن « الجار » قد امتلك مكاناً خاصاً في حياة العربي ،
والرسول العربي ذاته قد أعطى النصيحة بضرورة بشكل جيد مع الجار .

لقد أصبح الناس يهتمون بالجيرة الحسنة ، وهذا ما انعكس في
الشعر العربي ، إذ يدعو الكثيرون من الشعراء إلى حسن اختيار الجار
الحسن . والجار السيء يكون سبب بيع « الدار » ، والانتقال إلى
جار أفضل (١) .

وأصبح الحنين إلى الأشخاص ، فيما بعد ، الموضوع العادي للرسائل
الاخوانية (٢) . وخلافاً لما قلناه سابقاً ، يعثر على أشعار لشعراء يقفون ضد
« الجيرة » ، ويرون الخير في الزبارة فقط ، لا في التعامل مع الجار
باستمرار :

لا تطلُبَنَّ دُوءَداً رٍ منْ خليلٍ أو مُعاشِرٍ

أبقى لأسبابِ المودَّةِ أَنْ تَوزَرَ ولا تُجاورِ

وقال أحمد بن إسماعيل بن الحبيب : شكاً إلى ميمون بن هارون
بعد داره إذا أراد زيارتي ، قلت : من هذا المنزل أقصدك إذا زرتك ،
ثم كتبت إليه :

١ - هناك أيضاً ، ص ١٧٦ .

٢ - انظر مبرز ، ص ٢٠٧ .

لا تجلسن بعدد داري مُحَسِّساً لنصبي
فرب شخص بعيد إلى الفؤاد قريب
ورب شخص قريب إليه غير حبيب
ما البعد والقرب إلا ما كان بين القلوب (١)

وبعض النظر عن بكاء أسامة أهله في الكثير من أشعار ديوانه ،
فانه في هذا الفصل من كتاب « المنازل والديار » ، قد قدم مقموعة
واحدة ، تشرح - على حد قوله - حالاً صحيحة ، لا على مذاهب الشعراء ،
وذلك لانه مر به قول الرسول : [من زار قبر أبويه ، أو أحدهما في
كل جمعة غفر له ، وكتب برأ] ، فأفسه ما حرمه من زيارتها ، لشتات
تخلهم أحياء وأمواتاً فقال :

نافستني صروف دهر في الفوز زير الآباء في الرجم
لو كنت أسطيع أن أزورها مشياً على الرأس لا القدم
بأدت أمشي إلى نرى جدتي أعز أهلي علي كالقلم
لكن بمصر قبر وفي شيزر قبر وذاري بمشأى العجم
والظلم في الأرض ما يفي كل ما أفيهِ حتى زيارة الرمم
وما ظننت الذي لقيت من الد دنيا تراء عيني في الحلم (٢)

١ - المنازل ، ص ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٢٠٩ - ٣١٩ ،

٣٢٩ - ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ - ٣٥٣ .

٢ - المنازل ، ص ، ٤١٩ .

في ختام دراسنا وتحليلنا يمكن القول أن كل المقطوعات المساقاة في
هذا الفصل « فصل الادل والاخوان » هي مقطوعات في رثاء أخ ، أو
صديق ، أو أهل ، أو عشيرة ، فيها الحسرة على المفقود ، وبكاء مرير ،
وتجملد وصبر طالما أن الموت قدر كل انسان ، ونهايته ، وضعف في الصبر
أحياناً ، إذ المصاب كبير خطاير ؛ ووصف للرفي بالكرم والشجاعة
والقدرة . الدهر لا يخطيء ، والناس من تراب وإلى تراب يعودون ، مع
دعاء بالسقيا للغيور ، وتوجع وتفجع .

ولا يلاحظ اختلاف بارز بين الشعراء ، وعلى امتداد المصور ،
في تناولهم هذا الموضوع « بكاء الادل والاخوان » .

وربما كان التشابه بين الشعراء في هذا نتيجة لوحدة التعبير عن
الآلام ، والحزن على الوفا والشهداء ، عند جميع الشعوب ، وفي
مختلف المصور .

★ ★ ★

لقد كانت التجمعات الاسلامية الناشئة في المواطن الجديدة نتيجة من نتائج هجرة العرب من جزيرتهم ، ودخول مواطني هذه البلاد الاصليين في الاسلام . ولهذا فان تطور الادب العربي في هذه المناطق مرتبط بانتقال العرب إليها ، وبانتشار لغتهم هناك .

والجزيرة العربية - مهد العرب الاول وموطنهم - ليست فقط صحراء كما تصور ذلك الاشعار الاسلاميه ، عندما يتحدث عن وطن العرب الاول ؛ الامطار في الشال غير منتظمة ، لكنها أحياناً كثيرة ، وكانت غزيرة ، بسيول عارمة غالباً ما هددت مكة والمدينة (١) لكنها كانت سيياً في توليد حياة زراعية ضعيفة ، حيث إن القسم الاكبر من الارض إنما كان واحات صالحة لرعي الماشية فقط . أما في الجنوب ، في عسير واليمن ، فان المناخ الماطر ، على العكس ، كان سيياً في نشوء حياة زراعية راقية منتظمة .

كل هذا كان سيياً في نشوء نوعين من طراز الحياة عند العرب - « اما حياة استقرار ، وإما حياة تنقل وترحال » ، إلى جانب التجارة الناشئة بسبب موقع الجزيرة من العالم القديم المتحضر .

ولم تكن القبائل قبل الاسلام دائماً منزلة بعضها عن بعض ، ولا متعادية على الدوام ، ذلك لان الحركة الدائمة في انتقال القبائل ، كانت

١ - البلاذري ، فتوح ، ص ٥٣ - ٥٥ . « سيول مكة » ، (طبعة بريل) .

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثالث

الذهاب الى الوطن والمواطنيين

سبباً في تقاربها بالجواري والمواسم والاحلاف . ويتر على حوادث انتقال الفرد - في التبعة - من قبيلة إلى أخرى^(١) ، ومشهور أيضاً الانتقال الجماعي للعرب من الجنوب بعد دمار سد مأرب ؛ « فصار كل فخذ منهم إلى بلد ، فمنهم من خرج إلى العراق ، ومنهم من سار إلى الشام »^(٢) .

في الماضي القديم ، حيث كان لليمنيين دولتهم الخاصة ، وأدبهم ، وكتاباتهم الخاصة ، عاش العدنانيون ، في الشمال على شكل قبائل متفرعة ، لا تربطها وحدة عامة تؤلف بينها ، وتكون منها شعباً متجداً منظملاً تقوم به دولة عربية كدولتي الفرس والروم اللتين عاصرتا العرب في ذلك الوقت . لقد عاشت كل قبيلة مستقلة إلى حد ما ، فاحصر الفرد في القبيلة وكانت بالنسبة له كاللولة بالنسبة للانسان الحديث . ولذلك فتبعية العرب الشاهليين حملت الطابع القبلي ، لا الوطني الشامل .

وسمى علماء الاجناس والانساب أصل القبائل العربية - [الاصول الكبرى في انساب العرب] - ، كـمدنان وقحطان - شموياً^(٣) ، وأجداماً^(٤) . أما فيما بعد ، في الاعمال العلمية ، فاننا نمثر على الترتيب

١ - المسعودي ، التنبيه ، ص ٢٠٧ ، يتحدثنا عن حاتم الطائي ، كيف ترك قبيلته ، والتحق ببني فزارة ، ومدحهم .

٢ - الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

٣ - المقد الفريد ، ج ١ ، ص ٣٣٣ (١٩٤٠) ؛ النعمري ، الانباء ، ص ٤٥ ؛ نشوان ، منتخبات ، ص ٥٥ .

٤ - النوري ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حزم ، جمهرة ، ص ٦ .

التالي لطبقات النسب ، [شعب ، قبيلة ، عمارة ، بطن ، فخذ ، عشيرة ، فصيلة]^(١) . وإضافة إلى رابطة الدم المباشرة غدت المصالح ، والرغبات المتبادلة المشتركة ضرورة جداً لحفظ القبيلة ، وتأمين ظروف البقاء ، واستمرارها . ولذا فقد غدا في تمدد القبيلة ، إلى جانب العرب الاصلاء ، الموالي أيضاً ، إذ لم تعد رابطة الدم وحدها كافية^(٢) .

وغالباً ما تصادف الالفاظ التي تدل على « التجمعات القبيلة » في أشعار الشعراء الجاهليين والاسلاميين لكن الشعراء ، باستعمالهم هذه الالفاظ ، لم يقصدوا التحديدات الدقيقة التي أكدها علماء النسب^(٣).

١ - المقد الفريد ، ج ١ ، ص ٣٣٥ (١٩٤٠) .

٢ - انظر : R.S Mith , P. H. . وقف الباحث روبرتسن سميث طويلاً عند رابطة الدم هذه ، ويرى أن الجماعة القائمة على وحدة الدم هي أكثر تدماً في المجتمع السامي ، وأن إخالق (الحي) على الجماعة التي هي من دم واحد يعلى بالبدا السامي القائل بأن حياة الجسد قوية في الدم .

٣ - النقاؤض ، ج ١ ، ص ٦١٢ . الفرزدق مثلاً وهو يتكلم عن قبيلته (بني تميم) يدعوه (عمارة) : (ولني وإن كانت تميم عمارتي) في نفس الوقت في مكان آخر من هذه النقاؤض ، (ج . II ، ص ٩١٧) ، وهو يتكلم عن (بني سعد) وهم فرع من بني تميم بسميهم قبائل : لعلنا أن قبائل وقبائل من آل سعد لم تدن لأميمير .

ومن الشعر العربي يرى بأن لفظي « قبيلة » و « حي » قد استعملتا أكثر من غيرهما ، وكانتا تدلان على مطلق أبناء القوم ، قلوباً أو كثراً ، وعني بهما عامة « مجموعة من الناس » تحتوي على أقرباء الدم من الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، وكذلك الأبناء بالتبني ، بنض النظر عن كثرة عددهم كبيراً أو صغيراً (١) .

وانطلاقاً من التوزيع الجغرافي للقبائل العربية يلاحظ أنه كان عند كل قبلة مكان محدد من الأرض ، حيث تعيش (٢) وفي حالات انتقال القبيلة ، فلتها كانت تتحرك في مجال هذا المكان ، أو تتركه عاملة إلى مكان آخر ، حيث يصبح هذا بالنسبة لها موطناً جديداً . وعلى أساس هذه الحقيقة الحياتية يمكن القول بأن الوطن بالنسبة للقبيلة ولشاعرها ماهو إلا ذلك المكان المحدد ، الذي توجد فيه القبيلة في هذه اللحظة التاريخية المينة .

أهل المواطن ، حسب التحديد القبلي ، هم أقرباؤه على الأغلب : والموالي ، والتابعون للقبيلة ، ونتيجة لهذا كانت القبيلة العربية وكأنها صورة مصغرة للدولة العامة ، وشاعرها - « صحيفة القبيلة » الرسمية ، التي تظهر برابطة الدم والمصالح المشتركة ، وتضم أفراد القبيلة في إطار واحد ، فيشعر كل فرد في القبيلة أنه مسؤول عن جماعته ، كما أن القبيلة كلها تشعر أنها مسؤولة عن كل فرد ينتمي إليها .

وتذكرنا العصبية في المجتمعات القبلية بالانجذابات القومية الغالية

١ - النص ، إ . ، العصبية ص ٦١ .

٢ - أمين ، إ . ، فجر الاسلام ، ص ٨ .

المتعصب في النظام السياسي الحديث (١) ، فكما أن القومية المتطرفة تنصب لجنسها وتمتد بتفوقها على سائر القوميات ، فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة الشوفينية . والعصبية القبلية تنافي الشعور القومي ، لأن من شأنها تجزئة الجنس الواحد (الأمة الواحدة) . لكنها رغم كل هذا كانت متنفسة للعربي في الولاء ، كما يرتبط الانسان المعاصر بفكرة الوطن أو القومية أو المذهب السياسي .

إلى جانب هذا النظام القبلي في الجزيرة العربية قبل الاسلام كان أيضاً نظام اجتماعي آخر ، متمركز في الامارات ، والممالك العربية ، التي أقامها المنافره والفلسنة والكندوين ثم قريش في مكة . في هذه الامارات ، بصورة خاصة واضحة ، يظهر المفهوم الاوضح عن [الشعب ، والاقليم ، والسيادة ، والوطن] ، ذلك المفهوم الخارج عن نطاق التصورات القبلية .

وبمجيء الرسول حدثت الهزة العنيفة في هذا التركيب الاجتماعي ، والتوضع الاقتصادي في حياة العرب . فالنظام الذي ظهر بظور الاسلام وتبعه ، أنكر ، نصاً وروحاً ، العلاقات والمفاهيم القبلية القديمة ، ووضع البداية ، على أقل تقدير في الأفكار ، للعلاقات الأخوة بين القبائل . إذ إن أقوال الرسول وأحاديثه وأفكاره نفت كلها العصبية ، وهذا ما جر إلى بداية التقارب بين القبائل ، هذا التقارب واللقاء المرتكزين على العقيدة ، والدعوة ، ووحدة الله ، ووحدة العلقوس الدينية ، والمساواة والتقوى . لقد قام كل هذا مقام الدم ، والتنافر ، والنسب ، والتشتت والافتراق .

١ - حي ، ف . ، تاريخ العرب . ص ٥٣ .

وأخذ الاعتبار القبلي يبدأ بالاضمحلال ليحل محله الاعتبار العربي ثم الانساني ، إذ « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ، والناس جميعاً كأستنان المشط ، لا امتياز لقبيلة أو جنس . حتى إن الرسول نفسه قد ترك قبيلته قريش ، وهاجر إلى الأوس والخزرج وبدأ القتال ضد أقربائه ، ثم إنه بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . لكن هذا كله لم يقو على سحق العصبية القبلية ، وهذا ما تؤيده الأشعار المكتوبة إلى الرسول من قبل وفود القبائل المختلفة [إذ لم تدخل الإسلام بعد] ، إن هذه الأشعار - أشعار الوفود - مثال للشعر القبلي الجاهلي .

لكن ما أن توفي الرسول الكريم حتى اتخذ هذا التناحر طابعاً آخر : مهاجرين وأنصار ، بني هاشم وبني سفيان .. الخ . إلا أن هذا لم يمنع من توسيع الإطار ، والمساهمة في الاختلاط بين هذه القبائل العربية ، فكان لحروب الردة الأثر الأكبر في هذا الاختلاط ، وفي تقسيم المجتمع ، بشكل جديد . إذ انقسم كل العرب المسلمين بعلاقتهم مع الديانة إلى شطرين كبيرين : [المؤمنين والمتردين] ، في نفس الوقت الذي حوى فيه كل شطر قبائل متنوعة . هذا ما خدم العلاقة الأقوى بين تجمعات القبائل العربية ، وأدى إلى ظهور نظام جديد في العلاقات الاجتماعية . لكن هذا لم ينف تماماً روح العصبية القبلية ، التي حملتها أيضاً هذه الحروب - حرب الردة .

هذا الخطيئة يقول :

أطلعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أبوزرئها بكر ، إذامات ، بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

الجيش التي تشكلت بعد وفاة الرسول وجهت من الخلافة الإسلامية إلى اليمن ، والبحرين ، وعمان ونجد ، وظفرت واتصرت . وإذ بالجند لا يعودون جميعاً إلى قبائلهم ، كثير منهم بقي بعد الفتح الإسلامي في البلاد المفتوحة ، ومن جديد بذؤوا بفئاعهم مع هذه المجتمعات الجديدة التي أنشؤوها (١) . وفي هذا المجتمع الجديد حدثت حوادث المزج بين جيوش الخلافة والعرب القدماء ، الذين كانوا مقيمين في هذه البلاد المفتوحة قبل مجيء هذه الجيوش .

نتيجة لهذه الحياة المشتركة (الموحدة) كانت حوادث زواج متنوعة بين مختلف القبائل (٢) ، وهذا الزواج الذي قاد إلى تكوين وتشكيل جيل جديد ، ذلك الجيل الذي أثر بشكل فعال على تكوين ذلك المجتمع الجديد .

في مرحلة الدعوة الإسلامية وفي مجرى الفتوحات الإسلامية ، استمر - أيضاً - هذا التمازج بين القبائل العربية . وبفض النظر عن كون التاريخ لم يحفظ لنا معلومات دقيقة محددة ، بفض النظر عن هذه

١ - الطبري ، المجموعة الأولى ، ج . ١٧ ، ص ، ١٩٧٤ وما بعد :

[فرجع إلا من أحب المقام] .

٢ - الطبري ، المجموعة الأولى I ، ج . ٧ ، ص ٢٣٦٣ - ٢٣٦٤ .

الحقيقة ، فإن كل المصادر في حوزتنا تسمح لنا ان نقرر بأن الخلافة لم تعتمد على قبيلة معينة في هذه الفتوح ، والخليفة لم يأمر قبيلة بذاتها ويلزمها على الجهاد، أي لم يتخذ الانتداب شكلاً قَبَلِيّاً ، بل اعتمد على التطوع الاختياري من القبائل جميعها ، إذ بعث الخليفة إلى القبائل والمدن يستنصرها ويرغبها في الجهاد فتوافد عليه الجموع ، وبصرفها في الوجهة التي يراها^(١) .

هذا الجمع بين القبائل (التوحيد) ساعد على امتزاج قبائل مختلفة وتشكيلها مجتمعة قوة عسكرية (واحدة) ، ذلك لأن ظروف الحرب تطلبت تعاوناً مشتركاً من قبل جميع الحارين ، وترك العصبة القبلية ، والمعداء القبلي والسمو بالروح الفالحة من نطاق القبيلة إلى التجمع من مختلف القبائل^(٢) . لقد أثرت هذه الظروف كلها على تشكل تجمع جديد [قوم] ، وقادت إلى حياة الاستقرار ، وتأكيد الميث في مناطق محددة ، كما أدت أيضاً إلى تدعيم نموذج الحياة في المدن .

ولم تكن غلبة قبيلة على أخرى في جيش خالد بن الوليد ، الذي فتح العراق ، بل على العكس ، فقد تميز هذا الجيش بوحدة القبائل ، وتآلف من صفوة المسلمين القتالين . ثم ظهرت التجمعات المدنية [في المدن] ، القرية بعضها من بعض ، مما أثر بشكل أقوى في تدعيم العلاقات بينها . إضافة إلى هذا فقد وحد هذه التجمعات من مختلف

١ - الطبري ، المجموعة الاولى ١ ، ج ٧ ، ص ٢٧١٤ .

٢ - الطبري ، المجموعة الاولى ١ ، ج ٧ ، ص ١٣٦٣ .

القبائل ؛ المسجد الواحد ، ومارسة العاقوس والغروض الدينية الواحدة . شعر كل الناس بأنهم أعضاء مجتمع واحد ، وأبناء هذه البلدة في وقت واحد ، ونتيجة لمثل هذه التوحيد بين القبائل ظهرت مصطلحات ، مثلاً : أهل البصرة ، أهل الكوفة ، أهل العراق .. الخ ..

من الضروري أن تؤكد الحقيقة التالية : وهي أنه بعد كل هذه الحوادث والتغيرات توسعت المصادمات والاتصالات والتمازج مع الشعوب الأخرى ، وبصورة خاصة مع الفرس ، ذلك لأنه بعد انتصار جيوش الخلافة فإن معظم البيزنطيين تركوا الاقطار التي فتحها العرب ، لكن الفرس ، بصورة أساسية ، بقوا ، ولم يترك هذه الديار المفتوحة منهم إلا الأغنياء ، والطبقة الحاكمة ...

بعد مقتل عثمان وقع الخلاف بين أهل الشام وأهل العراق ، بين الهاشميين ، والأُمويين ، وظهر التشيع السياسي : أنصار علي ، أنصار الأُمويين ، الخوارج ... الخ ... هذا التشيع قاد إلى ظهور الاحزاب السياسية فيما بعد ، مما أدى إلى إضعاف الشعور القبلي ، وإلى تقوية التبعية للأحزاب الناشئة والالتزام بها ، لكن رغم هذا فقد كانت العودة إلى الجاهلية في العلاقة قد ظهرت وبقوة في عهد بني أمية ، فلم تعد العصبية للبطن أو للرهب بل غدت للشعب ، أو للجذم - للعدائنة أو القحطانية ، مما أدى بدوره إلى توسع رقعة الارتباط - ارتباط الانسان بغيره ، وساعد على ظهور المشاعر القومية بمفهومها الأولي البسيط ، تلك المشاعر التي كانت تطلق على المشاعر القبلية بصورة قوية حية - خاصة عند اصطدام العرب بالعناصر الأعجمية الأخرى .

لقد بلغ الصراع بين العرب والشعوب الأخرى درجة كبيرة من الحدة عندما نهضت الدعوة الباسية ضد الأمويين للاستيلاء على السلطة . وكان [الشعوب القومي] يقوى عندما يظهر خطر هجوم شعوب أخرى على العرب مستلمي السلطة ، أو على السلطة العربية .

من المثير أن نلاحظ أنه عند بعض الشعراء العرب تظهر علامات التنبيه واليقظة ضد خطر الصراع الداخلي ، ودعوة العرب جميعاً للوحدة ضد العدو . هذا مثلاً ، ما قاله القائد العسكري نصر بن سيار ، عندما توجه إلى القبائل المتنازعة فيما بينها :

أبلغ ربيعة في مرو وأخوتهم فليعضوا قبل أن لا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا
حرباً يحرّق في حافاتها الخطبُ

مبالسكم تلحقون الحرب ينكم كأن أهل الحجاز عن رأيكم عزب
وتتركون عدواً قد أظلكم مما تأشّب لادين ولا حسب
فمن يك سائلاً عن أهل دينهم فإن دينهم أن يُقتل العرب

لقد قام حكم بني عباس على أنقاض التناحرات العصبية ، وعلى أكتاف الفرس ، وزاد ظهور المنصر الاجنبي في الحكم بعد أن كان شبه عربي خالص . وانصف العصر العباسي بتأزج وتبادل الثقافات - ثقافات الشعوب المختلفة . وطبعت الخلافة بطابع إسلامي بدرجة واضحة ، أكثر

من الصفة العربية . وتوسعت حدود الخلافة ، وغدا الناس يشقون بكل حرية من طرف إلى آخر ضمن هذه الدولة ،

كل هذا قد ترك أثراً على معتقدات ، وتطلعات الناس ، وحياتهم الاجتماعية ، أو على فهم الوطن ، والوطنية ، والمواطنة ، كوحدة جامعة اجتماعية ، وهذا أوجد انعكاساً وصدى في الشعر العربي .

إن ارتباط الانسان مع الأرض يمكن رصده من ارتباط مادي عضوي ، كارتباط النبات بها ، إلى ارتباط معنوي ، حين اتصل بقضايا الحرية : « لا وطن بلا حرية ولا حرية بلا وطن » . وأحياناً يصبح شعور الوطن بشكل مباشر متعلقاً بفهم الفقر والغنى ؛ « الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة يزيل شعور الاغتراب عن الأرض » . لكن ، بنض النظر عن هذا ، فإن الأرض التي ولد عليها الانسان وفيها نشأ وترعرع ، تشبه إليها دوماً ، مها تطورت مفاهيمه عن الوطن ، ومها حول الاغتراب والتنقل والارتحال .

إن جذور هذا الاغتراب قديمة في الشعر العربي ، إذ إن العربي قد حمل ضروباً من الاحساس بالغربة في هذه الصحراء الترابية ، وربما كانت اسطورة الحارث الجرمي - التي يذكرها وهب بن منبه في كتاب التيجان ، وتصور زوال الجرامعة ، وبقاء ، الحارث وحده في التيه والغربة - في الواقع رمزاً لحياة العربي التي تضرب في التناحرات بلا انقطاع ، ورحيله الذي لا يهدأ وراء المنظر والكأ . ولذلك كانت مطالع القصائد

الجاهلية في كثير من الأحيان حديثاً عن الأطلال - بقايا وطنه المهجور -
وإحساساً بالزربة بعد الأوس ، وحينئذ طويلاً إلى ديار أحبابه الراحين ،
الذين هم بالنسبة له كآباء ، الوطن بالنسبة للعاصر .

إن الشاعر الجاهلي « مواطن » قبل يسخر كل شيء في سبيل
قبيلته والدفاع عنها ، ويتجلى هذا في المملكات وبخاصة مملكتي عمرو بن
كثوم والحارث بن حلزة ، فكلتاها سجل للقبيلة ، ومراة لماثرها ،
وهذا عبيد بن الأبرص يقول في مملته :

أقفر من أهله محلوب فالقَطِيبَاتِ فالذَنُوبِ
وبُدَلتْ منهم وحوشاً وغيَّرتْ حالها الخطوب
فشكل ذي نعمة مخلوب وكل ذي أمل مكذوب

لا شك أن الاقفار والجذب هنا صورة لانعكاس المنظر على نفسية
الشاعر الذي أحس بتبدل المكان ، وامتلائه بالوحوش . فهو ينقل الطرف ،
مستوحشاً ، بين محلوب فالقطينان ، فلا يجد إلا الامل الضائع . وتكرر
نفس الصورة فيها حالناه من مطالع ومقدمات طليية : فعند ليد قد عفت
الديار ، وبذلك تقطعت الاسباب بينه وبين نوار ، وانطلقت الحياة في
هذه الارزاء :

عَفَتِ الدِّيارَ مَحَلَّها فمَقامُها بِمَعْنَى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها
فمَدافِعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رِسمُها خَلَقًا كَضَمَنِ الوُحْيِ سِلامُها

بل ما تَدَكَّرُ من نوار وقد نأتْ وتفظَّعتْ أسبابها ورِمَامُها (١)

وفي مملكة النابتة أقوت الدار ، وما بالربع من أحد ، وأضحت
خلاء بعد الانس ، والحركة ، والحياة ، لا رجعة لسكن هذه الاحلام ،
لانها جزء من الماضي ، الذي ابتلعه الدم :

يا دار مِيتَةَ بالِالياءِ فالسَّنَدِ أقوتْ ، وطالَ عليها سالفُ الأبدِ
وقفتُ فيها أصيلاً أسائِلُها أَعيتْ جواباً ، وما بالربع من أحدِ
أضحتْ قِفاراً ، وأضحى أهلُها احتماؤوا
أُخِنِي عليها الذي أُخِنِي على أَيْبَدِ (٢)

ويعبر ذو الزمة - الشاعر الاموي - في شعره تعبيراً أشد وأقوى
عن هذه الوحشة :

١ - الزوزني ، شرح المملكات . ص ٢٠٤ . [مئى : موضع : تأبد :
توحش : القول والرجام : جبلان : الدافع : أماكن ينسدم
عنها الماء : الريان : جبل معروف : الوحي : الكتابة :
السلام : الحجارة : الزمام : جمع الزمه وهي قطعة من الجبل خلقة
ضميقة .]

٢ - النازل ، ص ٣١٥ : ديوان النابتة ، ص ٣٣ ،
[القاهرة .]

عشية مالي حيلة غير أني بلقط الحصى والخط في الدار موع
أخط وأمحو الخط، ثم أعيده بكفّي، والغربان في الدار وقع

فقد صور نفسه وحيداً في المرآة إلى جوار بقايا الاخلال، تعبت يده بالحصى كأنما هي قناع من الذكريات يلبسها، فيثيره الحنين، ولكن إحصاءً قوياً بالكتابة والزربة يأتي من توقيع الغربان، وهي تنق في رقابة مذكرة الشاعر بأنه أمام بقايا دراسة لا حياة فيها. فلاغتراب هنا كمن في فقدان الاحباب والأهل وفي دمار الوطن، أو أنه معادل موضوعي للعقم والجذب والدم، وهذه حقيقة كبيرة في بيئة الشاعر القاحلة التي لا تعرف الحصب والعطاء. ومحاولة التخلص الوحيد لديه هي: الرحيل على ناقته، وكأنه يقابل الزربة باغتراب آخر كما علمته الصحراء (١).

وربما كان امرؤ القيس، وعنترة أكثر شعراء المملكات شوقاً وحنيناً وإحساساً بالزربة. فقد هام امرؤ القيس شريداً يبحث ضمن يستعين به في استرداد ملك أبيه، وللاخذ بثأره حتى وصل بلاد الروم، وهناك أحس بقرب منته بعد أن امتلأ جسمه بالقرح. [لقد سبق امرؤ القيس، إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب. واتبعها عليها الشعراء كاستيقاف صجبه في الدليل (٢)].

١ - المنازل، ص، ١٦١ - ١٦٢؛ ديوان ذي الرمة، ص، ٤٣١.

٢ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص، ٥٢ (بريل ١٩٠٤). مع اختلاف في تحديد أول من وقف على الدار، وبكاها.

وهو في أنقرة رأى قبراً لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت هناك، فقال وهو يشعر بقرب موته:

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إننا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب (١)

أما الشاعر الثاني - عنترة فهو غريب بين أهله، إنه عبد أسود، فاعتزبه نفسي، حين تنكر له أبوه وعمه، وقاسى الأمرين من لونه وعبوديته، أبه عبد وعبوديته وفقت حائل في وجه حبه. إننا عندما نسمعه يقول:

العبد عبدكم والمالك مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف (٢)

ندرك إحساسه بالهوان والضياع، وكذا الأمر عندما يهتف « أنا المهجين عنترة ... » إن هذا لون من اغتراب الفرد في البيئة التي يعيش فيها.

أما الأعشى فرغم تعاونه الطويل في البلاد، واختلاطه إلى التلوك لم يكن لينسى قومه، ولا يخفي اشتياقه إليهم:

« وإني منهم وإنهم قو مي وإني إليهم مشتاق (٣)

١ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص، ٤٠، ٤٧، (بريل، ١٩٠٤).

٢ - الأغاني، ص، VIII.

٣ - ديوان الأعشى، ص ٢١٣ (طبعة لندن، ص ١٤٣).

الغربة والوحشة والجنين كانوا على أشدهم عند ذي الاصبع المدلولي الذي فنيت قبيلته بتخاصمها مع بعضها ، فكان فناؤها مصدر ألم وحنين وتفن باضها وقوتها وشجاعها وملكيها ، ولقد شاركته في بكاء هذه الفاجعة ابنته أمامة الشاعرة ، التي تحسرت على هؤلاء الفتيان من قومها الذين هلكوا لجهاثهم وطيشهم ، فتساقوا كلهم بينهم ظلماً ، وبكسي معهم أوطانهم - أوطانها ، التي غدت بعد إبانتهم رسماً مقفراً دائراً^(١) .

ولقد ظهر في الشعر التعبير عن محاولة هجر الأرض [أرض الوطن] إلى مكان آخر من أجل البحث عن مصادر الرزق والحياة :

دعيني للغني أسعى فأتني رأيتُ الناس شرهم الفقير^(٢)

وملك هذا البيت الشعري بألفاظه قوة عجيبة حتى إن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب منع معلم ولده من أن يروي لهم القصيدة التي منها هذا البيت ، لأنها تدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم^(٣) .

وكانت هذه الدعوة بارزة عند الشعراء الصماليك قبل الإسلام ، رغم أن هؤلاء الشعراء قد قاسوا الويلات في حياتهم في الغربة . إن كل الذين عاشوا بعيدين عن وطنهم ، عن مساقط رؤوسهم حسبوا وقتهما هالكين ، فقراء ، مخلوعين ، خرج نطاق قبائلهم ، هائلين في مختلف

١ - الأغاني ، ج ٣ ، III ، ص ٨٩ - ١٠٨ (دار الكتب) .

٢ - الأغاني ، ج ٣ ، III ، ص ٧٣ - ٨٨ (دار الكتب) . شعر عروة ابن الورد .

٣ - الأغاني ، ج ٣ ، III ، ص ٧٣ - ٨٨ (دار الكتب) .

أصقاع الأرض . ولهذا يحس بتلك المرارة التي تفيض فيها مشاعرهم وأشعارهم . وهم يهيمون على وجوههم في القلوات ، أحراراً ، فبا يبدو ، لكنهم في الواقع مشردون غرباء . لقد ترك هذا الطلع في نفوسهم أثراً عظيماً سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ، ووظلة الوحدة النفسية ، وقوة الحرمان من السكن والأهل والديار . حتى إن سلوكهم نفسه كان يخفي وراءه الاستهانة بالحياة ، والانطلاق في الفضاء العريض ، والمغامرة الفناكة المثيرة ، لقد كان هذا سخرية مريرة من الحرية الفردية ، وشعوراً عميقاً بالتمزق والضيايق .

ولامية الشنري تنقب بهذه المشاعر ، مشاعر التمزق والضيايق ، حيث حاول التكيف مع وحش الصحراء بعد أن فقد الأهل ، وذاق مراره الغربة عن الديار^(٤) .

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فاني إلى القوم سواكم لأميل
أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول

هذا الاحساس بالمرارة طبعي ، لأن التضامن في سبيل العيش قد جعل العرب يقدسون الحياة القبلية ، والشعور بالوحدة القبلية شعور عميق الجذور في نفوس العرب . فالخلفاء الذين فروا إلى الصحراء مشردين ،

١ - انظر لامية العرب .

لا بد إلا أن يقاسوا من الاحساس بالغربة، والحنين العارم إلى حياة الجماعة،
مهما صقلت حياة الوحدة من شخصياتهم . فناقاة أبي الطمحيان مثلاً قد
حنن تذكر أروماً فذكرته بمشرو :

ألا حنن المرقال وأنت ربها تذكر أروماً وأذكر معشري (١)

والواقع إن هذا الاغتراب بهذه الصورة القاسية ، أو النفى ، كثيراً
ما كانا يدفعان المرء إلى اليأس حتى تنمي الموت ، وقد وصل الشنفرى إلى
مرحلة الامبالاة : « إذا ما أنتي مني لم ألبها » ، وفيه المبالاة ؟ حتى
بجونه لن يتفجع الاقرباء عليه ، كما أنهم لم يتفجعوا عليه في وحدته « ولم
تذر خلالي الدموع وعيني . » (٢)

على أن معنى الاغتراب يتطور أيضاً في الجاهلية ، فلا يتوقف عند
الشعور بالوحشة في الرحيل ، والبعد المكاني ، بل يتعدى ذلك إلى الشعور
بالغربة في البعد عن مجد القبيلة السابق ، ذلك لأن أوقات عظيمة وملوك
هؤلاء الناس قد غدت بعيدة . فالحياة القبلية كانت مقدسة ، ذلك لأن
الإنسان الواقع خارج دائرة العلاقات بين الناس ، خارج المجتمع ، كان
معرضاً للهلاك ، وكان هذا الوضع سيئاً في التألم والخوف ، والحنين إلى
الحياة السابقة النشيطة في مجتمع الاهد والاقرباء . ولقد ظهرت كل هذه
المشاعر عند الشاعر الجاهلي ليس فقط بشاعر الغربة والوحشة في الرحيل ،
أو الاحساس بالضيق في مضارب الوحش بعيداً عن الرابطة القبلية ،

١ - ابن قتيبة ، ص ٢٢٩ ؛ الأغاني ، ج . XIII ، ص ١٣
(دار الكتب) .

٢ - انظر ، لامية العرب .

أو غير ذلك ، بل تعدت ذلك إلى الشعور بالغربة .. عزبة الوحدة ،
والانزعاج بعد الموت في القبر . وهذه أبعاد صور الاغتراب إيماناً في الرهبة
والجزع ، كما ظهر هذا في أشعار : لبدي ، والهارث بن حلزة ، والمذاني .
لان الانسان ، بنظرم ، قد يستعين على اغترابه بالرحيل وينسب به أشجانه ،
وقد يأنس إلى وحش الصحراء كما أنس الصامليك ، وقد يتخلص من
اغتراب العبودية والذل حين تنجحه الطبيعة قوة وذلك بصارع بها حسنى
يظفر بالخلال كما فعل عنترة ، لكن غربة الموت لا أنيس فيها ، ولا
أمل في التخلص منها على أية حال . إنها النهاية الحتمية الطبيعية لكل
إنسان ، التي لا مفر منها : « كفى بالموت نأياً واغتراباً » (١) ، وبهذا
المعنى كتب الطمحيان :

ألا علاني قبل نوح النوائح وقبل ارتقاء النفس بين الجوائح
وبعد غد ، يالهف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح
إذا راح أصحابي تفيض دموعهم وغودرت في لحد علي صفائحي
يقولون هل أصلحتم لأخيكم وما للحد في الأرض الفضاء بصالح

وهكذا ، فأكثر ما يحشاه الشاعر من الموت وحيدته ، إذ بعد
فراق الاهد والاصحاب يتركونه وحيداً في المرء .

ولظروف الاجتماعية ، بل للوضع الحضاري الاثر الاكبر في نوعية

٢ - ديوان بشر ، ص ٢٤ .

دوافع الاغتراب ومبررات الحنين ، إذ نجد في بيئة ثانية دوافع أخرى
للغربة وصوراً للحنين مختلفة ، فالشعراء الذين عاشوا في العراق ، كابن
جعفر مثلاً ، نموا وحنوا إلى قصور (آل محرق) : الخورنق والسدير ،
لا إلى الاطال والرسوم :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم على ميعاد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سندان
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد (١)

لقد أشرنا سابقاً إلى أن النزعة العربية (القومية) تظهر إلى جانب
النزعة القبلية - عندما يكون الصدام مع الأعاجم ، فمثلاً أعشى قيس
يفتخر بيوم ذي قار الذي كان بكر على المعجم (على كسرى وجند
الفرس) مذكراً بأجداد بكر الماضية :

أمّا تميم فقد ذافت عداوتنا وقيس عيلان مس الخزي والأسف
وجند كسرى غداة الحينو صبّهم

منّا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لو أن كل معد كان شاركنا في يوم ذي فارما أخطاهم الشرف (٢)

١ - الأعاني ، ج ١ ، ص ١٧ (دار الكتب) .

٢ - المقد الفريد ، ج ١ ، ص ٨٢ ؛ ديوان الأعشى ، ص ٢١٠ .

وفي هذا المعنى يقول العديل المعجلي :

وما يَعدُّون من يوم سمعتُ به للناس أفضل من يوم بذى قار
ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا اصطلينا وكننا موقدي النار
جئنا بأسلابهم والخييل عابسة لما استلينا لكسرى كل أسوار (١)

لكن يتراجع فيما بعد الأساس القبلي العربي للحنين ليحل محله
أساس إسلامي عام ، ويتجمع الجند أول الامر ، في معسكرات هناك ثم
لا يلبسون أن يستقروا بعد ذلك . وقد يصطحب الوالي معه بعض جماعات
من قومه ، للاعتماد عليهم ، أو بدافع القرابة بتشجيع بعض أقربائه للسفر
إليه ، إلى ولايته ، لانتهاج أسباب الرزق والحياة ويختلط ويتمازج هؤلاء
القادمون بالسكان الاصليين ، وهكذا أخذت تتكون في البلاد المفتوحة
جاليات عربية ، بدأت تتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة من الاختلاط
والتنوع والاستقرار ، محافظة في البدء على الكثير من عاداتها العربية
البعوية . إن الضرورة الملحة دوماً للدفاع أو الهجوم ، وللحفاظ على المناطق
المفتوحة ، لم تسمح للعرب أن يحيا في البداية حياة استقرار وهندسة ،
إذ إن العمليات الحربية قد أخذت منهم قوة ووقفاً كبيرين ، وهذا ما أثر
أيضاً على بلاد العرب غير الحاربة - الجزيرة العربية ومراكز انطلاق
الغزوات وجيوش الفتح ، ذلك لأنهم كانوا دائماً في قلق واضطراب وتبضع
لأخبار النصر والمبارك والفتوحات - أخبار جنسهم الذين ما هم إلا

١ - المقد الفريد ، ج ١ ، ص ٨٢ .

أقرباؤهم وأهلهم . وما يوضح هذا الوضع الحقيقة التالية ، وهي أنه في هذه الظروف العصيبة والاضطرابات الحاسمة عند العرب ، فإن الشعراء - لكونهم « المواطنين » الحقيقيين لبلدتهم - ، لم يكتبوا قصائد طويلة . لكن شعرهم قد حمل صفة البطولة - المحمعية ، والوطنية ، والقصدية والمختصرة . وكقاعدة ، فإن أشعار تلك المرحلة تألفت من عدد من الأبيات ، تصف بطولة المحاربين ، أو تعبر عن الحنين إلى الوطن الأم ، قيلت هذه الأشعار في تخليد بطولة ، أو في ذكر الأشراف والمواجد إلى الأرض الأم ، وكانت تعبيراً عن الآلام ، التي تلدغ كبش المحارب ، وهو يشترك إلى مرابعه الأولى ، ويحن إلى موطنه التي أقبل منها . في كل من هذه القصائد عبر عن شوق وحنين وألم المقاتل ، الذاهب للتزو والفتوحات ، والذي يقع في بعد عن موطنه وأهله ، وعبر عن أحلام المقاتل في أن يكون بقرب أهله . فالعربة والحنين هنا ليسا بسبب البعد عن القبيلة ومضاربها ، لكنها بشكل أقوى ، بعد عن الجزيرة العربية كلها ، عن مسالمها وعن الأهل هناك ، وعن غنوج الحياة فيها ، وعن طبيعتها . وتلح في هذا اللون الجديد من الحنين الضيق الشديد بالربة ، وبلورة الشعور العاطفي تجاه مسقط الرأس ، فكل شيء في المكان الجديد يذكر الشاعر بوطنه ، شبه جزيرته : الجمال والنزق ، والحمام ونوحه ، وأسماء الأمكنة ، وأشجار النخيل . ولا يزال الشعر المثالي في القادسية عن نخلي حلوان شمرأ رطباً مثيراً تقرأه فتشعر ما لهؤلاء الواجدن من عمق العواطف وقوتها :

أسعداني يا نخلي حلوان وابكيا لي من ريب هذا الزمان
وأعلم أن ريبه لم يزل يه رق بين الألاف والجيران

ولعمري لو ذقتنا ألم الفر فة قد أبكاكما الذي أبكاني
أسعداني وأيقنا أن نحسأ سوف يلعاكما فتفترقان (١)

إضافة إلى هذا لا بد من الإشارة إلى أن الناس ، الذين بقوا في شبه الجزيرة العربية ، كانوا قد عاشوا أيضاً مشاعر الحنين والشوق إلى أولادهم وأصدقائهم ، المسافرين مع الزوات في عداد الجيوش الفاتحة . إن هذا الشعور يظهر بوضوح في أشعار ذي البريق الهذلي ، الذي تركه أولاده وهو شيخ هرم ، وبعد الفتوحات في مصر لم يعودوا إليه ، وهو غالباً ما كان يقف على طريق قوافل المائدين من مصر ، مسائلاً عن أبنائه . ومثل هذا النموذج نجده ، عند أبي صخر الهذلي أيضاً ، الذي تركه أبنائه وذهبوا في الحملات ، مما ولد عنده الشوق الزائد لهم والحنين إليهم . إن شعر الحنين والمواجد هذا ما كان إلا تسامياً لشعر الأطلال ، وبسكاه الديار وندب الاجبة ، وتطوراً له . أما شعر البطولة والفتوح فلم يكن إلا تجديداً لشعر الفخر . لكن هذه الأشعار الوطنية البطولية إنما تمتاز عن أشعار الفخر التقليدية ، بالربيع الاجتماعي الذي كانت تطبعه ، وبالزعة العربية الأوسع ، والمشارع الأعم . هذا ما يبدو ، مثلاً ، في الأشعار المقالة بعد واقعة القادسية :

فحصيت عنا عيكرمُ بنة خالد وماخير زاد بالقليل المصرد
وحيتك عي عصابة نخعية حسان الوجوه آمنوا بعجمد

أقاموا الكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهتد

وقول آخر :

وجدنا الاكثرين بني تميم غداة الروع أصبرهم قتالا

بحور للأكسر من رجال كأسد الغاب تحسبهم جبالا

تركن لهم بقادس عزّ فخر وبالحقنين أياراً طوالاً (١)

إن ذلك الجيل الذي كان يرى نفسه غريباً ، طارئاً في تلك الديار المفتوحة المنزوعة ، قد حل محله جيل ثانٍ ، كان يشعر بأن هذه البلاد التي كانت - مفتوحة - هي وطنه الذي تربط به حياته ورغباته وآماله . إذ كان عليهم كثيرهم الضرب في الحياة والميش كأبناء البلاد الأصليين . لكن رغم هذا ففي أشعار شعراء البلاد لذلك الوقت لا تزال تتردد الالفاظ عن الجزيرة العربية ، ربما فقط للملامة ذوق البلاط في التمسك بالتقاليد العربية ، وبعداً عن التعبير الواقعي .

إن كل الصعوبات التي ظهرت نتيجة سوء العلاقة بين الحجاز والخلافة الإسلامية في سورية قد انعكست في الحياة الثقافية في الحجاز . الاضطهاد ، والتمييز في الدولة الإسلامية بالنسبة للعلاقة مع الحجازيين قادا إلى طواهر جديدة من الاغتراب والحنين عندهم . فمثلاً كان الاحواز منفياً إلى اليمن ،

١ - الطائري ، المجموعة ١ ، ص ٧٠ ، (طبعة

أوروبية) .

والعرجي سجيناً في مكة . وبعد سقوط دولة بني أمية هرب بعض الشعراء كمبد الرحمن الداخل إلى المغرب ، وبعضهم الآخر كان ممثلاً ، وفريق ثالث أجبر على الغربة والاغتراب . وعلى هذا الاساس سنتبع التطور التالي لمشاعر الحنين والغربة ، حيث مجالاتها الاطر الثلاثة التالية :

١ - الشعراء المسجونون .

٢ - الشعراء المنفيون والمهاجرون .

٣ - الشعراء المهاجرون .

* * *

١ - السعراء المسجونون

إن سجن السعراء كان مستخدماً منذ القدم ، حتى في العصر الجاهلي ، في الإمارات العربية ، واستمر في عهد الدولة الإسلامية . ولقد شعر الشاعر وهو في السجن أنه وحيد ، معزول عن الحياة ، وعن أهله وأقربائه . وهو في طلبه السباح والرحمة والعفو من سيده ، كان يتدحى ، ويتوعدده ، ويسب ويهجو الوشاة ، ويصف ليالي الأرق التي يمضيها ، وهو مكبل بالقيود ، ويطلب أحياناً الخلاص عند الأصدقاء ، أو يدركه الموت فيريحه .

ليت أني أخذتُ حنفي بكفي ولم ألق ميتة الأفتال
أحظه في الحياة من سيده سلسلة وقيد ؟ ! ورغم أن جبه قد طال لم يعبأ به سيده ، وترك عياله في فاقة :

فبيتي مقفر إلا نساء أرامل قد هلكن من النجيب
وبناقش منطقياً : إن أخطأ فقد نال عقابه ، مطالباً بالأفراج عنه ، وإن علم فقد عوقب . ما يريه ويحسه هو الموت الخيف ، فإن وقع فالندم يصيب السيد الساحن :

وإن أهلك تجد فقدي وتُخذَلْ إذا التقت العوالي في الحروب

ثم يئأس فيوكل أمره إلى ربه ، لقد أرق فيم يقو على السلام ، حتى كأن الصبح ليس بآت ، موثق شديد الوثاق في الحديد ، وماله إلا أن يستنجد بأخوته لانقاده من هذه الغربة ، ومن خطر الموت المحدث به (١) . وترتبط بهذا اللون اعتذاريات النابسة من النعمان بذاته ، الذي توعدده ففداً لا يقوى على النوم كأنه ليدبغ أفعى رقطاء ، وهو تائه في الصحاري يهرب سطوة النعمان :

فأنت كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

ونجد الحنين وشعور الوحدة والغربة عند المسجونين السعراء في أشعار شعراء العصور المتلاحقة أيضاً ، فغربة السجن والحنين للعالم والاهل هي غربة الخطيئة الذي سجنه ابن الخطاب لهجائه الزرقان :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لأماء ولاشجر
ألقيت كاسيهم في قعر مظلمة فأغفر عليك سلام الله يا عمر
أهلي فداؤك ! كم يئني ويسنهم من عرض داوية تعمي بها الخبر (٢)

وتظهر وحشة الغربة بشكل أوضح في شعر ضاوي بن الحارث البرجمي

- ١ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٩٧ - ١٥٦ ، شعر عدي بن زيد ، الذي سجنه النعمان بن المنذر في سجن منزول .
- ٢ - الأغاني ، ج ١ ، ص ١٨٦ (دار الكتب) . شعر الخطيئة . [الداوية : القلاء] .

الذي حبسه عثمان بن عفان في المدينة ، ولم يزل في حبسه حتى مات . إذ
إنه غريب في المدينة رغم كونه فيها :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فاني وقيّاراً ، بها الغريب
وما عجلت الطير تدني من الفتى رشاداً ، ولا عن ريشن تخيب (١)

وهذه بن حنّس المذري وهو في سجن المدينة أيام معاوية يصور
قساوة العيش في السجن ، إذ ألمية متوقعة ، ويشفق لاهله ، متمنياً أن
تكون الرياح الواسطة بينه وبينهم :

ألا ليت الرياح مسخرات بحاجتنا تباكرُ أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب (٢)

ويحس بالآلم الشديد في شعر العرجي الذي أمضى في سجن محمد
ابن هشام [خال هشام بن عبد الملك] ، تسع سنوات ، ومات فيه
بعد أن تعرض لأشنع أنواع التشكيل والقتل والتعذيب ، وبلغ في أشعاره
الضياع الكامل :

أضاعوني وأي فني أضاعوا ليوم كريمة وسداد نغر
وصبر عند معترك المنايا وقد شرعت أسنتها بحجري

١ - ابن قتيبة ، ص ٢٠٣ (بريل) .

٢ - الخلفي ، أدباء السجون ، ص ٦ .

أجررُ في الجوامع كل يوم فيا لله مظمتي وصبري
كأنني لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتي في آل عمرو (١)

حتى إن عبد الله بن علي في حبس المنصور كان يتفق بهـذه
الآيات (٢) . والحبس مصدر أرف الشاعر السجين ، الذي يات يرعى النجوم :

أقول ليحيى ليلة الحبس سادراً ونومي به نوم الأسير المقيّد
أعنتي على رعي النجوم ولحظها أعنيك على تحبير شعر مقصّد (٣)

وتختلف طريقة مناجاة الشاعر السجين باختلاف معتقده ، فأبو
الغاهية الزاهد سجين الرشيد إنما يذكر الرشيد بمصيره ومصير الناس
أجمعين : يوم القيامة والحساب ، ومصير الأمم الغائرة ، وبأن الحكم بينها
سيكون الدين يوم الحساب :

إلى ديّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم
تروم الخلد في دار المنايا وكم قد رام غيرك ماثروم (٤)

١ - الأغانى ، ج ١ ، ص ٤١٣ (دار الكتب) . [الجوامع :

الآغلال ؛ عمرو بن عثمان بن عفان] .

٢ - هناك أيضاً : ص ٤١٣ - ٤١٦ .

٣ - الأغانى ، ج ١ ، ص ٤٠٦ . شعر الحكم بن عجل عندهما
حبس في الكوفة مع صاحبه الاعمى .

٤ - الأغانى ، ج ١ ، ص ٣١ ، ٦٩ (دار الكتب) .

وإن يوم الحبس الطويل عند بشار ما هو إلا يوم البعث والحساب،
الذي منه الخوف لا من محبس في طول :

كيف يبكي لمحبس في طول سيقضي ليوم حبس طويل
إن في البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دارجيل (١)

وإن حين وشوق الشاعر المسجون إنما توظفه الجلمات ، التي
تنوح بقرب السجن :

ومما هاجني وازددت شوقاً بكاء حمامتين تجاوبان

ولقد قابى شعراء المراحل اللاحقة أيضاً من مرارة السجن ، وم
في السجن قد حنوا إلى الأهل والأقرباء :

هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأما أو يمنوا ، أو أنجدوا ، أو أنهموا
وهم مجال الفكر من قلبي وإن بعد المزار فصفو عيشي معهم
أحبابنا ما كان أعظم هجر كم عندي ، ولكن التفرق أعظم
وغدوت بعد فراقكم وكأنني هدف نمر بجانيه الأسهم (٢)

١ - ابن قتيبة ، ص ٧٦ ؛ (بريل) .

٢ - محمد ، ك . أدب مصر ، ص ٢٠ شعر القاضي ، الذي نفي إلى
اليمن وسجن فيها .

وحنوا أيضاً إلى (الوطن) وهذا ما ظهر في شعر الحنين إلى
إربيل عند أبي الفضل الأربيلي الذي سجن عام ٦٢٦ هـ :

قيد أكابده وسجن مغلق يارب شاب الموموم المفرق

يا برق إن جئت الديار بآبريل وعلا عليك من الندامى رونق

بلنغ تحية نازح حسراته أبداً بأذيال الصبا تتعلق

قل يا حبيب لك الفداء - أسيركم من كل مشتاق إليكم أشوق

والله ما سرت الصبا نجديّة إلا وكدت بدمع عيني أغرق

كيف السبيل إلى اللقاء ودوننا شيا شاهدة وباب مغلق (١)

إنه شوق للوطن ، ووصف دقيق للسجن الرتيب الذي أوصدت
أبوابه في وجه الشاعر لتحرر السجن .

وشعراء الأندلس ، الذين ألقوا في السجون ، لم يقصروا في
الافصاح عن حنينهم وشوقهم إلى وطنهم ومواطنهم ، فالشاعر عبد الملك
الخلواني مثلاً كتب في لياليه الآخرة ، وقد شحط به المزار عن الأحبة
والوطن :

ألوى بعزم تجلدي وأصبري نأي الأحبة واعتياد تذكري (٢)

١ - الخلفي ، ص ٢٣٢ .

٢ - الخلفي ، أدباء السجون ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وهذا المعنى كتب الشاعر أبو الحسن بن زرار - من أعيان وادي
آشن بالأندلس ، والمسجون في مرسية ، كتب شعراً يقطر شوقاً إلى بلاده،
طافحاً باللوعة والحسرة :

لقد بلغ الشوق فوق الذي حسبتُ قبل للتلاقي سبيل
فلو أني متُّ من شوقكم غراماً لما كان إلاّ القليل
لقلاني بالتداني المنى ويشدني الدهر صبر جميل (١)

وسرب القفا قد حرك أشجان العتمد بن عباد وهو سجين في
أغمت فقال مناجياً :

هنيئاً لها أن لم يفرق جمعها - ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل (٢)

٢ - الشعراء المنفيون والهاربون

إن غربة النفي والحرب شديدة القسوة على الشاعر تلجها في القلق الذي
يعتري الشاعر فيمنع عنه النوم . وإذا كان النفي تطوراً لمعنى الخلع الذي
رأيناه في الجاهلية ، فإن الحرب صورة أخرى من صور ترك القبيلة ،
والالتحاق بأخرى ، إنما هنا الحرب إجباري من سلطة أو سياسة ،
ويكفي لتوضيح هذا مقارنه ترك امرئ القيس قبيلته ، وهرب عبدالرحمن
الداخل من السلطة العباسية . الخليع والتارك للقبيلة يرتبان حياتهما على
هذا الأساس ، لأن القبيلة تنكث للأول فلا سبيل له للعودة إليها ، أو لأن
الثاني تركها طوعاً واختياراً . واليأس من العودة إلى القبيلة عندهما شبه
استقرار على أية حال ، لكن النفي والحرب السياسي شيء آخر ، فالشاعر
المنفي أو الهارب سياسياً يبقى على الدوام محافظاً على أمل العودة إلى وطنه
حين تبدل الظروف السياسية ، لكنه لا يدري متى تبدل هذه الظروف ،
وهل يتد به العمر حتى يشهد هذا التبدل ؟ أم يخترمه الموت قبل أن يرى
وطنه مرة أخرى ؟ ، ومن هنا كان الاحساس العميق بالقلق الذي تلجحه
مثلاً في شعر أبي قطيفة وهو في الشام منفياً عن المدينة من قبل ابن الزبير
بعد وقعة الحرة :

أقرمني السلام إن جئت قومي وقليل لهم لدي السلام
أقطع الدهر كله باكتئاب وزفير فما أكاد أنسام

١ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

٢ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

نحوقومي إذ فرقت بيننا الدار ر وحادث عن قصدها الأحلام

ثم يأخذ بتعداد مواضع وطنه وقصورم ، حيث يشاق إليها كثيراً
ويحزن . إن هذه الحسرة ، وهذا التأثير يحس بهافي قصيدة ثانية أخرى له :

ألا ليت شعري هل تفتّر بعد نأقباء وهل زال العقيق وحاضره؟
وهل برحت بطحاء قبر محمد أراهطُ غرُ من قریش تبأ كرهه؟
لهم منتهى حبي وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره (١)

وهذه أبيات لمجهول يأتي بها صاحب الأغاني [ج ، ١ / ٣٠]
شبية بما أورده لأبي قطيفة ، فيها الوعة والحنين والشوق :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا حبوب المصلي أم كعهدي القرائن؟
وهل أدور حول البلاط عوامر من الحلي ، أم هل بالمدينة ساكن؟
إذا برقت نحو الخجاز سحابة دعا الشوق مني برقها المتيامن

ورغم أن أبا قطيفة في بكائه (أحنداً) عندما أجلى بنو أمية
عنه ، يواسي نفسه بالتطلع إلى الشام ، أهل عشيرته :

بكى أحد لما تحمّل أهله فسلع ، فدار المال أمست تصدّع
وبالشام إخواني وجلّ عشيرتي فقد جعلت نفسي إليهم تطلّع

١ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٣١ (دار الكتب) .

إلا أنه يصرح في مكان آخر ، حيث هو في الشام ، بأنه لم
ينذهب إليها برغبته ، ويحزن إلى الحجاز وإلى أهله الفاطنين هناك :

وما أخرجتنا رغبة عن بلادنا ولكنه ما قدر الله كائن
أحين إلى تلك الوجوه صبابه كأني أسير في السلاسل راهن (١)

ونعثر في أشعار عمر بن أبي ربيعة (٢) والأحوص (٣) (المنفيين إلى
إلى اليمن من المدينة) على عبارات الحنين والشوق ، والرغبة في العودة إلى
الوطن . إذ يكتب ابن ربيعة شعراً على لسان حبيبته ، متوجّهاً لأترياقاً قال :

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في اليمن؟
إن كنت حاولت دنياً أو ضفرت بها فإأخذت بترك الحج من ثمن

ويلاحظ عند هؤلاء الشعراء بأن الغربة هي الحياة في بعد عن
الوطن ، وعن الأهل والاختوة والأصدقاء والرفاق . هذا الحنين إلى
الأصدقاء والرفاق ، من شبه المؤكد ، أنه ظاهرة تعبدية قد حلت مكان
الحنين إلى القبيلة . لكن ، هذا كله لم يبق ظهور العواطف والمشاعر
الدينية عند الشاعر ، والتعلق الطائفي بآل البيت ، وهذا ما يظهر في شعر
أبي عدي العبلي الذي كان إلى جانب العلويين .

١ - هناك أيضاً ، ص ٢٩ ، ٣١ .

٢ - هناك أيضاً : ص ١١١ .

٣ - الأغاني ، ج ١ ، ص ١٧ ، ٢٢٤ - ٢٦٨ .

ولذا أخذ ينسكل به بنو العباس . لقد ذهب إلى الطائفت حيث وإيها محمد بن عبد الله بن الحسن ، لكنه لم يكذب في إيها حتى أحس بهزيمة العلويين فيها ، فخرج هائماً على وجهه إلى اليمن حيث يقول :

هيات تلك معالم من ذاهب أمسى بجوضى أو بحقل قباب
شطت نواهد عن الأليف وساقه لقرى يمانية حمام كتاب

والملاحظ ان الاغتراب هناعن الاخوان ، والأصحاب، والألاف قب كل شيء . وأكبر الظن أن تلك هي الرابطة الجديدة التي بدأت تحمل محل الروابط القبلية ، وإن كانت الجديدة لم تقو على منع الشاعر من عصبية مذهبية ، دينية لآل البيت . وهكذا فقد ساق التطور الحضاري إلى هذه الرابطة كما ساق المجتمع البدوي القديم شاعرنا الجاهلي إلى الحديث عن رابطة الدم . هذه الروابط لا بد وأن تجد صداها ، لأن مجتمع المدينة يختلف عن مجتمع البادية ، حيث تنقلص في المدينة القيم البدوية لتظهر مكانها القيم الحضارية . ولكن يجب ان لا ننسى ان عاصمة الخلافة بغداد خاصة ، والعراق عامة من أكثر المناطق معاناة للصراع بين البدوالة والحضارة . فبلى الرغم من قدم التراث الحضاري في العراق فإن القيم البدوية الآتية إليه من الصحراء الجاورة لها تأثيرها الدائم . على أي حال، منذ أيام الاستقرار، بدأت القبائل تنزب في مجتمع المدينة ، وتقوم العلاقات الجديدة على أساس روابط الصداقة . ومن هنا يكبر الحديث عنها في كتب ابن المقفع ، وفي شعر بشار ، وعند أبي فراس الحمداني ، وأبي حسان التوحيدي . فالحكاه قالت قديماً : « رب أعز لك لم تلده أمك » ، ويرى أبو تمام :

فأذا القرابة لا تقرب قاطماً وإذا المودة أقرب الأنساب (١)
وبهذا المعنى قال المبرد :

ما القرب إلا لمن صحّت مودته، ولم يخنك، وليس القرب للنسب
كم من قريب ذوي الصدر مضطفن ،
ومن بعيد سليم غير مقرب (٢)

وهذا ما يلاحظ في وقت متأخر من استعمال الحسين ، في المراسلات الثورية ، للاخوان والأصحاب ، كما عند أبي العلاء، والهمذاني (٣) .

ولم يخرج (البسلي) وحده هائماً على وجهه عقب انتصار العباسيين ، بل هناك غيره كثيرون ، إنما أبرزهم عبد الرحمن الداخل ، الأمير الشاعر ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . كان له من العمر عشرون عاماً عندما أوقع السفاح بقاء الامويين ، لكنه فر مع بعض الجند عبر نهر الفرات سباحة . في حياته المضطرات ، والمغامرات ، إذ سار منتقلاً من الشام ، إلى مصر ، إلى شال أفريقيا ، حتى وصل المغرب ، واحتوى بقبيلة « نفرة » ، التي يت لها بصلة الخوالة ،

- ١ - العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٢٨ (القاهرة ، ١٢٩٣ هـ) .
- ٢ - العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٢٩ (القاهرة ، ١٢٩٣ هـ) .
- ٣ - متر ، آدم . الحضارة الإسلامية ، الترجمة العربية ، ص ٣٥٠ ، الترجمة الروسية ، ٢٠٧ .

واستغل الخلاف بين البعثين والمضربين في اسبانيا ، فأنهت بذلك قصة
عبد الرحمن الشريد ، وبدأت قصة عبد الرحمن الثالث الاموي في أقصى
المغرب . وكان بنفس عن آلامه من حين إلى آخر بقطوعات شعرية .
رأى ذات يوم نخلة بقصر الرصافة في ضواحي قرطبة ، وتصور المشابهة
بينها ، كلاهما مجلوب الى الغرب ، وببعد عن بلده فقال :

تبدلت لئما وسط الرصافة نخلة

نشأت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شيبني في التغرب والنوى

وطول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غربة

فمثلك في الاقصاء ، والمتأى مثلي

سقتك غواذي المزن من صوبها الذي

يسح ويستعري السما كين بالوبل (١)

وله قطعة أخرى رقيقة يصور فيها البعد عن الوطن :

إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ، وما يكن بأرض

١ - راجع صورة أخرى لاغترابه ، واغتراب النخلة في (الشعر
الأندلسي) لجارسيا جومس ، ص ٢٧ .

فهو يعيش في بلاد الغربة بحجمه ، أما عواطفه فهناك في الوطن .
والملاحظ أن الشاعر يستخدم ضمير الجمع [نا] معبراً عن نفسه . ونجد
هذا أكثر وضوحاً عند المتنبي ، حيث نجد الاحساس بالذات قد تضخم .
ولا شك في أن حياة المتنبي الشخصية ، كانت عاملاً من عوامل بروز
(الإناء) .

فوق آخر من السجن هو الاسر ، وفيه يظهر الحنين ، وتبرز
الآوعة بشكل أوضح ، وأكبر ، وبخاصة إذا كان الاسر في بلاد الأعاجم .
ونجد هنا عن شعراء الاسر ثلاثة : أبو الطمحن [جاهلي - اسلامي] ،
وأعشى همدان [ابي] ، وأبو فراس الحمداني [عباسي] .

ففي حرب الفساد بين جديلة والفوئ الطائيين وقع أبو الطمحن
اسيراً ، فقال في أسره ، واصفاً ارقه وهوموه :

أرقتُ ، وآبتي الهوموم الطوارق ولم يلق مالاقيت قبلي عاشق (١)

أما أعشى همدان فقد وقع في أسر الدليم مدة عندما أغزاه الحجاج ،
وله في أسره قصيدة فيها شوق للجزيرة ، وللظلمات تسير في « وادي ذي
خشب » بالمدينة ، ولحوتها التي من نخل يثر بظلمها ذي الرائحة الذكية ،
ولحيوته . وبعد كل هذا يدعو للتصبر ، والتجمل لما ألم به من أسر في
يد الأعداء ، بعد أن كان مقاتلهم الصندي :

١ - الاغاني ، ج ١ ، ص ١٠ ، (دار الكتب) .

وإذا تصبك من الحوادث نكبة^١ فاصبر، فكل مصيبة ستكشف^٢
ولئن بكيت من الفراق صباية^٣ إن الكبير إذا بكى يعتف^٤
عجباً من الأيام كيف تصرف^٥ والدار تدنو مرة^٦ وتقذف^٧
أصبحت رهناً للعداة مكبلاً^٨ أمسي، وأصبح في الأدام أرسف^٩
ولقد أراني قبل ذلك ناعماً جَذْلاً أن أضام وأنف^{١٠}
واستنكرت ساقى الوثاق وساعدي

وأنا امرؤ بادي الأشاجع أعجف^(١)

أما أبو فراس الشاعر العربي والفارس ، ابن عم سيف الدولة ،
[توفي - ٣٥٧ هـ] ، وواليه على منبج فقد وقع أسيراً بيد الروم ،
وقضى في أسره ثلاث سنوات في حصن خرسنة ، وسنة في القسطنطينية ،
يكاد يقتله الحزن ، والشوق ، والشكوى الخائبة . لقد أفرد الروم له
قصرأ يطل على البحر ، لكن في سمع أبي فراس كانت تكرر أمواج
البحر ، فتزكي إحساسه بالوحشة ، والغربة ، فيزفر زفرات تقطع القلب .
ولعل صورة أسره ما تزال ، بصدقها ، وحرايتها ، وعفويتها ، أثرأ خالداً ،
من أخلد صور الأسر في الادب العربي . فقليل أن تنزف الجراح في
صدر التجارب الانسانية الخزينة بتل الحرارة التي زفت بها جراح أبي

١ - الاغاني ، ج ١ ، VI ، ص ٣٦ - (دار الكتب) . [أعجف :
قليل الاحجم] .

فراس في روميائه . وروميائه تشبه أن تكون مذكراته ، ورسائله في
الأسر ، فقد كان يبكي في بعضها ماخيه الرائع ، ويناجي نفسه ، ويسح
جراحه ، ويحاور في بعضها عطاء الروم ، ويرد عليهم مطاعنهم في العرب ،
ويرسل سيف الدولة ، فيذكره بالماضي الجليل ، ويلائنه في بناء الامارة ،
ويروابط الدم التي تحممها ، ويعتب عليه قوته في الممي خلاصه ، ويرسل
أمه الوحيدة القيمة في منبج فيوصيها بالصر ، ويرسل أصدقاءه ، فيصف
أسره ، ويغني وده القديم . وأم ما يستوقفنا عنده : شكوى الغربة ،
والشوق ، والحنين . فاسمعه يقول مناجياً سيف الدولة :

وقد كنت أخشى الحجر ، والشمل جامع

وفي كل يوم لقيته وخطاب

فكيف وفيما بيننا ملك قيصر والبحر حولي زخرة وعباب؟

إذ يشعر هنا بالبعد الرعيب ، لا عن سيف الدولة فقط ، بل عن
وطنه ، وأهله ، وعزه الغابر :

بلى أنا مشتاق ، وعندي لوعة ، ولكن مني لا يذاع له سر

إنها ألفاظ الشوق ، والحنين ، لكنها كبرياء الفارس التي تندحر
أمام عظمة الشوق . وشكوى الاصدقاء ، وخيانتهم :

كثر الغدر والحياة في النا س فما أن ترى صديقاً صدوقاً

قل أهل الوفاء واتبع النا س ، من الغدر، والجفاء طريقاً .

إنها غربة الأسر ، وغربة الأصدقاء ، حتى وألم البعد عن الأم
الوحيدة ، الحزينة ، القابعة بعيدة عنه تسأل الركبان عن حاله :

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج ، وأولها
عليلة بالشأم ، مفردة بات بأيدي العدا معلها
تسأل عنا الركبان جاهدة بأدمع ما تكاد تمهلها
يا أيها الركبان! هلاً لكمما في حمل نجوى ، يخف تحملها
قولاً لها إن وعت كلامكمما وإن ذكرى لها ليذهلها-:
يا أمّتا! هذي منازلنا تركها تارة ونزلها(١)
تمر الساعات بأبي فراس وكأنها اعوام :

تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل شيء لا يسرك طول
وتهب عليه نيمات [منبج] العلية ، فيستقبلها ، وقد فتح صدره ،
وأخذته نشوة الماضي الذي ازهر في ربوعها ، حاناً لها :

قف في ربوع المستجا ب ، وحي أكناف المصلّى
تلك المنازل والملا عب ، لا أراها الله محلا

١ - ديوان أبي فراس ، ج . II ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ٢٠٩ ؛ ج . ح .

III ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

أوطنتها زمن الصبا وجعلت منبج لي محلاً
حيث التفت رأيت ما ء سائحاً ، وسكنت ظلاً(١)

وتشتد به الآلام ، فيخاطب الحمام شاكياً له القيد ، والغربة عن
الوطن ، والوحشة ، والاسر ، فحيا الجمجمة الكائنة بينها بنعم انساني
صاف عميق وسيع ؛ الصق كبده بكبد الحمامة الحزينة فاستشعر حزنها ،
واستشعرت حزنه ، فأنس بها :

أقول وقد ناحت بقربي حيامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الموم تعالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي(٢)

إن في روميانه الغربة الحقيقية ، والصدق العاطفي ، والشوق
للوطن ، ولجده به ، والشوق لامراته ومدينته ، فكانت روميانه ملونة
بهذه المראה الخصب ، والشوق الزائد .

١ - المستجاب والمصلى - قصراً أبي فراس في منبج .

٢ - الخلفي ، أدباء السجون ، ص ٢١١ ؛ ديوان أبي فراس ، ج . ح .

III ، ص ٣٢٥ .

٣- الشعراء المهاجرون (الشعراء في المهجر)

لقد أثّرنا فيما سبق إلى أن بعض المخارير المسلمين ، وهم يشعرون بثقل الفارقة مع الوطن ، قد عبروا عن حنينهم وشوقهم شعراً ، يفيض حنيناً إلى الحجاز . إن شعور الحنين هذا والشوق ، شوق الشعراء في الغربة ، قد تضاعف بصورة خاصة عندما شعروا بقرب الموت في بعد عن الوطن . وهذا ما يظهر بوضوح في شعر مالك بن الرب وهو بخراسان في جند سميد بن عثمان بن عفان ببدأ عن مكة والمزيرة :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة

بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضا ماشى الركاب ليلاليا

غداة غدٍ يلهف نفسي على غد

تذكرت من يكي علي فلم أجد

وبالرمل مني نسوة لو شهدني

بكين وفدّين الطيب المداويا (١)

١ - ابن قتيبة ، ص ٢٥٥ .

وها هو عوف بن محم الخزاعي يخرج من الجزيرة ، ويتنقل مع طاهر بن الحسين ثلاثين عاماً ، ثم مع ولده عبد الله بن طاهر من بعده يشهد معها الحروب في الري ، وخراسان ، ويقيم حيث يقيمون في ولايتهم ، ويشهد به الحنين إلى وطنه ، ويرغب في العودة ، لكنه لا يجاب إلى طلبه ، فيتشوق ، في قصائد حزينة ، إلى وطنه ، وإلى أبنائه ، ويزداد إحساسه بالغربة بعد أن دهمته الشيخوخة ، فيتلف إلى الاستراحة من رحلته الطويلة بالعودة :

أفي كل عام غربة ونزوح

وأرقني بالري نوح حمامة

على أمّنا ناحت فلم ترَ عبّرة

وناحت وفرفراها بحث تراهما

ألا يا هام الأيك فرحك حاضر

وغصنك ميتاً فعيم تنوح؟ (١)

ونهتف في مكان آخر : [وهت بالأوطان وجداً بها] (٢) .

إن مفهوم الوطن يتطور عند الصمة القشيري ، فيصبح كأنما موج بالحياء ، لا مجرد أرض ، أو اسماء أماكن ، أو ذكريات شباب (٣) .

فكانه يعيش بحسبه في أرض الغربة ، أما فؤاده فهناك ، في الحى :

١ - طبقات ابن المعتز ، ص ٨٧ .

٢ - هناك أيضاً ، ص ١٨٨ .

٣ - انظر الاغانى ، ص ٧١ ، ص ٣ - [دار الكتب] .

إِذَا مَا اتَّنا الرِّيحَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ أَتُّنَّا بَرِّيَّا كَمْ فَطَابَ هَبُّوْهَا
أَتُّنَّا بِرِيحِ الْمَسْكِ خَالِطَ عَنَبْرًا وَرِيحِ الْخِزَامِي بَا كَرْتَهَا جَنُوبَهَا
وهل يسأل عنه الحمى كما يفعل هو ؟

وَأَسْأَلُ مِنْ لَا قَيْتُ : هَلْ مُطِيرَ الْحُمَى ؟

فَهَلْ يَسْأَلُنْ عَنِ الْحُمَى : كَيْفَ حَالِيَا ؟
وابن مياده ، وهو عند الوليد بن يزيد بالشام ، يمدحه ، وينال
اعطيائه ، يحن إلى أهله ، ووطنه بنجد . لقد قال للوليد ، وهما بأبا بين
[موضع كان ينزله الوليد في الربيع] :

لَعَمْرُكَ إِنِّي نَازِلٌ بِأَبَا بَيْنٍ

لِصَوَّارٍ مُشْتَاقٍ . وَإِنْ كُنْتُ مَكْرَمًا
أَيُّتُ كَأَنِّي أَرْقُدُ الدَّهْرَ سَاهِرٌ

إذا بات أصحابي من الليل نوّما
فقال له الوليد : يا ابن ميادة ! كأنك ضجرت من قربنا ، فأجابه :
ما مثلك يا أمير المؤمنين بضجر منه ، ولكن :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أُيْتِنَّ لَيْلَةً بِحَرَّةٍ لَيْلِي حَيْثُ رَبَّتْنِي أَهْلِي

وهل أسمع من الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل خصيب إلى هجل ؟
بلاد بها يفضت عليّ تمانمي وقطعن عني حين أدر كني عقلي
فان كنت عن تلك المواطن حابسي

فَأَيَسِرْ عَلَيَّ الرِّزْقُ ، وَأَجْمَعْ إِذْنُ شَعْلِي (١)

ولا نترك الحديث عن الجزيرة ، والشوق لها دون انت نشير إلى
شاعر تشرد في البوادي أكثر عمره ، وهو قيس بن الملوّح - مجنون
ليلى - . وقصة حياته معروفة : فهو غريب في أرض بني عامر ، غريب
في تشرده ، غريب في وحدته وتجوّاله . ذكر له صاحب الأغاني (٢) أربع
مقطوعات يشكو فيها اغترابه ، وينشوق إلى الحمى ، فقد [أفرد أفراد
الطريد] ، وهو صاحب الأمل الضائع : [فليست عشيات الحمى رواجع]
ويرد :

أَدْنِيَايَ لِمَالِي فِي انْقِطَاعِي وَغُرْبِي

إِلَيْكَ ثَوَابٌ مِنْكَ دِينَ ، وَلَا تَقْدُ

١ - ابن قتيبة ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ [بريل ١٩٠٤] ؛ الأغاني ،
II ، ص ٣٠٩ - ٣١١ . انظر هنا الزواجة الثانية عن معارضة
ابن ميادة لقصيد عبد السلام بن القتال .
[صور : اسم مكان ؛ حرة ليلى : مكان قرب المدينة المنورة ؛
الهجمة من الأبل : فوق الأربعين ؛ الهجل : المظلمن من
الأرض] .

٢ - الأغاني ، II ، ص ٢٧ - ٦١ .

عديني - بنفسني أنت - وعداً فربما

جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد

يرى بلاداً ينكرها ، وقوماً لا يعرفهم ، فيسألهم عن جبل التوباد ،
أرض بني عامر ، فيقولون : « أين أنت من أرض بني عامر ؟ ! عليك
بنجم كذا » ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد ، فإذا رآه قال :

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رأيته
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلتُ له : قد كان حولك جيرة وعهدي بذاك الصرم منذ زماني
فقال : مضوا ، واستودعوني بلادهم

ومن ذا الذي يبقى على الحدثنان (١)

فالقربة عنده ، وإن كانت غربه رحيل ، لكنها تحمل دلالات
نفسية ، فقد يكون بين أهله ، ولكنه يحس بالقربة ، وليس جبل التوباد
أكثر رمز يوحى بمعنى الامومة ، والطمأنينة ، ونفي الغربة .

إضافة الى هذا ، ففي العصر الأموي أيضاً يظهر الارتباط بالأرض
والوطن مقروناً بالعيشة الحسنة . يفهم هذا من سؤال عبد الملك بن
مروان للحارث بن خالد الخزومي - واليه على مكة : « أي البلاد أحب

١ - الأغاني ، ج ٢ ، ص ٢٧ - ٦١ .

إليك ؟ فقال : ما حسنت فيه حالي ، وعرض وجهي ، ثم قال :

لا كوفة أمني ، ولا بصرة أبي

ولست كمن يثنيه عن وجهه الكسل (١)

وعندما اجتمع الاخفاق في الحياة ، وطول المقام في العراق عند
ابن المولى [مخضرم البولتين] ، هتف بصراحة ان الإقامة في العراق
ضلال ، وهو يتركه المدينة إنما كالذي ترك البحار ، ويميم الاوشال ،
واشتاق ، وحن إلى المدينة :

ذهب الرجال فلا أحس رجالاً وأرى الإقامة بالعراق ضلالاً
وطربت إذ ذكر المدينة ذاكر يوم الخميس فهاج لي بلبلاً
طرباً إلى أهل الحجاز ، وتلوة أبكي بدمع مسبل إسبالاً
إن الغريب إذا تذكر أوشكت منه المدافع أن تفيض عيلاً (٢)

لقد حدث تطور في مفهوم الوطن ، وخاصة بعد تمازج الثقافات
ألم بني العباس ، فلم يعد الوطن هو الجزيرة العربية وحدها ، ولم يعد

١ - الأغاني ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ (دار الكتب) .

٢ - الأغاني ، ج ٢ ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ [دار الكتب] ؛
[الأوشال : الماء القليل ؛ البلبال : الهم ؛ عيال : مرة
بعد مرة] .

الحنين الى الوطن هو الحنين الى هذه الجزيرة فقط ، إنما غدا الوطن تلك البقعة من الارض التي يعيش عليها الشاعر ، وترتبط بها حياته . بل ظل أولئك - هو المدينة .. الخ ... ولقد جمع ياقوت الخوي فصلاً خاصاً في المدن : من فارقها من الشعراء ، ومن حن إليها . ولهذا حل الحنين إلى مدينة الشاعر محل الحنين إلى الجزيرة العربية في أكثر الاحيان ، حيث غدا هذا الحنين وجهاً آخر - قد يكون بعيداً نوعاً ما - من وجوه العصبية الاقليمية التي ظهرت أيام بني أمية ، وحلت محل الحنين الى الحجاز ونجد [فشرع ينتصر للعراق ، وآخر لاشام ، وكان هذا أساساً للوطنية فيما بعد]^(١) ، فلشاعر محمد بن وهب قصائد كثيرة في الحنين الى البصرة . ويذكر شاعر آخر (الكرخ) وهو - في مصر ، في رحاب الحبيب ، فتلذسه الغربة ، وتحرك فيه لواعج الحنين إلى بغداد [ذكر الكرخ فآح الاوطان] . ومطيع بن إياس يشوق إلى الري ، ومن بها وهو بحلوان ، [قرب بغداد] ، ويحس بوحشة الغربة في قصيدته المشهورة ، [أسعداني يا نخلي حلوان ..] . ويحن أبو تمام الى أيامه بحلوان مصر . وإخوانه بالفسطاط ، ويعجب انصاريف الدهر التي تبعد المرء عن وطنه ، فيضرب في الارض حتى اذا ما اتخذ وطناً ثانياً ، واستعاض عن الاهل بالاخوان عادت الايام تعب به ، وتفرق بينه وبين إخوانه ، وتطرحه مطارح الغربة:

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا بالركتين ، وبافسطاط إخواني

ولابن الرومي قطعة شعرية في الحنين الى الوطن [أنشرونا إليها

١ - الشاب ، الشعر السياسي . ص ١٧٥ .

سابقاً] ، تتركز قيمتها المنوية في تمليها الاغتراب لا برحيل الانسان عن الارض ، بل بالنفس التي فارت جسدتها فبلكت . ويحن القاضي عبيد الوهاب بن نصر الى بغداد بعد أن رحل عنها إلى مصر ، لا عن قلق لها ، بل ضاقت عليه بأسرها ، ولم تكن الارزاق فيها تسعف المرء على الحياة :

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني السلام المضاعف (١)

أما في منتصف القرن الخامس الهجري ، وبعد النكبة التي حلت بالعرب في شمال افريقيا ، فقد هاجر قسم من شعرائهم إلى الاندلس ، وصقلية ، وقالوا الكثير في ذكر الاوطان ، والحنين إليها ، وأثر الشوق إلى الاوكر ، وإلى مدن معينة بذاتها . فهذا محمد بن شرف ، اللاجيء الى الاندلس يحن إلى القيروان ، ويتمنى لو كان طائراً ليراهما :

يا قيروان وددتني أي طائر فأراك رؤية باحث متوكل
أبدت مفاتيح الخطوب عجايباً كانت كوامن تحت عتب مقل
بأربعي في القطب منها كيف لي بمعاد يوم فيك لي ، من أين لي؟ ..

ويعصور المهاجر هاماً على وجهه لا يلقاه أبناً حمل إلا المذلة

١ - حسين م . م . أثر الرحلة ، ج ١ ، ص ٣١٧ - ٣٣٠ (محاضرات
المجمع العلمي العربي بدمشق ، عام ١٩٥٤) .

والهوان ، تنبو به الارض فينتقل ساكباً الدموع ممزقة (١) . وهذا تأوه شاعر القيرواني آخر في ارض الغربة وهو عبد الكريم بن الحلواني من أم الاندلس أيضاً :

لله منزلة بالقيروان محاً أيامها البين لا الأيام والتقدم

ويقول مصوراً حال الغربة ، وكأنهم قد لاقوا عنتاً كثيراً :

يا نفس ويحك في التغرب ذلته فتجرعي كأساً أذى وهوان
وإذا نزلت بدار قوم دارهم فإلهم عليك تمزج الأوطان (٢)

إنه إن الضروري أن نشير إلى أن عدداً من الكتاب المؤلفين قد خصصوا فصولاً خاصة مستقلة من كتبهم في محاسن ومساوي حب الوطن ، فمثلاً ، ابن الفقيه (أواخر القرن IX/III) ، الذي أورد الحديث عن حب الوطن (٣) وابن حوقل (٤) ، والجاحظ (٥) ، وإبراهيم الحصري القيرواني (٦) . ورغم ظلم وقسوة الحمدانيين ، الذين فر وهاجر السكان من

١ - الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٤٣٥ .

٢ - هناك أيضاً .

٣ - انظر . ابن الفقيه ، كتاب البلدان .

٤ - انظر . ابن حوقل .

٥ - الجاحظ ، الحنين إلى الأوطان .

٦ - إبراهيم القيرواني ، زهر الآداب .

قتوتهم هذه ، فإن كثيراً من السكان الآخرين قد قرروا، وفضلوا البقاء في مواطنهم ، متحملين الظلم بسبب حجم لاوطن ، الذي أمضوا فيه قوتهم ، رغم أنه عليهم أن يعطوا الحاكم نصف المحصول. والحاكم هو الذي يقدر كمية الضرائب - حسب رغبته - بالذهب أو الفضة (٧) .

كما أن المركبين في ذي فار والقاسية اللتين حصلنا بسين العرب وغير العرب كائناً سبياً في نظم الكثير من الشعر ، الذي عبر عن كثير من جوانب الصراع بين الفاتحين ، وربما كانت في هذا الشعر بعض الملامح القومية . كذلك فإن وقعة عمورية ، ونصر العرب فيها على البيزنطيين في خلافة المنصم قد أوحى للشعراء العرب بالشعر الكثير، والشعراء نالوا هذه المناسبة كان قد قاله أبو تمام ، في ملحمة البطولية التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

في هذه الملحمة، وأيضاً في شعر المتنبي، عامة، الذي قيل ضد الشيعية، تظهر بذور القومية (٨) .

ومنذ نهاية القرن الخامس / XI يبدأ النضال - نضال العرب ضد الصليبيين والبيزنطيين في الشرق ، ومع النورمانديين في صقلية في الغرب.

١ - متر ، آ . ، الترجمة العربية ، ج ١ . ص ١٨١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١١١ .

في دراستنا وتحليلنا لأشعار أسامة ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ،
يعتمد على مفاهيم : عرب ، عجم (غير عرب) ، مسلمين ، نصارى ،
البحر ... لكن ، في نفس ذلك الوقت ، عندما يحين أسامة إلى وطنه ، فإنه
لا يحين إلى الأرض العربية أو الإسلامية كلها ، بل إلى شبر الصنيرة ،
إلى مسقط رأسه ، وأحياناً إلى سورية بشكل عام ، ولقد أشرنا إلى هذا
أكثر من مرة فيما سبق . ونظير أسامة في هذا معاصره علي بن يقطين
السيدي ، الذي كتب يحين إلى مصر من الموصل :

أحنّ إلى مصر حنين مقيم
بها مستهام القلب محترق الكبد
أراهم بالحظ الشوق في كل بلدة
كأنهم بالقرب مني أو عندي
ولو أن طعم الصاب جُرعت فيهم
لفضله للحب فيهم على الشهد (١)

وتكثيفاً ، لدراستنا ، فقد وصلنا إلى النتيجة التالية : وهي أن
الشعراء الجاهليين والإسلاميين وهم يستعملون في أشعارهم ألفاظ : شعب
وقبيلة ووطن وفخذ .. الخ .. ، لم يقصدوا بهذه الألفاظ المعاني المحددة
الدقيقة التي يراها فيها العلماء ، وكانت العصبية قد لعبت دوراً بارزاً واضحاً
في العلاقات الاجتماعية عند العرب ؛ هذه العلاقات القبلية التي تذكرونا
بالمظاهر القومية المتعصبة في النظام السياسي الحديث المعاصر .

إن الهزة العنيفة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند العرب قد
سببها ظهور الإسلام ، وفتح المسلمين لمناطق وأقطار جديدة . فاستقرار

الفاحين العرب في هذه المناطق الجديدة قاد ، بالدرجة الأولى ، إلى اختلاط
وتمازج القبائل ، حيث ظهر نتيجة لهذا التمازج جبل جديد . وظهرت
الاحزاب السياسية ، والفرق الدينية ، التي لعبت دوراً ملحوظاً في ظهور
علاقات اجتماعية جديدة ، وإلى ظهور مفهوم جديد متطور للوطن .

أما في أوقات الفتوح ، فإن حنين المهاجرين إلى الأمان في الوطن
(وأحياناً إلى الجزيرة العربية بأكملها) وحزن الذين بقوا على أرض
الوطن - كل هذا قد وجد انعكاساً خاصاً في الشعر العربي . والحنين إلى
الوطن وأماكنه هنا ما هو إلا تسام وتطور للطلع الغزلية . وإن الأشعار
الطويلة أيضاً عن الذاهبين في الحلات والنزوات ، وعن أعمالهم ونضالهم ،
ما هي إلا نخوة جديدة ومتطورة لشعر الفخر التقليدي ، لكنها تختلف
عنه بأنها تعبر عن الشعور العام الإسلامي .

إن مفهوم « الوطن » يتطور من أماكن النزول والاستقرار ،
وأماكن تنقل القبيلة ، إلى مفهوم المدينة الجديدة ، والمكان الجديد ،
حيث نزل ، واستقر العربي ، وأصبح انساناً مستقراً لا رحالة متنقلاً .
وفي كل مراحل التطور ، كان مفهوم « الوطن » - مكان الاستقرار
الملائم - مرتبطاً بحفظ كرامة الانسان ، وتأمين الحياة الأرضية الملائمة .
وأظهر تطور المجتمع تأثيراً كبيراً على علاقة الفرد بالقبيلة وبالأقرباء . ومن
هنا ، في الشعر وفي الرسائل النثرية ، نجد الحنين إلى الاصدقاء والرفاق
انعكاساً وتعبيراً واضحاً .

إن اغتراب الشعراء - لأسباب عدة مختلفة - وبدعم عن أماكن
السكن الأصلية (الأوسر ، النفي) ، كان مصدرراً للتعبير الشعري عن
الشوق والحنين إلى الوطن .

لكن ، لا بد من أن نشير إلى أنه يعثر على خط واحد ، وعلى ظل واحد عند معظم الشعراء ، على امتداد المصور والمراحل ، في الاشعار المقالة في الغربة ، والمعبرة عن الحنين إلى الوطن - ان هذا استسلام وتنازل بدون نضال ، انه الشعور التراجيدي للشاعر .

مجموعات الشعراء « السجناء » ، والأسرى ، والمفنين ، والمهاجرين الذين ذاقوا مرارة البعد عن الوطن ، وعاشوا بظروف عمقت التعلق بأوطانهم « التي أبعدوا عنها ، أو تباعدوا ، ان هذه المجموعات ، في أشعارها ، قد عبرت عن أسمى معاني الحب ، والشوق الى الوطن ، وعن أعلى درجات التعلق والتمسك به ، رغم أن هذا التعلق لم يتعد ، عند بعضهم ، مجال الأمنيات فقط ، لكن بعضهم الآخر قد عان كل شيء : الحياة المترفة والتقدير والمكانة الاجتماعية ، وحاول جاهداً العودة الى الوطن . إن شعر هذه المجموعات أصدق صورة عن أسمى مشاعر الانسان ، وأطيب صفاته الانسانية ، صورة عن تعلق الانسان بوطنه . أما أسامة فينبض شعره بالحياة والحب والألم والأمان ، ويعبر عن تعلق العربي بوطنه ، رغم أن ظروف الحياة وقتها ، قد ساعدته على التنفـل بحرية في مختلف أصقاع الوطن العربي تقريباً .

ومفهوم الوطن في القرن الثاني عشر XII ، قرن أسامة [ونخص بالذكر مرحلة حياته الاولى] لم يكن أكثر من مسقط الرأس [مكان الولادة] ، مدينة ، أو مقاطعة صغيرة ، حيث عاش الشاعر ، أو مكان ملكه وإمارته . مثل هذا المفهوم « للوطن » يظهر كنموذج عفا حكام المقاطعات الصغيرة ، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع خلافاتهم ، وحرورهم

الاهلية ، وهذا ما كان من أهم الصفات المميزة لعصر الانقسام والتشتت ، الاقطاعي في سورية وفلسطين في حياة أسامة . وعندما ركزت الجهود على السمو بهذا المفهوم ، كان اللقاء التاريخي بين الاقطار العربية - وقتها - ، وكان اندحار الصليبيين . وهذا ما يؤكد الحقيقة الثابتة : أن في وحدة العرب كل الخير لهم ، وكل التقدم والتطور .

★ ★ ★

الخاتمة

إن تحليل ودراسة « كتاب المنازل والديار » قد مكنتنا من توضيح ورصد تطور مفهوم الشاعر الوطنية في الشعر العربي ، ومن دراسة شخصية المؤلف بذاته - أسامة - كممثل ساطع للطبقة الاقطاعية ، المسيطرة في القرن الثاني عشر (IIX) في سورية وفلسطين ، وتبيان انعكاس ذلك المستوى من تطور مفهوم الوطن في مؤلفاته الشعرية ، ذلك المستوى الذي وصل اليه المفهوم حتى القرن الثاني عشر . لقد توصلنا الى النتائج التالية لدراستنا :

في الوسط البدوي ، حيث ظهر الشعر العربي ، على ما يبدو ، لم يوجد مفهوم محدد لوطن . فحياة البدوي كانت مرتبطة بالتنقل والترحال : يولد المرء في مكان ما ، في أغلب الحالات لم يعد اليه ثانية . و « عاش » عند البدوي إنما عنيث « تنقل » ، « ارتحل » . ان الارتباط الدائم بمكان معين محدد عند البدوي كان مدعاة للاحتقار ، ظهر وكأنه بشكل أو بآخر تحديد للحرية - حرية الإنسان ، وإقصاء من قيمته . لكن الشاعر البدوي بكل لطيف ورقة توجه إلى إمكان التزول المؤقت لقيئلته ، وقبيلة محبوبته . وإعادة زيارة أماكن السكن القديمة أو تذكرها أيقظ عند الشاعر أقوى المواطن وأرقها . وفي الشعر العربي البدوي القديم كانت قد توضحت وثبتت نماذج تصوير المغاني والربوع ، بعناصرها ومكوناتها ، بقاياها وآثارها ، تلك التي حملت صفات متكررة .

إن بذور مفهوم « الوطن » عند العرب مرتبطة بانتقالهم من حياة البداوة والتنقل والترحال ، إلى حياة الاستقرار . فهذا الانتقال الشبيه ، مع كل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت على أساسه . قد قاد إلى ارتباط حياة العربي - المستقر بماكن سكن محددة ، تلك الأماكن التي أمنت له إمكانية الوجود والحياة ، ولغة « عاش » في قاموس المتحضر المستقر أصبحت تعني - « استقر » ، « ثبت » (في مكان واحد معين) . ولهذا فإن المفهوم العام لمكان السكن والعيش عند العربي ، بعد الانتقال إلى حياة الاستقرار ، بشكل تدريجي بدأ يعني « الوطن » ، بأبسط معانيه .

وكل المصطلحات التي تعني أماكن السكن المحددة ، في ذات الوقت حملت في طياتها معنى « الوطن » أيضاً . وبسبب هذا ، بصورة خاصة ، فإن المطالع الغزلية الطالبا للقصائد ، للتضمنة موضوع الوطن ، والتي فيها تتردد أسماء فقدان الأهل والافراء والمواطنين ، والحنين للأماكن المهجورة ، بدأت تمتلك معاني جديدة ، متولدة تحت تأثير الشروط الجديدة للحياة - استقرار العرب في أماكن منفصلة متميزة عن الصحاري .

وبنض النظر عن أن هذه المطالع الغزلية قد عبرت عن أشياء تقليدية ، فإننا نعث فيها على عناصر تجديد كثيرة ، تمود بنشأتها إلى مراحل زمنية متأخرة .

إن مفهوم الوطن في القرن XII ، بدون شك ، ما كان إلا نتيجة لتطور الاقتصادي والاجتماعي المستمر . إن الحوادث العاصفة لهذا القرن : اصطدام ثلاث قوى عالمية : العرب المسلمين والبيزنطيين والصليبيين ، هذا

ذاته كان قد شارك في عقد مثل هذا الحلف .

إن الحقيقة التالية تعتبر من أهم الدلائل على فهم مستوى مفهوم الوطن : أسامة الذي يتلك إقطاعاً ، بعيداً عن دمشق ، كان قد اعتبر غريباً من قبل أمراء الإقطاعات المنقسمة المتناحرة في دمشق ؛ نعم ، وهو بالفعل قد غدا غريباً وذلك عندما عملت كل الظروف على إجباره على هجر سورية ، والتفتيش عن ملتبأ له في مصر ، حيث قد تدخل في مختلف المؤامرات السياسية ، وأجبر نتيجة لذلك أن يترك مصر ويهود ثانية إلى سورية ، التي كانت في هذه المرحلة قد توحّدت تحت السلطة القوية للأتابك نور الدين الزنكي .

إن الحب المارم للوطن ، المتشكل نتيجة للتربية منذ الطفولة، وبعدها فقدان التراجيدي الحزن لذلك الوطن ، (لشيرز) ، والخبرة الحياتية لأسامة - كل هذا كان مصدراً لإحباء وإلهام شعريين عند أسامة ، وأساساً عليه كان قد نما وترعرع ، الموضوع الوطني في مؤلفاته وآثاره .

وأسامة بكلمته الأدبية ، أراد أن يرفع روح الناس ، أراد تربيتهم على مثال أبطال العرب القدماء . إن هذه الأصداء والعناصر الوطنية يثر عليها بشكل أو بآخر ، بنسبة أو بأخرى، عند المؤلفين الآخرين المعاصرين له ، لكن أسامة في هذا المجال يفوقهم جميعهم .

في « كتاب المنازل والديار » كان أسامة قد جمع بصورة خاصة تلك الطالع الشعري ، التي تنعكس فيها أصداء فقدان الوطن والمواطنين ، وكأنه قد وضع نصب عينيه هدف تركيز اهتمام واتباه الناس في عصره على ولادة

الاصطدام الذي جرى على تلك القطعة من الأرض الصغيرة نسبياً ، في سورية ، هذا الصدام قد ساعد على أن يتجسّس العرب بدقة متناهية وجودهم الماكس المتميز ، كأناس يتمتعون إلى تجمع واحد ، بالنسبة للأجانب والغزاة ، بالنسبة للشعوب الأخرى ؛ ووضع هذا الصدام بداية ولادة المشاعر القومية التي قوطلت وتدعمت بواسطة الفضال العام ضد الغزاة .

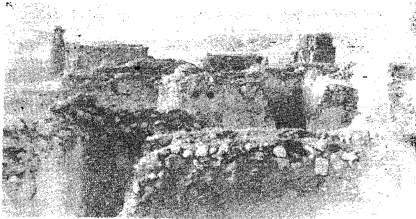
من أجل تحليل تطور مفهوم الوطن بالاعتدال على مواد « كتاب المنازل والديار » كان لا بد لنا من أن نصير عن شخصية مؤلفه أسامة ، الذي ، يمكن القول فيه ، أنه كان أول من عبر عن الشعور بالوطن ، ذلك لأنه عمم، على مادة كبيرة عظيمة ، علاقة من سبقه بالموضوع الوطني .

إن الكشف عن شخصية أسامة قد ساعدنا على تصديد مستوى مفهوم الوطن الذي انتهى إليه التطور في القرن XII ، ذلك المفهوم الذي شاع عند الطبقة الإقطاعية ، وعبر عن مفاهيم ومعتقدات وآراء مفكري ذلك العصر بالنسبة لهذا المفهوم .

مفهوم الوطن كان محدداً بذلك المكان الذي ولد فيه الإنسان ، أو بتلك المشكلات التي ظهرت فيها سيادته . إن مثل هذا المفهوم كان قد ظهر في الأمثال الشعبية ، مثلاً ، (محل ما يترزق الزق) ، (كل ديك على مرزله صياح) .. الخ ..

والعرب بإحساس زائد قد تلقوا بالأستلة المطروحة والشاكال المعروضة عندما كان الأمر يمس استقلالهم وشخصيتهم . فالبوربون في دمشق كانوا مستعدين لعمل كل شيء في سبيل الحفاظ على ممتلكاتهم ، حتى لإنهم عقدوا حلفاً مع ملكة القدس الصليبية ضد الزنكي ، وبالنسبة فإن أسامة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



قلعة شيزر عام ١٩٧١ م

شعور الحب للأهل والمواطنين ، لأماكن السكن والوطن ، في الانسان منذ القدم .

إن دراسة وتحليل « كتاب المنازل والديار » ، وانعكاس شخصية حياة أسامة فيه ، يعتبر سحراً نأمل - أساساً وقاعدة علمية متينة للدراسة تطور الوجوه المديدة لموضوع الوطن في الشعر العربي منذ القرن XII وحتى أيامنا هذه ، وهذا ما نحن عازمون على تحقيقه . إذ إننا نعمل الآن على تحليل ودراسة تطور الشاعر الوطنية في الادب العربي من القرن الثاني عشر الميلادي إلى مطلع القرن العشرين .

★ ★ ★

رقع
عن الرحلة الجبورية
السيد الجبوري

فهرس المراجع والمصادر

أولاً - مراجع باللغة العربية

١ - ابن الأثير :

Ibn-el-Athiri Chronicon quod perfectissimum inscribitur,
ed. G. J. Tornberg, Vol. I-XIV, Upsalise et Lugduni
Batavorum, 1851-1876.

٢ - ابن إياس . تاريخ مصر :

ابن إياس . تاريخ مصر المشهور [بدائع الزهور في وقائع
الدهور] ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق الحامية ، ١٣١١ /

١٨٩٣ - ٩٤ .

٣ - ابن تقي بردي . النجوم :

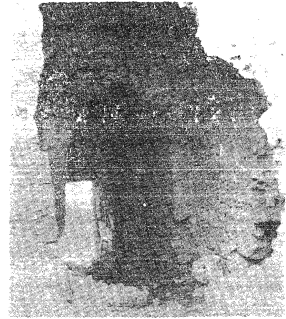
ابن تقي بردي . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،
/ القاهرة / ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ .

٤ - ابن جبير . الرحلة :

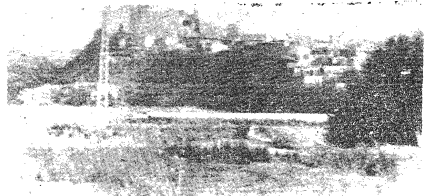
The Travels of Ibn Jubair ed. from a MS in the Univer-
sity Library of Leydon by W. Wright, 2d ed. revised by
M. J. Goeje, Leyden-London, 1907 (GMS, ٧).

٥ - ابن الجوزي . صيد الخاطر :

صيد الخاطر ، ٣ أجزاء ، راجعه وحققه علي الطنطاوي ،
دمشق ، دار الفكر ، ١٩٦٠ .



المدخل الرئيسي للقلمة



منظر قلمة شيزر مع القرية المجاورة عام ١٩٧١

٦ - ابن الجوزي . مرآة الزمان :

ابن الجوزي . مرآة الزمان ، طبع حيدر آباد ، ١٩٥١ .

٧ - ابن حزم . جهرة :

ابن حزم الاندلسي ، علي بن سعيد . جهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٨ - ابن حوقل :

Viae et regna. Descriptio ditonis moslemicae autore Abul-Kasim Ibn Haukal. Ed. M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, 1873 (BGA, II).

٩ - ابن خلدون . المقدمة :

عبد الرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ . الجزء الاول من كتاب العبر وديوان البتداء والخبر في أيام العرب والمعجم والبربر ومن عاصره من فوي السلطان الاكبر ، بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٨٧٩ .

١٠ - ابن خلكان . وفیات :

ابن خلكان . وفیات الاعيان ، القاهرة ، دار الطباعة الميرية المصرية ، ١٢٧٥ / ١٨٥٨ - ٥٩ .

١١ - ابن دحية . النبراس :

ابن دحية / عمر ذو النسيين / أبو الخطاب المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . النبراس في تاريخ بني العباس ، نشره عباس الزاوي الحامي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٦ .

١٢ - ابن رشيقي . العمدة :

ابن رشيقي القبرواني ، أبو علي . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، جزآن ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

١٣ - ابن الساعي . الجامع :

ابن الساعي . الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير ، بغداد ، المطبعة البريطانية الكاثوليكية ، ١٩٣٤ .

١٤ - ابن السبكي . طبقات الشافعية :

طبقات الشافعية الكبرى ، لمبد الوهاب بن علي بن السبكي المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٤ / ١٩٠٦ - ٧ .

١٥ - ابن شاكر . فوات :

ابن شاكر ، فوات الوفيات ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٨٨١ .

١٦ - ابن شداد . النوار :

ابن شداد . النوار السلطانية والحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة صبيح بالقاهرة ، ١٣٤٢ / ١٩٢٧ - ٢٨ .

١٧ - ابن الصابوني . تكملة :

ابن الصابوني . تكملة الاكامل في الانساب والاسماء والالقب ، حققة وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد ، [بغداد] ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٧ .

١٨ - ابن عبد ربه . المقد الفريد :

ابن عبد ربه المقد الفريد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٣ / ١٨٧٦ . - القاهرة ، لجنة التأليف ، ١٩٤٠ .

١٩ - ابن الفقيه . كتاب البلدان :

Compendium Libri Kitab al Boldan auctore Ibn - al - Fakih al - Hamadhani, quod edidit, indicibus et glossario illustravit M. J. de Goeji, Lugduni - Batavorum, 1885 (BGA, V)
٢٠ - ابن قتيبة . الشعر :

Ibn Qutaiba, Liber poësis et poëtarum. ed. M. J. de Goeje, Brill, 1904.

٢١ - ابن القلانسي . ذيل :

حزرة بن القلانسي المتوفي سنة ٥٥٥ هـ . ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .

٢٢ - ابن المعتز . طبقات :

طبقات الشعراء المحدثين ، لابن المعتز ، بتحقيق الاستاذ عبدالستار فراج ، [ذخائر العرب ، طبعة دار المعارف] ، ١٩٥٦ .

٢٣ - ابن منظور . لسان العرب :

ابن منظور أو ابن مكرم . لسان العرب ، عشرون جزءاً ، المطبعة الكبرى البيرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣٠٠ - ١٣٠٨ / ١٨٨٢ - ١٨٩١ .

٢٤ - ابن ميسر . أخبار مصر :

ابن ميسر . أخبار مصر ، نشره هنري ماسيه ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، ١٩١٩ .

٢٥ - ابن واصل . مفرج :

ابن واصل . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جزءان ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٥٧ .

٢٦ - أبو شامة . الروضتان :

أبو شامة . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تأليف الشيخ شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسمعيل بن ابراهيم المقدسي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة وادي النيل بمصر ، ١٢٨٧ .
/ ١٨٧٠ - ١٨٧١ / .

٢٧ - أبو العلاء . اللزوميات :

اللزوميات لأبي العلاء أحمد بن سليمان العمري ، جزءان ، طبعة بيروت ، (بدون تاريخ) .

- اللزوميات ، أو لزوم مالا يلزم لأبي العلاء المعمرى ، ٤ أجزاء ، تحقيق وشرح ابراهيم الأعرابي ، بيروت ، (بدون تاريخ) .

٢٨ - أسامة . الاعتبار ، إصدار حتي :

Usamah's memoirs entitled Kitab al I'tibar, by Usama ibn Munqidh, Arabic text, princeton, 1980.

٢٩ - أسامة . الاعتبار ، إصدار درنيورغ :

Ousama ibn Mounkidh, 2-eme partie, texte arabe de l'autobiographie d'Ousama, Paris, 1886.

٣٠ - أسامة . البديع :

أسامة بن منقذ . البديع في نقد الشعر ، حققه الدكتور أحمد أحمد بدوي ، والدكتور حامد عبدالحجيد ، القاهرة ، نشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٠ .

٣١ - أسامة - الديوان :

ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبدالحجيد ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٣ .

٣٢ - أسامة . لباب الآداب :

أسامة بن منقذ . لباب الآداب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ،
طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة ، ١٩٥٣ .

٣٣ - أسامة . المنازل [محققة] :

أسامة بن منقذ . كتاب المنازل والديار ، تحقيق الأستاذ مصطفى
حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣٤ - أسامة . المنازل [مخطوطة] :

كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ، مخطوطة ، معهد الدراسات
الشرقية ببلينغراد ، رقم [C35] .

٣٥ - أسامة . المنازل [مصورة] :

كتاب المنازل والديار ، مخطوطة مصورة ، مع مقدمة وفهارس .
أ . ب . خالوف ، موسكو ، ١٩٦١ .

٣٦ - الاصفهاني . الاغاني . (بولاق) :

كتاب الاغاني للإمام أبي الفرج الاصفهاني ١٢ - ٢٠ جزءاً ،
طبعة بولاق ، ١٢٨٥ (١٨٦٨ - ٦٩) .

٣٧ - الاصفهاني . الاغاني [التقدّم] :

كتاب الاغاني للإمام أبي الفرج الاصفهاني [علي بن الحسين بن
محمد الاصفهاني] ، ١ - ٢١ جزءاً ، التزم طبعه الحاج محمد
أفندي ساسي المغربي ، قوبل على نسخة قديمة بالكتبخانة
الخديوية بتصحيح أحمد الشنقطي ، مطبعة التقدّم بمصر ،
١٣٢٣ / ١٩٠٥ - ١٩٠٦ / .

٣٨ - الاصفهاني . الاغاني (دار الكتب) :

كتاب الاغاني للإمام أبي الفرج الاصفهاني ، ١ - ١٦ جزءاً ،
القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٢٧ - ١٩٥٤ .

٣٩ - البلاذري :

Liber Expugnationis Regionum, Auctore Imamo Ahmed ibn
Jahja ibn Djabir al-Beladsori, quem e codice Leidensi et
codice Musei Britannici edidit M. J. de Goeje, Lugduni
Batavorum, E. J. Brill 1866.

٤٠ - البيهقي الحاسن :

Ibrahim ibn Mohammed al-Belhaqi, Kitab al - Mahasin
va-l-masavi--Giessen, 1902 Schwally. F.

٤١ - التبريزي . الثنوبر بشرح سقط الزند :

الثنوبر بشرح سقط الزند لتبريزي ، طبعة السعادة بمصر ،
الطبعة الاولى (بدون تاريخ) .

٤٢ - الجاحظ . البيان :

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) . البيان والتبيين ، ٤
أجزاء الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الخاني ، مكتبة الهلال
في بيروت ، المكتب العربي بالكويت ، ١٩٦٨ .

٤٣ - الجاحظ . الحنين :

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . الحنين إلى الاوطان ،
تصحيح الشيخ طاهر الجزائري ، مصر ، مطبعة
المنار ، ١٣٣٣ (١٩١٤ - ١٩١٥) .

٤٤ - الجرجاني . الوساطة :

الوساطة بين التني وخصومه ، للقاضي علي بن عبدالمعز
الجرجاني . (توفي ٣٦٦ هـ) ، تحقيق علي محمد وأبي الفضل
إبراهيم ، القاهرة ، (مكتبة عيسى البابي الحلبي) ، ١٩٤٥ .

٤٥ - جرير والاخلط . قناص :

Naqa'id de Garir et de Ahtal, texte arabe, annoté par A.
Salhani, Beyrouth, Impr. Catholique, 1922.

٤٦ - حاجي خليفة . كشف الظنون :

Haji Khalifae, Lexicon Bibliographicum et encyclopaedicum
Instruxit G. Fluegel, Leipzig, 1835.

٤٧ - الحصري . زهر الآداب :

الحصري ، أبو اسحق إبراهيم بن علي المعروف بالحصري القيرواني
المالكى ، زهر الآداب وغر الألباب ، على هامش العقد الفريد
لابن عبد ربه ، طبعة ١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٤٨ - اللمشمقي . نخبة :

Cosmographi de Chems ed-Din Abou Abdallah Moham-
med ed-Dimishqui, texte arabe, publ. A. F. Mehran, st-F.
1866.

٤٩ - ابن أبي ربيعة [بيروت] :

ديوان عمر بن أبي ربيعة ، جمع وتصحيح بشريوت ، بيروت ،
طبعة الاهلية ، ١٩٣٤ .

٥٠ - ديوان ابن أبي ربيعة [ليدزيج] :

Der Diwan des Umar ibn Abi Rafie, hrsg. von P. Schwarz,
Leipzig, 1901.

٥١ - ديوان ابن الجهم :

ديوان علي بن الجهم ، غني بتحقيقه ونشره وجمع تكملته خليل
مردم ، مطبوعات الجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .

٥٢ - ديوان ابن الخطيم . [بندا] :

ديوان قيس بن الخطيم . حققه الدكتور إبراهيم السامرائي ،
بندا ، مطبعة العاني ، ١٩٦٢ .

٥٣ - ديوان ابن الخطيم . [القاهرة] :

ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق ناصر الدين الأسد ، [القاهرة] ،
طبعة دار العروبة بمصر ، ١٩٦٢ .

٥٤ - ديوان ابن فريخ :

ديوان قيس بن فريخ [قيس ولبي] ، شعر ودراسة ،
جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ، مكتبة مصر ،
دار مصر للطباعة ، ١٩٦٠ .

٥٥ - ديوان ابن الرومي :

ابن الرومي . الديوان ، تصنيف كامل كيلاني ، طبعة التوفيق
الادبية ، [بنون تاريخ] .

٥٦ - ديوان ابن قيس الرقيات :

ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق الدكتور محمد يوسف
نجم ، بيروت ، دار صباد ، ١٩٥٨ .

٥٧ - ديوان ابن المعتز :

ديوان أمير المؤمنين ابن المعتز الباسي ، جزءان ، القاهرة ،

١٨٩١ . - طبعة إقبال بيروت ، ١٣٣٢/١٩١٣ - ١٩١٤ / .

Der Diwan des Abdallah ibn al Mutazz, hrsg. von B. Le-win, teil III, Istanbul, 1950, teil IV, Istanbul, 1945 (Bibliotheca Islamica, Bd. 17 c. d).

٥٨ - ديوان ابن هانيء :

ديوان ابن هانيء الأندلسي ، طبعة الأميرية بولاق ، ١٢٧٤

/ ١٨٥٧ - ٥٨ / .

٥٩ - ديوان أبي تمام :

ديوان أبي تمام ، جزءان ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق

محمد عبده عزام ، طبعة ذخائر العرب ، دار المعارف ،

١٩٥١ - ١٩٦٤ .

٦٠ - ديوان أبي التماهي :

الأشوار الزاهية في ديوان أبي التماهي ، جمع لويس شيخو ،

الطبعة الكاثوليكية بيروت ، ١٩١٤ .

٦١ - ديوان أبي فراس الحمداني :

Semi Dahan. Le Diwan d'Adu Firas al-Hamdani, t. I-II, Beyrouth, (Institut Français de Damas).

٦٢ - ديوان أبي نواس :

ديوان أبي نواس . حققه وطبعه وشرحه أحمد عبد الحميد الفزالي

[القاهرة] ، طبعة مطبعة مصر ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

٦٣ - ديوان الأخطل :

Disman al-Ahtal, texte arabe, publié et annoté par Sallhani, Vol. I-IV, Beyrouth, Impr. Catholique, 1891-1892.

٦٤ - ديوان الأتشي :

Gedichte von Abu Basir Maimum ibn Qaisal-'A'sa. Nebst Sammlungen Von Stucken anderer Dichter des gleicher Beinamens. Und Von al-Mussayyab ibn 'A'sa, arabisch hrsg Von Gayer R., London, 1928.

٦٥ - ديوان امرئ القيس :

ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، [ذخائر

العرب] ، دار المعارف ، ١٩٥٨ .

٦٦ - ديوان البحترى :

ديوان البحترى ، طبعة بيروت ، بتصحيح رشيد عطية ، ١٩١٠ .

- طبعة هندية ، بتصحيح البرقوقي ، ١٩١١ .

- طبعة دار المعارف ، بتحقيق حسن كامل الصيرفي ،

١٩٦٥ - ١٩٦٧ .

٦٧ - ديوان بشر :

ديوان بشر بن خازم الأسدي ، عني بتحقيقه الدكتور عزت

حسن ، (دمشق) ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي في

الأقليم السوري ، مديرية إحياء التراث القديم ، ١٩٦٠ .

٦٨ - ديوان جرير :

ديوان جرير بن عطية . تحقيق محمد إسماعيل الصاوي ،

[القاهرة] ، طبعة مصر ، ١٩٣٥ .

٦٦ - ديوان ديك الجن :

ديوان ديك الجن الحمصي ، جمع وشرح عبد المصين الملوحي ،
وزميله ، حمصي ، طبعة الفجر ، ١٩٦٠ .

٧٧ - ديوان ذي الرمة :

The Diwan of Ghailan ibn Uqbah Known as Dhu'r-Rum-
mah, ed. Machartney, Cambridge, 1919.

٧٨ - ديوان زهير :

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة الامام أبي العباس أحمد
ابن يحيى زيد الشيباني / ثعلب / ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٤٤ .

٧٩ - ديوان الشريف الرضي :

ديوان الشريف الرضي ، بتحقيق الاستاذين حسن كامل الصيرفي ،
وابراهيم الاياري ، نشر وزارة الثقافة ، طبعة الحلبي ، ١٩٦٢ .

٨٠ - ديوان طرفة :

Diwan Tarafa ibn al-'Abd al-Bakri, accompagné du co-
mmentaire de Yousouf al-A'lam de Santa-Maria publié,
Traduit et annoté par M. Selibsehn, Paris, Libraire E.
Bouillon, 1961.

٨١ - ديوان الفرزدق :

Divan de Farazdak, Recita de Mohamed ben Habib d'ep-
res ibn-el-arab, publié par R. Boucher, Paris, 1870.

٨٢ - ديوان كثير :

Kotayyir-azea, Diwan, accompagné d'un commentaire arabe
ed. par H. peres, Alger-Paris, 1930.

٦٩ - ديوان جميل :

ديوان جميل بثينة / شعر الحب العذري / ، جمع وتحقيق
وشرح الدكتور حسين نصار ، طبع مكتبة مصر ، دار مصر
للطباعة ، سنة أولى ، (بدون تاريخ) .

٧٠ - ديوان الحادرة :

Al-Hadirac Diwanus Cum al-Yesidel Schoilis e codicems.
Arabice edidit; Varsiene Latin et annotationeil,

٧١ - ديوان حاتم الطائي :

Diwan Hatim at-Ta'i, London, 1872.

- ديوان حاتم الطائي ، برواية الكلي ، طبعة الوهبة بالقاهرة ،
١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٧٢ - ديوان حسان بن ثابت (لندن) :

The Diwan of Hassan b. Thabit, ed. by H. Hirschfeld, ph.
I. Le-den 1910 (GMS, XIII),

٧٣ - ديوان حسان بن ثابت (البرفوقي) :

ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق وشرح عبد الرحمن البرفوقي ،
جزء واحد ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

٧٤ - ديوان الخطبة :

ديوان الخطبة شرح السكري وتصحيح الشنيطي ، طبعة
التقدم بمصر ، / بدون تاريخ / .

٧٥ - ديوان الخنساء :

ديوان الخنساء / أنيس الجلساء / ، نشر لويس شيخو ، بيروت ،
١٨٩٦ .

٨٣ - ديوان لبيد :

ديوان لبيد ، تحقيق الدكتور إحساس عباس ، الكويت ، ١٩٦٣.

٨٤ - ديوان الجنون :

ديوان قيس بن الملوح العامري / مجنون ليل / ، جمع وتحقيق
الاستاذ عبد الستار فراخ ، الطبعة الاولى ، مكتبة مصر ،
/ بدون تاريخ .

٨٥ - ديوان المتنبي :

ديوان المتنبي بشرح البرقوقى ، طبعة الرحمانية ، بمصر ، ١٩٣٠.

٨٦ - ديوان المرتضى :

ديوان الشريف المرتضى . ٣ أجزاء ، حققه ورتب قوافيه
ونشر ألفاظه رشيد الصفار ، راجعه وترجم أعيانه الدكتور
مصطفى جواد ، قدم له الاستاذ محمد رضا السبسي ، طبع دار
إحياء الكتب العربية ، وطبعة الحلبي ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .

٨٧ - ديوان مزاحم :

The Poetical Remains of Myzahim al-Uqaili, id. and transl.
by F. Krenkow, Brill, Leyden, 1920.

٨٨ - ديوان ميهار :

ديوان ميهار الديلمي ، ٤ أجزاء ، (القاهرة) ، دار الكتب ،
١٩٢٥ - ١٩٢٦ .

٨٩ - ديوان النابغة الجعدي (شعر الجعدي) ، جمع مارينا نيلينز ،
طبعة المكتب الاسلامي بدمشق ، ١٩٦٤ .

٩٠ - ديوان : النابغة الذبياني :

ديوان النابغة الذبياني ، (التوضيح والبيان من شعر نابغة بني

ذبيان) ، بيروت ، ١٩٥٣ .

٩١ - ديوان القناض :

The Naka'id of Jarir and al-Farazdak, ed, by Boran, Vol.
I-II, Late E. J. Brill publishers and printers, Leyden
1905-1913.

٩٢ - ديوان الهذليين :

ديوان الهذليين ، طبعة دار الكتب ، (القاهرة) ،

١٩٤٨ - ١٩٥٠ .

٩٣ - الذهبي . سير . مصورة .

الذهبي . سير أعلام النبلاء . مصورة مخطوطة موجودة في المجمع
الملي العربي ، دمشق ، رقم ٣٠٩ .

٩٤ - الذهبي . سير . مطبوعة :

الذهبي . سير أعلام النبلاء . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ .

٩٥ - الزبيدي . تاج العروس :

محمد مرتضى الزبيدي . تاج العروس ، عشرة أجزاء ، مصر ،
الطبعة الخيرية المنشأة بحعاية مصر ، ١٣٠٦ / ١٨٨٨ - ٨٩ .

٩٦ - الزوزني . شرح المعلقات :

شرح المعلقات السبع للأمام الاديب القاضي المحقق أبي عبدالله
ابن أحمد بن الحسين الزوزني ، التوفي ٤٨٦ هـ . ضبطه وكتب
مقدمته وتراجمه وتعليقاته محمد علي حمد الله ، نشر وتوزيع
المكتبة الاموية بدمشق ، ١٩٦٣ .

٩٧ - السبكي . معيد النعم :

السبكي . معيد النعم ومبيد النعم ، القاهرة ، دار السكاك
العربي ، ١٩٤٨ .

٩٨ - السكري . شرح أشعار الهذليين :

شرح أشعار الهذليين ، للسكري ، بتحقيق الأستاذ عبدالستار
فراج ، طبعة دار العروبة بصر ، ١٩٦٣ - ١٩٦٥ .

٩٩ - الطباخ . أعلام النبلاء :

الطباخ ، محمد راغب . أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء .
حلب ، المطبعة العلمية ، ١٣٤٢ - ١٣٤٥ / ١٩٢٣ - ١٩٢٧ .

١٠٠ - الطبري :

Annales quos scripsit Abu Dja'far Mohammed ibn Djarir
at-Tabari. Ed. M. J. de Geoe, series I-III, Lugduni-Ba-
tavorum, 1879-1901.

١٠١ - العاملي . أعيان الشيعة :

العاملي . أعيان الشيعة ، بيروت ، مطبعة الانصاف ، ١٩٥٨ .

١٠٢ - المهدي . إصدار دربورغ :

Des Publications de l'Ecole des Langues Orientales vivants
par H. Derenbourg, vol XIV Paris 1886.

١٠٣ - المهدي . بداية قسم شعراء الشام :

المهدي . بداية قسم شعراء الشام ، خريدة القصر وجريدة العصر ،
بداية قسم شعراء الشام ، شعراء دمشق ، والشعراء الامراءمن
بني أيوب ، عني بتحقيقه الدكتور شكري فيصل ، (دمشق) ،
المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٨ .

١٠٤ - المهدي . قسم شعراء المغرب :

المهدي . قسم شعراء المغرب ، خريدة القصر وجريدة العصر ،
قسم شعراء المغرب ، جزء أول ، تحقيق محمد المرزوقي ، محمد
العروسي الطولي ، الجليلاني^١ بن الحاج يحيى ، (تونس) ،
الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٦ .

١٠٥ - الفيروز آبادي . المحيط :

الفيروز آبادي ، مجد الدين . القاموس المحيط ، ٤ أجزاء ، القاهرة ،
طبعة الباي ، ١٩٥٢ .

١٠٦ - القلقشندي . نهاية الأرب :

القلقشندي ، شهاب الدين . نهاية الأرب في معرفة أنساب
العرب . جزءان ، تحقيق الأبياري ، ١٩٥٩ .

١٠٧ - الكمي . الهاشميات :

الهاشميات ، للكمي بن زيد الأسدي ، طبعة ليدن ، ١٩٠٤ .

١٠٨ - اللاميتان :

اللاميتان ، لامية العرب للشنفرى ، ولامية المعجم للطغراني من شروح
الزنجشري الصفدي ، أعدها وعلق عليها عبدالمين اللوحى ، دمشق ،
وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٦ ، (إحياء التراث
القديم ٣١) .

١٠٩ - المبرد . الكامل :

The Kam il of el Mubarrad, ed by W. Wright Leipzig, 1864.

١١٠ المسعودي . التنبيه :

Kitab at-Tanbih wa-l-ischraf auctore al-Masudi, Lugduni
Batevorum, 1893-1894, (BGA, VIII) .

١١١ - المعلقات :

المعلقات السبع مع ذكر رواياتها ، وأنساب قائلها ، ولباسها
لامية العرب ، تصحيح محمد محمود الشنيطي ، طبعة ثانية ،
(القاهرة) ، مطبعة السعادة ، (بدون تاريخ) .

١١٢ - القرزي :

القرزي . إغاثة الأمة بكشف الغمة . تحقيق الاستاذين محمد
مصطفى زيادة ، وجمال الدين محمد الشبال ، القاهرة ، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

١١٣ - نشوان . منتخبات :

نشوان ، ابن سعيد الجيري . منتخبات في أخبار اليمن .
تحقيق عظيم الدين أحمد ، لندن ، ١٩١٦ .

١١٤ - النعمي . المدارس :

النعمي . المدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ،
دمشق ، ١٩٤٨ .

١١٥ - النمري . الأنباء :

النمري ، ابن عبد البر ، يوسف . الأنباء على قبائل الرواة .
في مجلد واحد مع كتاب القصة والامم ، القاهرة ، ١٣٥٠ /
١٩٣١ - ٣٢ .

١١٦ - النوري . نهاية الأرب :

النوري . نهاية الأرب في فنون الأدب . عشرة أجزاء ، القاهرة ،
مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ .

١١٧ - الحماداني . صفة :

Müller Dt H., al Hamadani's geographie der arabischen
Halbinsel, Leyden, 1884.

١١٨ - ياقوت . معجم الادباء :

The Irshad al arib ila marifat al - adib or Dictionary of
Learned men of Yakut. ed. Margoliouth, Leyden, London
1909 (GMS VI).

١١٩ - ياقوت . معجم البلدان :

Yacut's geographisches wörterbuch, hreg. von F. Wüsten-
feld, Bd. X-VX, Leipzig, 1866-1873.

ثانياً : مصادر مترجمة

آ - إلى اللغة العربية

١٢٠ - بروكهان . تاريخ الادب :

بروكلان ، كارل . تاريخ الادب العربي . ٣ أجزاء . نقله إلى العربية الدكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ - ١٩٦٢ .

١٢١ - خالوف (مقالة عن كتاب المنازل) :

خالوف ، أ . ب . مقاله ، مقدمة لكتاب المنازل والديار لأسماء بن منقذ ، تحقيق الاستاذ مصطفى حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٢٢ - خسرو طوى . سفرنامه :

خسرو طوى ، ناصر . سفر نامه . نقله إلى العربية ، وقدم له ، وعاق عليه الدكتور يحيى الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ .

١٢٣ - زامباور . معجم الانساب :

زامباور . معجم الانساب والسلالات الحاكمة . ترجمة الدكتور زكي حسن ، طبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥١ .

١٢٤ - كراشوفسكي . مع المخطوطات :

كراشوفسكي . | . ي . مع المخطوطات العربية . موسكو ، طبعة دار التقدم ، ١٩٦٣ .

١٢٥ - ميتز . الحضارة الاسلامية :

ميتز ، آدم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . نقله إلى العربية محمد عبدالحادي أبو ريدة ، الطبعة الثانية ، منقحة ومهذبة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ .

Усама ибн Мункиза, Книга
наказания Пер. с араб. М. А
Салье, М., изд. Вост лит 1922, 2-е
изд. 1958

ج - إلى اللغات الأوروبية

- 130 - Ad-Dimishki, Mohammed, Manuel de cosmographie du moyen âge
Trad. de l'arabe. Ed. A.F. Mehran, St.-P., 1856.
Trad. de l'arabe, par A.F. Mehran, Copenhagen, 1874.
- 131 - Derenbourg H. "Souvenirs historiques et récits de chasse
par un émir syrien du douzième siècle. Autobiographie
d'Ousame Ibn Mounkidh. Traduction française", 1895.
- 132 - Hitti, Ph.K., An Arab-Syrian gentleman and warrior in the
period of the Crusades. Memoirs of Usameh Ibn Munqidh (Kitab
al-i'tibar). Transl., New York, 1929.
- 133 - Potter G.R., Autobiography of Ousame Ibn Mounkidh, London,
1929.
- 134 - Schumen G., Ousame Ibn Mounkidh. Memoiren eines syrischen Emirs
aus der Zeit der Kreuzzüge, aus dem Arabischen Übersetzt.
Innebruck, 1905.

ب. إلى اللغة الروسية

126. Босворт К Э. Мусульманские
Династии, справочник по
хронологии и генеалогии. Пер.
с англ. и примеч. Грязневича П.А.
М., "Наука", 1971.

127. Гиббх.А.Р. Арабская литература
(Классический период) Пер. с
англ. А.Б. халидова и П. А.
Грязневича. М., изд. Вост лит.
196.

128. Мель А. Мусульманский ренессанс
перс. с нем., предисл., библиогр
и указатель Д.Е. Бертельса М.,
изд. "Наука", 1966, 2-е изд. 1973

129. Усама, ал-и тибар, Русс. Пер

تأليف - دراسات

أ - باللغة العربية

١٣٥ - أمين ، أ . فجر الاسلام :

أمين ، أحمد . فجر الاسلام . القاهرة ، ١٩٥٠ .

١٣٦ - أمين ، أ . فارس كنانة :

أمين ، أحمد . فارس كنانة . فيض الخاطر ، الجزء الرابع ،
(القاهرة) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، (بدون تاريخ) .

١٣٧ - الاشر ، ع . نصوص :

الاشر ، عبدالكريم . نصوص مختارة من الادب العباسي ،
دمشق ، المكتبة الحديثة ، ١٩٦٥ .

١٣٨ - بلشا ، ع . م . ابن نباته :

بلشا ، ع . م . ابن نباته المصري ، أمير شعراء المشرق ،
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ .

١٣٩ - بلشا ، ع . م . أدب الدول :

بلشا ، ع . م . أدب الدول المتتابعة ، لبنان ، (بيروت) ،
دار الفكر الحديث ، ١٩٦٧ .

١٤٠ - بدوي ، أ . الحياة الادبية :

بدوي ، أحمد . الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية
بمصر والشام ، القاهرة ، مكتبة هضة مصر ، ١٩٥٤ .

١٤١ - بدوي ، أ . الحياة العقلية :

بدوي ، أحمد . الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر
والشام ، القاهرة ، مكتبة هضة مصر ، ١٩٥٥ .

١٤٢ - البستاني ، ب . أدباء العرب :

البستاني ، بطرس . أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام
والاعصر العباسية ، جزآن ، بيروت ، مطبعة دار صادر ،
الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ .

- أدباء العرب ، ١ ، ٢ ، ٣ ، بيروت ، دار المكشوف
والثقافة ، طبعة جديدة ومنقحة ، ١٩٦٨ .

١٤٣ - البستاني ، ب . الشعراء الفرسان :

البستاني ، بطرس . الشعراء الفرسان ، بيروت ، ١٩٤٤ .

١٤٤ - بول كولار ، وآخرون . سورية :

سورية ، قضايا حفظ المواقع الأثرية والاستفادة منها ، تقرير
لجنة اليونيسكو المرسلة إلى سورية سنة ١٩٥٣ ، والمؤلفة من
السيد بول كولار رئيساً ، وسلم عبدالحق ، وأرماندو وبالون
عضوين ، اليونيسكو ، مديرية الآثار العامة في سورية .

١٤٥ - بيبي ، أ . حياة صلاح الدين :

بيبي ، أحمد . حياة صلاح الدين . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ،
١٣٤٥ / ١٩٢٦ - ٢٧ .

١٤٦ - حبش ، ح . الحرب الصليبية :

حبش ، حسن . الحرب الصليبية الأولى . الطبعة الثانية ،
القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٨ .

١٤٧ - حتي . ف . وآخرون ، تاريخ :

حتي ، فيليب ، جرجي ادوار ، جبور جبرائيل . تاريخ
الأدب العربي ، مطول ، ٣ أجزاء ، بيروت ، ١٩٤٩ .

١٤٨ - حجازي . م . مقدمة :

حجازي ، مصطفى . مقدمة لكتاب المنازل والديار لأسامة بن
منقذ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٤٩ - حسن ، إ . ح . تاريخ :

حسن ، إبراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب
ومصر وبلاد العرب ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة
ثانية ، ١٩٥٨ .

١٥٠ - حسين ، م . أ . أسامة :

حسين ، محمد أحمد . أسامة بن منقذ ، مصر ، [القاهرة] ،
١٩٤٦ .

١٥١ - حسين ، م . خ . أثر الرحلة :

حسين ، محمد الخضر ، أثر الرحلة في الحياة الأدبية ، مقاله
في محاضرات الجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الثالث ،
عام ١٩٥٤ ، صفحة ٢١٧ - ٢٣٠ .

١٥٢ - حسين ، م . ك . في أدب مصر الفاطمية :

حسين ، محمد كامل . في أدب مصر الفاطمية . طبع دار
الفكر العربي . [بدون تاريخ] .

١٥٣ - الحلبي ، ع . أدباء السجون :

الحلبي ، عبدالعزيز . أدباء السجون . دار الكاتب العربي .
[فقط] .

١٥٤ - حمدي ، ح . الشرق :

حمدي ، حافظ ، الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي ، مصر ،
(القاهرة) ، مطبعة الاعتدال ، ١٩٥٠ .

١٥٥ - الخوري ، خ . خرابات سورية :

الخوري ، خليل . خرابات سورية . (خطاب تلاه على محفل
العمدة الادبية في بيروت ، ١٥ آذار ١٨٥٩) ، بيروت ،
١٩٦٠ .

١٥٦ - رستم ، أ . :

رستم ، أسعد . باب انتقريظ والانتقاد ، (ترجمة كتاب
الاعتبار) ، مقالة في مجلة الكاتب ، السنة الثانية ، المجلد
الثالث ، الجزء الثالث ، القاهرة ، يناير ، ١٩٤٧ .

١٥٧ - زكي ، أ . أسامة :

زكي ، أحمد كامل . أسامة بن منقذ . سلسلة أعلام العرب ،
مصر ، (القاهرة) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،
١٩٦٨ .

١٥٨ - زكي ، أ . صلاح الدين :

زكي ، أحمد كامل . صلاح الدين بين شعراء عصره ، القاهرة ،
١٩٦٠ .

- ١٥٩ - زيدان ، ج . تاريخ آداب اللغة :
زيدان ، جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . ٤ أجزاء ،
القاهرة ، دار الهلال ، طبعة جديدة ومنقحة ، راجعها وعلق
عليها الدكتور شوقي ضيف ، ١٩١٣ .
- ١٦٠ - سلام ، م . ز . الأدب :
سلام ، محمد زغللول . الأدب في العصر الأيوبي . مصر ،
(القاهرة) ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .
- ١٦١ - السيد ، ع :
السيد ، عبدالمك . رسائل القراء . مقالة في مجلة الكلية ،
مجلة الجامعة الأميركية ، بيروت ، الجزء الأول ، المجلد السادس .
عشر ، ١٩٢٩ .
- ١٦٢ - الشاب ، أ . تاريخ الشعر السياسي :
الشاب ، أحمد . تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن
الثاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٦٢ .
- ١٦٣ - الدهان ، س . الناصر :
الدهان ، محمد سامي : الناصر صلاح الدين . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .
- ١٦٤ - ضيف ، ش . الترجمة الشخصية :
ضيف ، شوقي . الترجمة الشخصية . بيروت ، دار المعارف ،
١٩٥٦ .
- ١٦٥ - ضيف ، ش . التطور :
ضيف ، شوقي . التطور والتجديد في الشعر الأموي . مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢ .
- مصر ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٥٩ .

- ١٦٦ - الطاهر ، ع ، ج . الشعر :
الطاهر ، علي جواد . الشعر العربي في العراق وبلاد المجمع
في العصر السلجوقي ، جزءان ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٨ .
- ١٦٧ - عاشور ، س . أضواء على الحروب الصليبية :
عاشور ، سعيد عبدالفتاح . أضواء على الحروب الصليبية .
(القاهرة) ، ١٩٦٤ .
- ١٦٨ - العلوي ، ع . :
العلوي ، عبدالحمد . مؤلفات ابن الجوزي . بغداد ، شركة
دار الجمهورية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .
- ١٦٩ - فهرس التيمورية :
فهرس الخزانة التيمورية ، ١ - ٤ ، (القاهرة) ، مطبعة دار
الكتب المصرية ، ١٩٤٨ - ١٩٥٠ .
- ١٧٠ - فهمي ، م . ح . الحين :
فهمي ، ماهر حسن . الحين والغربة في الشعر العربي الحديث .
القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٧٠ .
- ١٧١ - فيصل ، ش . المجتمعات :
فيصل ، شكري . المجتمعات الاسلامية في القرن الأول .
بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٦ .
- ١٧٢ - كحالة ، ع ، ر . معجم المؤلفين :
كحالة ، عمر رضا . معجم المؤلفين . خمسة عشر جزءاً ،
دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٧ .

- ١٧٣ - الكفراوي ، م . ع . الشعر بين الجود والتطور :
الكفراوي ، محمد عبدالعزيز . الشعر العربي بين الجود والتطور .
طبعة ثانية ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٧٤ - مجلة المجمع :
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٣٠ ، الجزء الخامس
والسادس من المجلد العاشر .
- الجزء الثالث ، صفحة ٣١٧ - ٣٣٠ ، عام ١٩٥٤ .
- ١٧٥ - المرصفي ، ح . الكلام التان . الكلام التان في الامة والوطن والحكومة
والعدل والظلم والحرية والتربية ، القاهرة ، ١٨٨٠ .
- ١٧٦ - المنجد ، ص . فهرس المخطوطات العربية :
فهرس المخطوطات العربية في الامبروزيانا ، الجزء الثاني ، القسم
الاول ، من رقم ٣٢٠ - ٤٤٠ ، وضعه الدكتور صلاح المنجد ،
القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ١٧٧ - الميهي ، أ . وآخرون ، فهرس الكتب العربية :
فهرس الكتب العربية المحفوظة بالمتحف الخديوية
المصرية . جمعه ورتبه أحمد الميهي ومحمد البيلادي ، طبعة أولى ،
الطبعة الثمانية بمصر ، ١٣٠٧ / ١٨٨٩ - ٩٠ .
- ١٧٨ - النعساني ، ط . أسامة :
النعساني ، طاهر . أسامة بن منقذ ، أو شيزر وآل منقذ .
هي المحاضرة التي القاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق
في ١٨ تشرين ثاني ١٩٢٩ ، حماد ، طبع المكتبة الوطنية .

- ١٧٩ - النص ، إ . المعصية :
النص ، إحسان . المعصية القبلية وأثرها في الشعر الاموي .
دار اليفظة ، لبنان ، (بيروت) ، ١٩٦٣ .
- ١٨٠ - النقاش ، ز . العلاقات :
النقاش ، زكي . العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية
بين العرب والافرنسج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ،
١٩٥٨ .

* * *

186. Борев Ю. Б., Эльсберг Я. Е. —

Основные проблемы в историческом освещении — в Кн.:
"Теория Литературы", т. I, М.,
АН СССР, 1962.

187. Виноградов В. В., Сюжет и
стиль. М., изд. АН СССР, 1963.

188. Всемирная история в 10-ти т.
М., Госполитиздат, 1955.

189. Заборов М. А., Крестовые походы,
М., изд. АН СССР, 1956.

190. Заборов М. А., Введение в
историографию крестовых
походов. М., 1966.

191. Заборов М. А., историография
крестовых походов (литература)

ب باللغة الروسية

181. К. Маркс и Ф. Энгельс.
Избранные произведения
Т. II, М., Госполитиздат, 1955.

182. В. И. Ленин Полное собрание
сочинений. Изд. 5-е, т. III, М.,
Госполитиздат, 1958.

183. Абрамович Г. Л., Введение в
литературоведение. Изд. 5-е, М.,
изд. "Просвещение", 1970.

184. Большаков О. Г. и др., Средневеко-
вый город Средней Азии, Л.,
"Наука", 1973.

185. Богданов А. Н., Методика литера-
туроведческого анализа. М., изд.
"Просвещение", 1969.

- premier siecle des croisades (1095-1188), par H. Derenbourg, Deuxieme partie, Paris, 1886 - Звардо, Т. П., СПб., 1887, С. 175-178.
197. Теория литературы, Т. III, М., АН, 1962-1965.
198. Фильштинский И. М., Арабская классическая литература, М., "Наука", 1965.
199. Фильштинский И. М., Шафарб Я., Очерк арабо-мусульманской культуры (VII - XII вв) М., изд-во Вост. лит., 1971.
200. Френ Х. Д. Письма Древних руссов. СПб., 1936 (Биб-ка для чтения, XIII)

- XI-XIX вв.), М., "Наука", 1971.
192. Каган М. С., Лекции по марксистско-ленинской эстетике. Л., ЛГУ, 1971
193. Крачковский И. Ю., Избранные сочинения, Т. I-VI, М., - Л., АН, 1955-57.
194. Крачковский И. Ю., Неизвестное сочинение - автограф Сирийского эмира Усамы, ЗКВ, Т. I, Л., 1925, С. 1-18
195. Островский А. П. - Собрание сочинений. Т. XIII, М., Госполитиздат. 1952
196. Розен В. Р. - Рец. на: Ousama ibn Mounkidh. Un emir syrien au

ج - اللغات الأوروبية

- 214 - Frähn Ch.D., Vorläufiger Bericht über eine neue bedeutende Bereicherung des orientalischen Manuscripten-Apparats des Kais. Akademie der Wissenschaften - B.K.W. Dorn F. Das Asiatische Museum, c. 279-294.
- 215 - Frähn Ch.D. Vorläufiger Bericht über eine bedeutende Bereicherung an arabischen, persischen und türkischen Handschriften, die das Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg in diesem Jahre erhalten hat, nebst einigen Schätzen desselben. B.K.W. Dorn B. Das Asiatische Museum, c. 201-216.
- 216 - Hitti Ph.K., History of the Arabs, third edition, revised, London, 1946.
- 217 - Lane-poole S., History of Egypt in Middle Ages. London, 1913.
- 218 - Lane-poole S., Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1893.
- 219 - Michaud J.F., Histoire des Croisades, 5 vol., Paris, 1812-1822.
- 220 - Ousema ibn Munkidh, "Le livre de Beton". Derenbourg H., Paris, 1889.
- 221 - Ringgren H., Studies in Arabian fatalism, Uppsala, 1955.
- 222 - Schen L., Ousema ibn Munkidh's memoirs: Some further light on Muslim Middle Arabic (p. 11), "Journal of Semitic Studies". Vol. XVII, N 2. Halfyearly. Manchester univ. press, 1972.
- 223 - Robertson Smith, Kinship and marriage in Early Arabia, London, 1903.
- 224 - /Verz. Ahlwardt/. Verzeichnis der arabischen Handschriften der Königlichen Bibliothek zu Berlin. Von W. Ahlwardt, Bd. VI, Berlin, 1894.
- 225 - /ZDMG/ - Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. Bd. 69-73.
- 201 - Ameer Ali, A Short History of the Saracens, London, 1900.
- 202 - Breasted J.H. Ancient Records of Egypt, vol. II, Chicago, 1906.
- 203 - Browne E., A Literary History of Persia, /vol. I-2/, London 1902-1906.
- 204 - Brockelman C., Geschichte der arabischen Literatur, I-III Leyden, Brill, 1937-1942.
- 205 - Barker E. The Crusades, London, Oxford Univ. Press, 1936.
- 206 - Cahen C., Indigènes et croisés, - Syria, XV, 1934.
- 207 - Cahen C., La Syrie du nord à l'époque des croisades et la principauté franque d'Antioche, Paris, 1940.
- 208 - /K. Leyden/. Catalogue codicum arabicorum bibliothecae academicae Lugduno-Batavae, auctoribus M.X. de Goeje et M.Th. Moutama, I, Lugdini Batavorum, 1888.
- 209 - Derenbourg H., "Ousema poète. Notice inédite tirée de la Kheridat al-Kaer, par Imad ad-Din al-Katib" ("Nouveaux mélanges orientaux"), Paris, 1886.
- 210 - Derenbourg H., la vie d'Ousema, un émir syrien au premier siècle des Croisades, (1095-1188), Paris, 1889.
- 211 - Dorn B., Des Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg, St. Petersburg, 1846.
- 212 - Elisséeff N., Nur ad-Din un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-569/1118-1174), vol. I-III, Damas, 1967.
- 213 - EI-The Encyclopaedia of Islam. T.I.-IV, Leyden - London, 1913-1934.

تصویب

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
۳	۱۳	لتقیمہا	۷۱	۱۵	۱۱۳۷/۵۳۱
۱۴	۱۱	بین	۷۳	۱۰	جہاں
۱۵	۶	فرقت	۷۴	۵	فانح
۲۰	۱۷	شیر	۷۴	۱۰	فی
۲۱	۲۰	سیرہ	۷۶	۵	بمساعدة
۲۳	۶	الاساسي	۷۷	۱۱	انتصارات
۲۳	۱۲	الخريدة	۷۹	۱۶	پوري
۲۴	۱۰	ابنه	۸۳	۵	تمبڈني
۲۴	۱۲	عادات	۸۳	۱۵	عندما
۲۵	۱۴	الجاليلين	۸۴	۵	وصعت
۲۶	۱	الرفيقات	۸۷	۷	إلي
۲۷	۱۳	نسوة	۸۸	۸	ومال
۳۷	۵	كلن	۸۸	۱۱	اتجاهها
۴۰	۱۱	يازيد	۹۲	۳	بجميع
۴۲	۷	البيزنطيين	۹۲	۵	نور الدين
۴۵	۱۲	صبور	۹۲	۱۵	وخال صلاح
۵۹	۱۸	انتقاله	۹۴	۷	يتجرسه
۶۳	۱۵	۱۴ آب	۹۷	۳	يؤيد رأي
۶۴	۱۴	ابن آخت	۱۰۰	۲	ابنه
۶۶	۱۲	فيذا	۱۰۰	۸	بين
۶۹	۶	للأسناد	۱۰۲	۲	كانت
۷۱	۱۴	أبو	۱۰۲	۴	تخلف [ولود]

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
۱۰۴	۷	بأخذ له	۱۵۴	۱۲	إلى تعينتها
۱۰۷	۱	أخطرها	۱۵۶	۱۵	الكتاب محرراً
۱۰۷	۱۲	الزوال	۱۵۹	۱۹	بدلاً من (C)
۱۰۹	۱۰	لم يسؤه	۱۶۲	۶	۵۷۹ بدلاً من ۹۷۴
۱۱۵	۱۱	ارتفاع	۱۶۷	۲۰	أولسيرة
۱۱۶	۲	لم يعاجله	۱۶۹	۸	كأيرى
۱۱۶	۱۰	بشاره	۱۷۰	۷	على المقابلة
۱۱۸	۸	جديده، شديده،	۱۷۳	۹	لكن حتي
۱۳۱	۸	أغرقهم	۱۷۴	۱۰	مؤكداً
۱۳۱	۹	وكنث	۱۷۷		ببدالسطر العاشر سقط
۱۳۴	۷	عصره			سواءً مايلي :
۱۳۵	۷	مجرها			(۱۷). مختصر مناقب أمير
۱۳۸	۳	والظمن			المؤمنين عمر بن الخطاب:
۱۳۸	۶	الأمواه	۱۷۹	۸	الوزراء
۱۳۹	۱۲	أوطالية	۱۸۱	۱۳	بأشماره
۱۴۲	۲	أ. بدوي	۱۸۴	۱۳	هذه الانساعات
۱۴۲	۱۶	مضمته	۱۹۳	۲	لأحيالهم
۱۴۴	۲	في (لیدن)	۱۹۵	۵	آخر السطر بوضع رقم (۱)
۱۴۴	۱۶	GAL	۱۹۷	۹	فاته
۱۴۵	۶	يلائف	۱۹۸	۱	لقد... العالم
۱۴۷	۴	فيه	۱۹۹	۸	الحجمة .
۱۴۸	۲	إلزامي	۱۹۹	۱۸	أبي دؤاد
۱۴۸	۵	كراشكوفسكي	۲۰۰	۲	ضعيف
۱۵۴	۵	للتوب	۲۰۱	۱۲	حجزاتهم

ص	س	الصفحة	ص	س	الصفحة
٢٠٢	١٠	فالسري الرقعة	٢٢٩	٢	نلهو ونجندل
٢٠٢	١٥	[١٥٠٠٠٠دينار]	٢٢٩	٨	وشبهه وشهم
٢٠٢	١٨	ابن القاشي	٢٣٦	٨	عيش موفق
٢٠٣	١	صباحاً... لا ينور	٢٣٧	١١	أن يسلي
٢٠٣	٦	حاشا لاطلاك	٢٣٧	١٤	في نفسه
٢٠٥	٧	ضم رحلك	٢٤٣	٥	أن تلك للدمن
٢٠٦	١	فان أعمى	٢٤٦	١٠	ناظر به
٢٠٦	٣	من مدر كانه	٢٥١	١٥	أصاها القدر
٢٠٦	٤	شوت فغن	٢٦٠	١٢	وفاء لمن
٢٠٦	٨	حق إانه	٢٦٥	٨	أمر بر: مع
٢٠٦	١٠	سرغم ضعفهـ	٢٦٧	٦	حق أنى
٢٠٧	٦	بيتي ستور	٢٧٠	١	في الفلوات
٢٠٨	١٠	١-الوزني	٢٧١	١٥	فمقتها
٢٠٨	١٧	ديوان امرىء القيس	٢٧٣	٦	على اللدمتين
٢٠٩	٧	للانتاع	٢٧٣	١٠	دمن تكسارت
٢١٦	٧	إتم؟	٢٨٣	٥	فتمملت
٢١٧	٧	شعر العصر	٢٨٣	١٥	وقيل للنجير
٢١٩	١	الدار ..	٢٨٤	٧	من مكان إلى
٢١٩	٥	أبت ألا	٢٨٤	١١	تناسب... نباهه المقام
٢٢١	١	ولم أرَ	٢٨٥	١٠	وإن عاش
٢٢٣	١٣	ديوان الخطيئة	٢٨٥	١٠	بتأرب
٢٢٤	٦	في البكاء	٢٨٨	٣	فلا
٢٢٥	٦	إذا ما أدبرت	٢٨٨	١٢	إلا وطن كالقديم
٢٢٨	١١	قد ابتدوا	٢٩٠	٧	أو يعيش

ص	س	الصفحة	ص	س	الصفحة
٢٩٠	١٢	وعن الزبارة	٣١٢	٣	أو تقديم
٢٩٢	٣	فكأبها	٣١٢	٤	ذهبوا
٢٩٣	٦	إذا ألح	٣١٢	٦	علاوة على
٢٩٤	١٢	قد امتلك	٣١٢	١٠	الاعمى
٢٩٨	٤	أن الأرض	٣١٢	١٣	الخوراج
٣٠٠	٦	وفي ظن	٣١٣	١٢	دحمان
٣٠٠	١١	قلب	٣١٤	٧	ونذب... القزاز
٣٠١	١	رؤوسهم	٣١٤	١٤	التيهي
٣٠١	٩	زاحت... لا حسداً	٣١٤	١٥	عباب
٣٠٤	٦	التي تعني المعنى	٣١٥	٧	ويتحول الناس
٣٠٤	١٩	الحالات	٣١٥	١١	فلم يستطلع
٣٠٥	١٤	الشعر العربي ٢٠	٣١٥	١٤	(لفت) بدلاً من (تركيز)
٣٠٧	٩	وتأهل	٣١٦	٦	داري... وسار
٣٠٧	١٤	أو أحدهما	٣١٦	١٠	حيلة
٣٠٧	١٦	في الاصدقاء	٣١٧	٢	بضرورة الحياة
٣٠٨	٤	هو الاخوة	٣١٧	١٢	شكالي
٣٠٩	٥	كمهدهما	٣١٨	١	لنصبي
٣٠٩	١٦	(ربه الاقرب	٣١٨	١٢	أن أزررها
٣١١	١١	أصرم	٣١٨	١٣	بادرت... علي
٣١١	١٣	وتوبة	٣١٩	١١	على الموتى
٣١١	١٥	بيكيان	٣٢٣	١٠	P-46
٣١١	١٦	الشمر دل، ونهارين توسعة	٣٢٨	١	المصادر التي
٣١١	١٧	قصائد	٣٢٨	١٠	بالروح الفاتحة
٣١٢	٢	المعنى العام	٣٣٠	١٤	عن دين أهلهم

المحتوى

الصفحة

٣	إهداء
٨ - ٤	تقديم
١٨ - ٩	المدخل : سورية وفلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر
	إلى نهاية القرن الثاني عشر [XI - XII] .
	« مميزات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية » .

الجزء الاول

١٨١ - ١٩	حياة أسامة وآثاره الأدبية
----------	---------------------------

١١٨٨-١٠٩٤/٥٨٤-٤٨٨

الفصل الاول

١٩ - ١٣٢	حياة أسامة بن منقذ .
٢٣ - ٢٤	- أسامة ونسبه .
٢٥ - ٣١	- شيزر وبنو منقذ .
٣٢ - ٤٦	- امتلاك آل منقذ لشيزر .
٤٧ - ٦١	- أسامة بن منقذ : أيام طفولته وصباه .
٦٢ - ٧٧	- حياة أسامة في شيزر
	. (٤٨٨-١٩٠٥/١١٣٨)

ص	ص	ص	ص	الصواب
٣٣٢	٤	٣٥٤	١	بيننا الدا
٣٣٢	١٣	٣٥٤	١١	فالقبطيات
٣٣٣	١	٣٦٠	١٥	وتقطعت
٣٢٣	١	٣٦٤	١٠	مولع
٣٣٥	٦	٣٦٥	١٢	فاغترابه نفسي
٣٣٥	٧	٣٦٨	٤	إنه عبد
٣٣٥	١٣	٣٦٨	١٣	واختلافه إلى
٣٣٧	٩	٣٩٢	٢٣	(الشنفرى) أبناو جند
٣٤٢	٢٠	٣٩٤	١٨	هذا الزمان
٣٤٦	١٤	٣٩٥	٢	وإن ظلم
٣٤٦	١٥			الساجن
٣٥٠	٥	٤٠١	١٣	توقظه
٣٥١	٥	٤٠٢	١٩	بالبحر
٣٥٢	٧	٤٠٤	١٨	تعالني بالتداني
				كراتشكوفسكي

رابعاً - المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي ، وبعض ١٧٩-١٨١
المؤلفات الأخرى . (نصيحة الرعاة ، النوم
والأحلام ، أزهار الانهار ، التجار المرجحة
والمساعي المنجحة) .

الجزء الثاني

موضوع الوطن في الشعر العربي . ١٨٢-٣٧٧

الفصل الأول

الوطن في الشعر العربي . ١٨٥-٣٠٥

١ - أماكن السكن . [الخيمة ، القصور ، الوقوف
على الاطلال ، وصف الحالة الراهنة للمنازل : تحديد
أماكن السكن ، جبل الديار وعدم معرفتها : المنازل
معقاة ، الديار بلا سكان فقراء خالية ، مكان عيش
الحيوانات ، المنازل صباء بكاء ، تشبيه آثار الديار ،
عوامل تدمير المنازل ، وصف الماضي ، شعور الشاعر
وسلوكة) ، أماكن السكن عند الغزيين ،
عناصر جديدة في التوجه إلى موضوع المنازل
والديار ، ومماثلتها ، العناصر الفلسفية والوعظية ،
أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر ، وبخاصة
في شعر أسامة وأهله .

٢ - المعنى الاوسع لمكان السكن (المغاني والربوع) .
[المغاني ، الربوع ، العناصر التقليدية ، عناصر
التجديد] .

- أسامة في دمشق (٥٣٣-٥٣٨/١١٣٨-١١٤٤) . ٧٨-٨٥
- أسامة في مصر (٥٣٩-٥٤٩/١١٤٤-١١٥٤) . ٨٦-١٠٣
- إقامة أسامة الثانية في دمشق (أسامة ونور الدين) . ١٠٣-١١٨
- (٥٤٩-٥٥٩/١١٥٤-١١٦٤) .
- أسامة في حصن كيفا (٥٥٩-٥٧٠/١١٦٤-١١٧٤) . ١١٩-١٣٤
- إقامة أسامة الثالثة بدمشق (أسامة وصلاح الدين) . ١٣٥-١٣٢
- (٥٧٠-٥٨٤/١١٧٤-١١٨٨) .

الفصل الثاني

- آثار الأدبية لأسامة ١٣٣-١٨١
- أولاً - المؤلفات ذات الطابع الأدبي ١٣٤-١٦٤
- (ديوان أسامة) كتاب الدمع ، كتاب الزبيرين ،
كتاب المنازل والديار ، كتاب العصا ، باب الآداب
التأسي والتسلي ، ذيل بتيمة الدهر ، الشيب والشباب .
- ثانياً - مؤلفات تحمل طابع السيرة والطابع التاريخي . ١٦٤-١٧٦
- (الاعتبار) ، كتاب أخبار أهله ، كتاب تاريخ
أيامه ، تاريخ القلاع والحصون ، أخبار النساء ،
أخبار البلدان في مدة عمره) .
- ثالثاً - المؤلفات ذات الطابع التاريخي - الجغرافي ١٧٦-١٧٩
- (التعريف بالأعلام) . (التاريخ البعدي ،
مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، مختصر
مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فضائل
الخلفاء الراشدين) .

٣ - بقايا أماكن السكن : [المعاني اللغوية ، بقايا آثار

أماكن السكن عند أسامة] .

٤ - معنى الوطن الواسع .

الفصل الثاني

٣١٩-٣٠٦

الاهل والاخوان (المواطنين) .

الفصل الثالث

٣٧٧-٣٢٠

الحنين إلى الوطن والمواطنين .

(الشعراء المسجونون ، الشعراء المنفيون والمهاجرون ،

الشعراء المهاجرون) .

٣٨٤-٢٧٨

الخلاصة :

٤٢١-٣٨٥

فهرس المراجع والمصادر :

٤٢٦-٤٢٢

تصويب :

٤٣٠-٤٢٧

الختوم :

٤٣٠

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس